غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

المجلد الخمسون

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

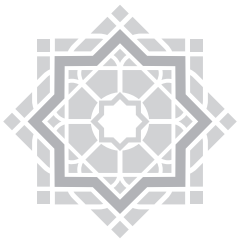
الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي



المِحْوَرُ الخَامِسُ

القُرْآنُ وعُلُومُهُ وتَفْسِيرُهُ

٩٧ تفسير سورة الرعد

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة



نسخة مجانية

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

المحور الخامس

القرآن وعلومه وتفسيره

غير مرخصة للطباعة

٩٧

تفسير
سورة الرعد

الإمام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

من الدستور الإلٰهي للبشرية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۞ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٥ ـ ٧].

QaradawiBooks.com

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال في كتاب الله ﷻ برأيه فأصاب، فقد أخطأ**». رواه أبو داود، والترمذي.

عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثلي ومثل ما بعثني الله، كمثل رجل أتى قوما فقال: رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجا النجاءَ، فأطاعته طائفة فأَدْلَجُوا على مَهْلهم فنجَوْا، وكذَّبته طائفة فصبَّحهم الجيش فاجتاحهم**». متفق عليه.



غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمة الطبعة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتَّبع هداه.

(أمَّا بعد)

فهذه هي الطبعة الثانية لهذا الكتاب (**تفسير سورة الرعد**) وهي ـ بحمد الله تعالى وتوفيقه ـ طبعة مُصَحَّحة منقَّحة، فإنَّ ممَّا آسف له: أنَّ الطبعة الأولى كان بها الكثير من الأغلاط، حتَّى إن فِقْرةً من تفسير آية من عدَّة صفحات سقطتْ من الطبع تمامًا، كما وجدت فيها فِقَرات طويلة تكرَّرتْ بغير مبرر.

وأنا حريص على أن أُصحِّحَ «البروفة» الأخيرة من كتبي، حتَّى أطمئنَّ على سلامتها من الأغلاط الَّتي تعتري الكتب أثناء الطباعة، وهذا بلاء عام. ولكنِّي اعتمدتُ على الأخ الكريم الأستاذ محمود عوض، الَّذي تولَّى تفريغ هذه الدروس، وتحقيقَها والتعليقَ عليها. وهو أهلٌ للثقة، ولكن يبدو أنَّ الناشر أسرع بطبع الكتاب دون أن يردَّه إليه لمراجعته، ولهذا فوجئ هو بهذه الأغلاط.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقد اضْطرني هذا أن أراجع الكتاب مرَّتين: مــرَّة لإعداده للطباعة، ومرَّة أخرى لمراجعته النهائيَّة. ومن هنا هذَّبتُ بعض العبارات، وحذفتُ أحيانًا وأضفتُ، وهذا قليلٌ محدود، ولكنَّه نافع إن شاء الله.

ومن أهم ما صنعتُه في هذه الطبعة: وضــع عناوين جانبيَّة لمباحث الكتاب؛ لتعينَ القارئَ على استيعاب موضوعاته، ولتكون أساسًا للفهرس العام في ختام الكتاب.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب مؤلفه ومحقِّقه، وناشره وقارئه، وأنْ يرزقنا صدق النيَّة، وسدادَ التَّوجه، والتوفيقَ في القول والعمل، وأنْ يجعل القرآن الكريم منهاجَنا في الدنيا، وشفيعَنا في الآخرة. اللهم آمين.

الدوحة في: رجب الموافق نوفمبر ١٩٩٧م

الفقير إليه تعالى

يوسف القرضاوي

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمة الطبعة الأولى

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ١ ـ ٣].

والصَّلاة والسلام على من أُنزل عليه الكتاب؛ ليخرج النَّاس من الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم إلى صراط العزيز الحميد، سيِّدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمَّد وعلى آله وصحبه؛ الَّذين آمنوا به، وعَزَّروه ونصَروه، واتَّبعوا النور الَّذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون، وعلى من دَعَا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهادَه إلى يوم الدين.

(أمَّا بعد)

فمنذ سنوات وأنا ألقي درس الاثنين بعد صلاة العشاء بمسجد عمر بن الخطاب بمدينة الدوحة ـ عاصمة دولة قطر ـ وكان هذا الدرس حرًّا، أتنقَّلُ به من علم إلى علم حسب المقام، فحينًا يكون في العقيدة، وتارَةً يكون في الأخلاق أو في التربية، وطوْرًا في الفقه أو في الاقتصاد، وآخر في التفسير، أو في الحديث، أو في السيرة، وأحيانًا أخرى في الدعوة والفكر، وواقع الأمة بين كيد أعدائها وغفلة أبنائها.

QaradawiBooks.com

ثمَّ اقترح عليَّ بعض الإخوة المواظبين على الحضور خلال السنة الدراسيَّة ١٩٩١ ـ ١٩٩٢م أنْ أتناولَ سلسلة محدَّدة في موضوع معيَّن، بحيث تسجَّل في أشرطة كما هو المعتاد، وتُفرَّغ وتُنشر على الناس، فينتفعوا بها مقروءة، كما انتفعوا بها مسموعة.

وكان من المقترحات المطروحة أن أبدأ دروسًا في «تفسير القرآن الكريم» تكون خدمةً لكتاب الله ﷻ، وتربط المسلمين به علمًا وعملًا، ودعوةً وجهادًا، والقرآن هو أساس الوجود الإسلامي كله، وهو ينبوع العقيدة، وكليَّة الشريعة، وعُمْدة المِلَّة، والسُّنَّة إنَّما هي مُبيِّنة وشارحة له.

وقد لاقى هذا المقترح هوًى في نفسي، فأنا ابن القرآن وربيبُه، منذ أتممتُ حفظه وتجويده وأنا دون العاشرة، وقد كان لي وقفات مع كثير من آياته في دروس التراويح في رمضان، لمدة ثلاثة وثلاثين عامًا قضيتها في قطر، أصلي فيها التراويح ثماني ركعات غير الشفع والوتر، وأتلو فيها «جزءًا» من أجزاء القرآن الثلاثين، وبعد الركعات الأربع الأولى تكون ترويحة، ألقي فيها درسًا فيما يفتح الله به عليَّ، من أسرار آيات كتابه العزيز.

وقد كنتُ في السنة الدراسيَّة السابقة (١٩٩٠ ـ ١٩٩١م) مُعارًا من دولة قطر إلى جمهوريَّة الجزائر الشقيقة، بناء على طلب من الرئيس الجزائري الأسبق الشاذلي بن جديد، وموافقةٍ من أمير قطر الشيخ خليفة بن حمَد آل ثاني، لرئاسة المجلس العلمي لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميَّة في مدينة قسنطينة، والتعاون مع وزارة الشؤون الدينيَّة الَّتي كان يرأسها صديقنا الدكتور سعيد شيبان، وكان ممَّا طلبه مني الإخوة في الجزائر: أن أقوم بدرس أسبوعيٍّ في التفسير في أحد المساجد الكبيرة

QaradawiBooks.com

بالعاصمة، واقترحوا عليَّ أنْ أبدأ «بسورة يوسف» فرحَّبتُ بذلك، وشرعتُ بالفعل في هذا الدرس الَّذي كان يشهده الآلاف، ويسجَّل مسموعًا ومرئيًّا، واستمرَّ طوال تلك السنة الدراسيَّة وإن لم يقدَّر لي إكمال السورة.

ولهذا حين اقترح بعض الإخوة في الدوحة أن أبدأ من «سورة الرعد»، انشرح لذلك صدري، لتكون استكمالًا لما بدأتُ به في الجزائر من ناحية، وتحقيقًا لرغبةٍ قديمة من عدد من المحبّين كانوا قد طلبوا إليَّ أن أكمل «تفسير المنار» للعلَّامة المُجدِّد السيد محمد رشيد رضا رحمه الله وجزاه عن الإسلام والقرآن خيرًا.

ومن هؤلاء: العلَّامة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود ـ رئيس المحاكم الشرعيَّة في قطر ـ الَّذي رغِب إليَّ في ذلك بعد وصولي إلى قطر بنحو ثلاث أو أربع سنوات، وقال: «سنوفِّر لك كل ما يُعينك على أداء هذه المهمَّة»، ولكن تهيَّبتُ هذا الأمر، ولم أجد الشجاعة ولا النيَّة للإقدام عليه.

وبعد ذلك بسنوات عندما زرتُ مدينة «مسقط» ـ عاصمة سلطنة عُمان ـ وسعدتُ بلقاء علَّامتها الشيخ أحمد محمد الخليلي ـ مفتي السلطنة ـ كان ممَّا اقترحه عليَّ أن أُتمِّم تفسير المنار على طريقة الشيخ رشيد، ولكن لم يُقدَّر لي التجاوب مع هذه الرغبات المخلصة.

فلا غرو أنْ أستجيب لهذا الاقتراح الجديد القديم، ولا أزعم أنني أكمل تفسير المنار بهذا التفسير؛ وذلك لعدَّة أسباب:

(**أوَّلها**): أنَّ هذا التفسير مرتجل، وليس مكتوبًا محرَّرًا. ولغة الارتجال لا ترقى إلى لغة الكتابة المُحرَّرة المدققة.

QaradawiBooks.com

(**ثانيها**): أنَّ الشيخ رشيد هو شـــيخي وأستاذي، الَّذي أحببتُه وقدَّرته من قديم، والتلميذ لا يبلغ مبلغ شـــيخه، وقد قيل: الفضل للمبتدي وإن أحسن المقتدي.

(**ثالثها**): أنَّ لكلِّ شيخ طريقته، وأنا لا أحسن التقليد، ولم أحاول في حياتي أن أكون نسخةً من أحد، فأنا متأثِّر بصاحب المنار، ومُعجَب به، ومستفيد منه، ولكنِّي لست إيَّاه.

(**رابعها**): أنَّ السيد رشـــيد بدأ هذا التفسير وهو شاب واستمر خمسًا وثلاثين سنة يكتبه شهريًّا، يُصدِّر به مجلته الشهيرة «المنار» ومع هذا لم يكمل إلَّا اثني عشر جزءًا من القرآن، فكيف أطمع أن أكمل هذا العمل الجليل، وقد تجاوزتُ منتصف العقد السابع من العمر؟

لهذا قدَّمتُ هذه الدروس في التفسير على طريقتي الخاصَّة؛ مستفيدًا من علوم السلف، ومعارف الخلف، وثقافة العصر، دون محاولة منِّي أن أفرض على كتاب الله ما يأباه، وقد بيَّنتُ منهجي في التفســـير والأسس الَّتي قام عليها في المقدِّمة بالتفصيل فليراجعها من أراد.

وما كان لهذه الدروس أن ترى النور مقروءةً في كتاب، لولا فضل الله تعالى وتوفيقه أولًا، ثم جهـــد الأخ الكريم، الصحفي المســـلم اللامع الأستاذ محمود عوض؛ الَّذي قام متطوِّعًا مختارًا بتسجيل هذه الدروس على أشرطة «الكاســـيت»، ثم قام بإفراغها على الورق، وضبطها وعلَّق عليها تعليقات مفيدة، تدلُّ على مدى علمه وفضله.

وقد نشرها أوَّلًا بصحيفة «العرب» القطرية في حلقات، وها هو اليوم يعدُّها للنشر في كتاب، بعد أن عرضها عليَّ وأجزتُها بعد قليل جدًّا من التنقيح والإضافة.

QaradawiBooks.com

جزى الله أخي الحبيب محمود عوض[١] عنِّي وعن العلم وعن القرآن خير ما يجزي به العاملين، الَّذين أخلصوا دينهم لله، وأخلصهم الله لدينه، وأرجو أن يكون منهم.

كما أدعو الله تعالى أن يكون في هذه الدروس ما ينفع المسلمين في دينهم ودنياهم، وما يأخذ بأيديهم في عصر محنتهم، ويهديهم سواء السبيل، وأن يغفر لنا ما زلَّ فيه القلم، أو شرَد فيه الفكر عن الصواب: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

الدوحة في يوم السبت ٢٦ ربيع الثاني ١٤١٥هـ
الموافق: ١ أكتوبر ١٩٩٤م

الفقير إلى عفو مولاه
يوسف القرضاوي

(١) رحمه الله تعالى.

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

بين يدي التفسير

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الَّذي بنعمته تتمُّ الصالحات، الَّذي هدانا لهذا وما كنَّا لنهتديَ لولا أن هدانا الله، وأشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا وإمامنا محمدًا عبد الله ورسوله، أرسله ربه ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، وأنزل عليه الكتاب: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١].

صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه، ومَنْ دعا بدعوته، واهتدى بسُنَّته، وجاهَد جهادَه إلى يوم الدين.

(أمَّا بعد)

فنبدأ باسم الله، وعلى بركة الله دروسَنا في تفسير كتاب الله ﷻ، ونرجو أنْ يعينَنا الله تبارك وتعالى، وأن يمدَّنا بتوفيقه لتستمر هذه الدروس، وقد طلب إليَّ بعض الإخوة من قديم أن أبدأ من حيث انتهى العلَّامة المجدِّد السيد رشيد رضا رحمه الله وتقبَّله في الصالحين والعلماء العاملين، صاحب «المنار» حيث انتهى في التفسير من سورة يوسُف، وكنتُ في العام الماضي حينما كنتُ في الجزائر، قد بدأتُ التفسير بسورة يوسف وإن لم أتمَّها، وأرجو الآن أن أبدأ بسورة الرعد.

QaradawiBooks.com

ولكنِّي أحبُّ قبل أن أبدأ في التفسير مباشرة أن أقدِّم ـ على طريقة علمائنا من أهل التفسير ـ بعض المقدِّمات الَّتي يحسن أن تكون في مقدِّمة أيِّ تفسير.

غير مرخصة للطباعة

تكفُّل الله بحفظ القرآن:

نحن المسلمين أكرمنا الله تبارك وتعالى بما لم يكرم به أمة قبلنا، وليس هناك أمة بعدنا. أكرمنا الله ﷻ بهذا القرآن، ونحن المسلمين وحدنا الَّذين نملك هذه الوثيقة السماويَّة الإلٰهيَّة الَّتي تتضمَّن كلمات الله تبارك وتعالى الأخيرة للبشريَّة، كلمات الله الَّتي لم تَشُبها شائبة، ولم يدخل عليها باطل من باطل الإنسان، ومن أهواء الإنسان وأوهامه وقصوره وأخطائه.

وصدق الله العظيم حينما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. فنحن عندنا هذا القرآن المحفوظ في الصدور، المدوَّن في المصاحف، المتلو بالألسنة، المتعبَّد بتلاوته، نقرؤه كما أنزل على محمد ﷺ، لم ينقص منه سطر ولا كلمة ولا حرف، نقرؤه بغنّه ومدّه[(١)]، وحركاته وسكناته، كما كان يقرأه النبي ﷺ والصحابة من بعده، وكما تلقَّته أجيال الأمَّة عنهم جيلًا بعد جيل، حتَّى كتابته بالرسم العثماني[(٢)] بقيت كما هي، مع زيادة في النقط والشكل.

فالقرآن هو كتاب الله الَّذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، تميَّز بأنه كتاب الخلود، كتاب الزمن كله، ليس كتاب عصر

(١) يعني أحكام التجويد من الإظهار والإخفاء والإدغام والغنّ والمد وغيرها؛ ممَّا يُعرف عند المتخصصين في علوم القرآن وأهل الأداء (القرَّاء).

(٢) نسبة إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي جمع المسلمين على مصحف واحد؛ سُمِّيَ المصحف الإمام.

QaradawiBooks.com

من العصور، ولا كتاب جيل دون جيل، ولهذا لم يستحفظه الله المسلمين، كما استحفظ التوراةَ أهلَها، إنَّما هو سبحانه الَّذي حفظه؛ إذ ليس هناك كتاب بعد القرآن، فلو حُرِّف القرآن لن يأتي بعده كتاب آخر يُهَيْمِن عليه ويُصحِّح له، وليس هناك نبي بعد محمد ﷺ، وليس هناك رسالة بعد الإسلام، وليس هناك أُمَّة بعد هذه الأمَّة.

ولذلك ضمن الله وتكفَّل بحفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، والجملة الاسمية ـ كما يقول البلاغيون ـ إنَّها مؤكِّدة أكثر من الجملة الفعلية، فإذا دخلت عليها «إنَّ» وهي حرف تأكيد كان ذلك أكثر تأكيدًا، فإذا جاء الخبر مقرونًا بلام التأكيد ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فهذا زيادة في المؤكِّدات الَّتي جاء بعضها وراء بعض لتدلّ على مدى الحفظ الإلٰهي، فالقرآن كتابٌ محفوظ، كتابٌ خالد. ولهذا هيَّأ الله له أسباب التواتر منذ عهد البعثة إلى اليوم، ولا يوجد كتاب في الدنيا يحفظه الألوف وعشرات الألوف غيْر القرآن الكريم.

بل إنَّ الصبيان عندنا يحفظونه، على عكس ما يوجد عند أهل الكتاب، إذ لا يوجد عندهم من يحفظ الكتاب المقدَّس ولا نصفَه ولا ربعَه ولا خمسَه ولا عُشرَه، لا على مستوى القسِّيسين والكرادلة والأساقفة فحسب، بل على كل المستويات الأعلى والأدنى، ولعلكم سمعتم وقرأتم عن صبية حفظوا القرآن، وأطفال دون السابعة حفظوه، وقُرِّى بأكملها يحفظ أهلها القرآن[1].

وأعجب من هذا أن تجد من غير العرب من يحفظ القرآن وهو لا يكاد يعرف كلمة واحدة في اللغة العربيَّة، وقد اختبرت بعضهم

(١) مثل قرية (أويش الحجر) وغيرها كثير من القرى، التي لم تُعرف إلا في بلاد المسلمين.

QaradawiBooks.com

بنفسي، وكنتُ آتيهم بالمشتبهات من الآيات فلا يلحنون ولا يسقطون كلمة، ولا يخرمون حرفًا؛ كأنَّهم أجهزة تسجيل، ومنهم من أبناء باكستان وبنجلاديش وبورما، ولو سألتَ أحدهم: ما اسمك؟ لا يعرف معناها؛ لأنَّه لا يعرف العربيَّة، وهذا من إعجاز القرآن الكريم.

القرآن المصدر الأول لهذا الدين:

والقرآن الكريم هو كتاب الإسلام، فهو المصدر الأول لهذا الدين يؤْخذ منه أوَّل ما يؤْخذ قواعد الدين ومقاصده وكلياته، وتأتي السُّنَّة المصدر الثاني؛ لتبيِّن وتفسِّر، ولكن الأساس في كتاب الله ﷻ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] لكلِّ شيء في أمور الدين، أمَّا أمور الدنيا فقد تُركت لنا، وبحسب القرآن أن يشير إلى ما يهدي إليها فنحن أعلم بأمور دنيانا[1]، أمَّا كليَّات الدِّين وقواعدُه، ومبادئه وأساسياتُه؛ فهي في القرآن الكريم.

ومن خصائص القرآن الكريم أيضًا: أنَّه كتابٌ مُيَسَّر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [١٧، ٢٢، ٤٠]. وقال ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]. فهو مُيسَّر للفهم، ومُيسَّر للحفظ، لأنَّه كتاب مبين: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١، الشعراء والقصص: ٢]. فهو بيِّن في نفسه، مُبيِّن للحقائق، كاشف للناس عمَّا يوصلهم إلى سعادة الدنيا والآخرة.

ومن خصائصه: أنَّه كتاب معجِز، فهو معجزة محمد ﷺ الكبرى وآيته العظمى.

---

(١) إشارة إلى حديث رسول الله ﷺ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم». رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

لم يتحدَّ النبيُّ ﷺ بأيِّ آية من الآيات؛ مع أنَّ الله ﷻ أظهر على يديه من الآيات والخوارق الكونيَّة الكثير، كما أظهر على أيدي الأنبياء والرسل السابقين.

آياتٌ كثيرة ألفت فيها كتب تسمَّى «دلائل النبوَّة» عن الآيات والمعجزات والخوارق للعادات والإنباء عن الغيوب، كتكثير الطعام القليل بين يديه ﷺ، ونبع الماء من بين أصابعه، وحنين الجذع إليه، وتسبيح الحصى بين يديه ﷺ، وانشقاق القمر له، والإسراء والمعراج وأشياء كثيرة جدًّا، ومع هذا لم يتحدَّ إلَّا بالقرآن، فهو الآيةُ الَّتي تحدَّى بها العرب أن يأتوا بمثله: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤]. أو بعَشر سور مثله: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]. أو بسورة من مثله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣]. تحداهم، وقال: إنكم لن تفعلوا: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤]. فغُلبوا وانقطعوا وحقَّت عليهم كلمة الله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

هذا هو القرآن الكريم الَّذي أكرم الله به أمَّة الإسلام، وأعطاها هذا الدستور الخالد، وهذا المنهاج الشامل الَّذي أخرجها من الظلمات إلى النور، والذي كان حبل النجاة للعرب، فأخرجهم من الجاهليَّة إلى الإسلام، ومن الشِّرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الفوضى إلى النظام، ومن الجهل إلى العلم، ومن البداوة إلى الحضارة، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

هذا الكتاب فسَّره المسلمون وخدموه، كلٌّ في مجال اختصاصه، فمنهم من خدمه بالحفظ، ومنهم من خدمه بالكتابة، ومنهم من خدمه بالقراءة، ومنهم من خدمه بالتفسير، ومنهم من خدمه باستنْباط الأحكام من آياته، وذلك منذ عهد الصحابة إلى يومنا هذا.

وقد يسأل سائل: لقد قلت: إنَّ القرآن كتابٌ مبين، وكتاب ميسَّر للفهم والذكر، فلماذا احتاج إلى تفسير؟

أقول: احتاج القرآن إلى تفسير؛ لأنَّ الكلام البليغ الَّذي يوجز المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة يحتاج إلى أن يفسَّر ويشرح للناس، حتَّى يكتشفوا ما وراء كلماته من كنوز المعرفة والحقائق، ثم هناك ألفاظ قد تخفى معانيها على النَّاس وهو ما يعرف بعلم غريب القرآن.

وهناك أشياء قد يفهمها النَّاس على غير وجهها كمن يأخذ المجاز على أنَّه حقيقة، كما يروى عن عدي بن حاتم الطائي أنَّه فهم من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] أنَّهما خيطان على الحقيقة، وجاء بخيطين أحدهما أبيض والآخر أسود، ووضعهما على وسادته، ومضى ينظر فلا يتبيَّن له الخيط الأبيض من الأسود، فلمَّا كان النهار ذهب إلى رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «**إنَّما هما بياضُ النَّهار وسوادِ اللَّيْل**»[1]، وبيَّن له أنَّ الأمر على المجاز.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٩١٦)، ومسلم (١٠٩٠)، كلاهما في الصيام، عن عدي بن حاتم، ولفظه عند البخاري: «إنَّما ذلك سواد الليل وبياض النَّهار».

QaradawiBooks.com

ومنهم من يفهم من اللفظ العموم، والمراد به الخصوص، كما يُروى عن الصحابة رضوان الله عليهم أنَّهم فهمـــوا من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] عمومَ الظلم ومنه ظلم النفس بالمعصية، ومَنْ ذا الَّذي يُعصم من المعصية؟! فقالوا: يا رسول الله: وأيُّنا لا يظلم نفســه؟! فقال ﷺ: «**أَمَا ســمعتم قولَ العبد الصالح**: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]؟»[1]. وهو من كلام لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

فبيَّن لهم أنَّ الظلم المقصود في الآية ليس أيَّ ظلم، كما يفيد اللفظ؛ لأنَّه نكرة في ســياق النفي فهي تعمّ، ولكن المقصود ظلم معيّن، بيَّنته الآية الأخرى وهو الشِّرك.

ومن تأمَّل في الآية حقَّ التأمُّل عــرف أنَّ الظلم في الآية فعلًا يعني: الشرك؛ لأنَّها تعلق على موقف إبراهيم عليه السلام؛ حينما خوّفوه بأصنامهم أن تكيد له أو تنزل به الضرر، فقال: مــن الَّذي يجب أن يخاف؟ أنا أخاف الأصنام، أم أنتم الَّذين ينبغي أن تخافوا الله سبحانه وتعالى؟! ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعــام: ٨١، ٨٢]. أي: لم يخلطوا ولم يشوبوا توحيدَهم بشرك فالمقام يقتضي هذا، فإذا كان الصحابة قد اشتبه عليهم بعض الآيات وفهموها على غير وجهها، فحريٌّ بمن كان بعدهم أن يحدث له هذا.

---

(١) متَّفق عليــه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٠)، ومســلم فــي الإيمان (١٢٤)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

ثم إنَّ هـذا القرآن مليء بالأسـرار، حافل بالحقائـق الَّتي قد تظهر لبعض النَّاس دون بعض، وتظهر في بعـض الأزمنة دون بعض، ولهذا ورد في حديث الترمذي أنَّه «**لا تنقضي عجائبـه**»[(١)]، ومن أجل هذا دعا النبي ﷺ لابن عمه عبد الله بن عبـاس، فقال: «**اللهـمَّ فقِّهْه في الدين، وعلِّمْه التأويل**»[(٢)].

وقد يظهر لواحد ما لا يظهر لغيره، كما قال سيِّدنا عليّ رضي الله عنه حينما قيل له: هل خصَّكم رسول الله ﷺ بشيء؟ قال: «لا، إلَّا فهمًا يؤْتاه عبد في كتاب الله، وما في هذه الصحيفة»[(٣)]، وأخرج لهم صحيفة فيها بعض الأحكام.

فالناس تتفاوت فهُومُهم في الاسـتنْباط من القرآن، وفي الفهم عن الله، يقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النسـاء: ٨٣]، فلا عجَب أن يحتاج القرآن إلى تفسـير، وخصوصًا أنَّ الله سبحانه وتعالى أنزل في القرآن آيات محكمات وآيات مُتشابهات. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

---

(١) رواه الترمذي في فضائل القـرآن (٢٩٠٦) وقال: حديث غريب لا نعرفـه إلا من هذا الوجه وإسـناده مجهول، وفي الحارث مقال. وضعفه الألباني في الضعيفة (٦٣٩٣)، عن علي بن أبي طالب.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (٧٥) بلفظ: «اللهمَّ عَلِّمْه الكتاب»، (١٤٣) بلفظ: «اللهمَّ فقِّهْه في الدِّين»، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٧) بلفظ: «اللهمَّ فقِّهْه»، وأحمد (٢٣٩٧) وقال مخرِّجوه: إسناده على شرط مسلم، بلفظ: «وعلِّمْه التأويل».

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٤٧)، ومسلم في الحج (١٣٧٠).

QaradawiBooks.com

من أجل هذه كانت هناك آيات تحتاج إلى توضيح وتفسير، وآيات تحتاج إلى تجلية وزيادة بيـان، ومن أجل هذا احتـاج القرآن إلى أن يفسِّـرَه المسـلمون في كل عصر، بما يفتح الله على مـن تعرَّض لهذا التفسير، ولا شك أنَّ كل عالم يتمنى أن يكون له حظ من خدمة القرآن الكريم، وأحبُّ أن يكون لـي حظٌّ من خدمة القرآن العظيم، وأرجو أن يوفقني الله إلى هذا، كما أرجو أن يوفقني إلى كتابة شـيء في سـيرة رسول الله ﷺ.

ومن هنا نحـاول أن نعيش مع القرآن، وفي رحـاب القرآن، نتدبره ونتأمله، وقد أنزلـه الله تعالى ليُتدبّر كمـا قال ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. وكما قال أيضًا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وفي سورة محمد وتسمَّى سـورةَ القتال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

فنحن نريد أن نتدبَّر القرآن الكريم، وما تفسير القرآن إلَّا رحلة تأمُّل وتدبُّر فيه، وليس معنى هذا التدبر والتفسير أن نترك التراث الهائل الَّذي ورثناه من التفاسـير ونبدأ من الصفر، فلا يقول بهذا إنسـان شَمَّ رائحة العلم، والذي يظنُّ أنَّه يبدأ من الصفر لا يعرف في العلم شيئًا؛ لأننا أمةٌ ورثنا تَرِكة طائلة من العلوم ليست عند أمة من الأمم، ومنها: علم التفسير الَّذي بدأ منذ عصر الصحابة: الخلفاء الراشـدين، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وتلاميذهم من بعدهم: مجاهد وعكرمة وسـعيد بن جبير، والمدرسة المكيَّة، والمدرسة المدنيَّة، والمدرسـة الكوفيَّة في التفسير، وأتباع التابعين إلى من بعدهم.

QaradawiBooks.com

هذا التراث لا بدَّ أن ننتفع به، ولا بدَّ أنْ نستفيد من مدارس التفسير كلها: التفسير بالرواية، والتفسير بالدراية، أو ما يُسمَّى: التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي.

وهناك قواعد لا بدَّ أن نسلِّم بها إذا أردنا أن نفسر كتاب الله ﷻ تفسيرًا على منهج سليم.

تفسير القرآن بالقرآن:

أولى هذه القواعد: أن خير ما يفسِّر القرآن هو القرآن؛ لأنَّ القرآن يصدِّق بعضه بعضًا؛ ويفسِّر بعضه بعضًا، كما قرأنا: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. فما أُجمل في مكان نجد تفسيرَه وتفصيلَه في مكان آخر، وما كان عامًّا في موضع يخصصه موضع آخر. وما كان مطلقًا في آية قد تقيِّده آية أخرى.. وهكذا. ولهذا لا بدَّ لمفسِّر القرآن أن يكون مستوعبًا للقرآن مستحضرًا له؛ بحيث يستطيع أن يأتي في الموضوع الواحد بالآيات المشابهة، والآيات المقابلة، والآيات المتمِّمة، وقد يعين على ذلك في عصرنا من لم يحفظ القرآن ويعايشه: المعاجم، مثل «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، وإن لم يغنِ في كل الأمور؛ فقد يتكرَّر المعنى بغير اللفظ الواحد.

فالقرآن يفسِّر القرآن، والذي سنَّ لنا هذه السُّنَّة هو رسول الله ﷺ حينما قال للصحابة رضوان الله عليهم: «**أمَا سمعتم قول العبد الصالح**: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»[1].

(١) سبق تخريجه صـ٢١.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأنت حينما تقرأ فاتحة الكتاب. وتقرأ فيها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وتتساءل: ما المقصود بالعالمين؟ تجد توضيحَ ذلك في آية أخرى في سورة الشعراء في حوار موسى مع فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤]. فعلمنا أنَّ العالمين هي السماوات والأرض وما بينهما، فهو ربُّ الكون كلِّه، علويِّه وسفليِّه.

وحينما تقرأ من فاتحة الكتاب: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]. تجد تفسير يوم الدين في سورة الانفطار: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۞ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۞ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٩].

وهكذا فالذي يريد أن يفسِّر القرآن ينبغي أن يبحث عن المعنى في سور القرآن المختلفة.

تقرأ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]. فإذا أردت أن تعرف مَنْ هم الَّذين أنعم الله عليهم؟ تجد آية أخرى في سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

لا ينبغي إذن لمن يفسِّر القرآن أن يُمسك بآية واحدة ويدَع بقية القرآن؛ بل ينبغي أن يَتتبَّع اللفظ حينًا، وأن يتتبَّع المعنى حينًا آخر؛ ليعرف موقف القرآن من القضيَّة الَّتي تعنيه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

دلالة كلمة ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ في القرآن الكريم:

هناك قوم أخذوا قوله تعالى عن الخمر والميسر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]. فقالوا: إنَّ القرآن قال: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ ولم يقل: حُرِّمت عليكم، وكأنَّ كلمة ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ هـذه كلمة هينة، ولو أنَّهم تتبَّعوا كتاب الله لوجدوا أن هذه الكلمة إنَّما جاءت مقترنة بأعظم الذنوب: بالشِّرك، وبالأوثان، وبالكبائر.

يقول الله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]، ويقول: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ويقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

فلو نظرتَ لوجدت أنَّ الكلمة تأتي مع الشِّرك، ومع الأوثان، ومع الطاغوت، ومع كبائر الإثم، وهذا هو مورد الكلمة في القرآن، ومعنى «اجْتَنِبْ» أي: اجعل بينك وبين الشيء جانبًا، فكأنها لم تَنْهَ عن اقتراف الذنب أو الإثم فقط؛ بل نَهَتْ عن فعله وعن الاقتراب منه، فهي تشبه: ﴿لَا تَقْرَبُواْ﴾ كما في آيات الزنى؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. فالقرآن لم ينهَ عن الزنى فقط، بل نهى عن الاقتراب منه، وعمَّا يقرِّب منه، ويوصل إليه، ويساعد عليه، مثل التبرج والخلوة والقبلة، إلى غير ذلك.

QaradawiBooks.com

تقرير عالمية الدعوة في القرآن المكي:

بعض المستشرقين[١] أمسكوا بعض الآيات وقالوا: إنَّ محمدًا لم يكن يفكر في عالميَّة الدعوة إلَّا في المدينة، بعد أن استتبَّ له الأمر بعد صلح الحديبية، وبدأ يرسل إلى الملوك والأباطرة، وكسرى وقيصر، والنجاشي والمقوقس، وقبل ذلك في مكة لم يكن يفكر في عالميَّة الدعوة؛ بل كان يفكر في عشيرته الأقربين وفيمَنْ حول مكة، واستدلوا على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. وبقوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]. وهذا في الحقيقة لون من الاعتساف والتزييف؛ لأنَّ الَّذي يريد أن يعرف الحقيقة لا بدَّ له من أن يقرأ القرآن ويعرف ما فيه، فالقرآن المكيُّ واضح وصريح في عالمية الدعوة، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧، والتكوير: ٢٧]، وقال: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢].

وهذا ورد في سور شتَّى من القرآن الكريم كسورة «ص»، وسورة «التكوير»، وسورة «القلم»، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]. وكل هذه الآيات مكيَّة، والعجيب أنَّ

(١) منهم السير وليم موير، الذي يقول: إنّ فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيما بعد، وإن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها، لم يفكر فيها محمد نفسه، وعلى فرض أنَّه فكر فيها؛ فقد كانت الفكرة غامضة، فإن عالَمه الذي كان يفكر فيه إنَّما كان بلاد العرب. إلى آخر ما قال هو وغيره. انظر: الدعوة إلى الإسلام للسير توماس أرنولد صـ ٤٩، ٥٠، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وآخرين، نشر مكتبة النهضة المصرية.

QaradawiBooks.com

الآيات الَّتـــي صرَّحت بعالميَّة الدعوة آيات مكيَّـــة بالإجماع، وهذا يدلُّ على أن عالميَّة الدعوة لم تكن أمرًا قد خطر لمحمد ﷺ في المدينة بعد أن اسْـــتَتَبَّ له الأمر، ولكن الصحيح أنَّه بعد أن صالح محمد ﷺ قريشًا واسْـــتَتَبَّ له الأمرُ، بدأ يفكر في نشر الدعوة الإســـلاميَّة خارج الجزيرة العربيَّة، وقبل ذلك لـــم تكن الفرصـــة مواتية لمثل هذا؛ بـــل لم يُترك رسول الله ﷺ ليستريح يومًا ما.

وأمَّا قولـــه تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشـــعراء: ٢١٤]، فهذا من مراحل الدعوة، والرســـول ﷺ يقول: «**ابدأْ بنفْسِـــكَ ثُمَّ بمن تعول**»[(١)]، فالإنســـان يبدأ أوَّل ما يبدأ بدعوة أهله، ودعوة جيرانه ودعوة من حوله، ثم يوسع النطاق شيئًا فشيئًا، فقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾، يعني: بني عبد مناف ثم قريشًـــا، ثم بعد ذلك أهل مكة ومن حولها أو ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وهذه الحكمة في التدرُّج لا تنافي عالَمية الدعوة. فعلى من يتعرض لقضايا القرآن أن يتتبَّع اللفظ، وأن يتتبع المعنى حتَّى ينتهي إلى الرأي الصائب السديد.

الرد على من قال بإيمان فرعون موسى:

كتب بعض المفكرين المســـلمين كتابًا وأســـماه «الظاهرة القرآنيَّة»، وذكر فيه أن إخناتـــون ـ الفرعون المصـــري الَّذي عـــرف بالدعوة إلى التوحيد، وترك الشمس وآلهة المصريين القدماء «رع، وآمون، وغيرها»، ودعا إلى إلٰه واحد وإلى التوحيد ـ هو فرعون موســـى، وقال: «إنَّه وجد

(١) هذا الحديث مركب من حديثين: الأول «ابدأْ بنَفْسِك» جزء من حديث رواه مسلم في الزكاة (٩٩٧)، عن جابر بن عبد الله. والثاني: متَّفق عليه: رواه البخاري (١٤٢٧)، ومســـلم (١٠٣٤)، كلاهما في الزكاة، عن حكيم بن حزام.

QaradawiBooks.com

في تاريخ هذه الدعـوة أنَّها كانـت انقلابًا مفاجئًا في حياته لم يسـبقه إرهاصات تدلُّ عليه، وفي رأيه أن فرعون موسى نجا وبعد نجاته ـ وكان قد آمن في اللحظة الأخيرة من حياته ـ بدأ يدعو إلى التوحيد، واستدلَّ على ذلك بما جاء في سـورة يونس: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۞ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۞ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩٢]. فقال: القرآن يقول: إنَّ فرعون نجا[1].

وقد قابلتُ هذا المفكر، وذكرتُ لـه ما قاله في كتابه، وقلت له: إن هذا مخالف لما في القرآن، فالقرآن قال: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾، وأراد الله ﷻ أن تظهر جثَّته ويراها النَّـاس بأعينهم حتَّى لا يقولوا: إنَّ الآلهة قد رفعته إلى السـماء أو أنَّه ذهب إلى أبيـه الإلٰه أو نحو ذلـك، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾.

أمَّا إيمانه فقد رُفِضَ: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ لأنَّ الإيمان الَّذي يُعتدُّ به لا بدَّ أن يكون في حالة الاختيار. أمَّا الإيمان في حالة الاضطرار فلا يقبل كما جاء في سـورة غافر: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ۞ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وإيمانُ فرعون مـن هذا النـوع المرفوض؛ لأنَّه جـاء حينما أدركه الغرق، يقول الله ﷻ: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ

(١) الظاهرة القرآنيـة للمفكِّـر الجزائري المعـروف مالك بـن نبـي صـ ٢٦٢ ـ ٢٦٤، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، نشر دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]. فهذه ليست توبة، ولا تصلح لكافر أن يؤمن، أو لعاص أن يتوب، ثم إنَّ القرآن يقول عن فرعون: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣]، ويقول أيضًا: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧، الزخرف: ٥٥]، فهو في الغرقى الهلكى، وقد ذمَّه القرآن وجعله من أهل النار، قال تعالى عنه: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤١، ٤٢]. ففرعون يقينًا من أئمة أهل النار، وأتْبعه الله اللعنة في الدنيا وفي الآخرة؛ فكيف يقال أنَّه عاد ودعا إلى التوحيد؟! فهذا الخطأ لا بدَّ أنَّه جاء من أخذ آية دون النظر إلى الآيات الأخرى في نفس الموضوع.

أهمية مراعاة السياق:

فمن المهم جدًّا كما تقدَّم لمن يفسِّر بالقرآن، وأن يحرص على ذلك، ومن المهم في تفسير القرآن بالقرآن: أن يلاحظ السياق الَّذي وردت فيه الآية، أو وردت فيه الجملة، أو وردت فيه الفِقْرة، ولا يعزل الكلام بعضه عن بعض، فالكلمة الواحدة قد تكون لها معاني عدَّة في القرآن، والذي يُحدِّد المعنى في هذا هو السياق.

فمثلًا كلمة «الكتاب» في القرآن الكريم أحيانًا تردُ بمعنى القرآن كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥، الزمر: ٢].

QaradawiBooks.com

وأحيانا تردُ كلمة «الكتاب» بمعنى التوراة كما في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الإسراء: ٢]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [غافر: ٥٣].

وأحيانًا ترِدُ كلمة «الكتاب» بمعنى التوراة والإنجيل معًا، كما في قوله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٦٤، ٦٥، ٧٠، ٧١، ٩٨، ٩٩ وغيرها]، وقوله: ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ [الأنعام: ١٥٦].

ويراد بكلمة الكتاب أحيانًا: اللوح المحفوظ الَّذي كتب الله تعالى فيه مقادير الخلائق كما في قوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [الأحزاب: ٦]، وقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ويراد بالكتاب أحيانًا: الشيء الَّذي يكتب كما في قوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة: ٧٩].

ويراد به أحيانًا مصدر كَتَبَ أي: الكتابة، فأنت تقول: كتب كتابة وكتابًا، وهو وجه في قوله تعالى عن المسيح عيسى بن مريم: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران: ٤٨].

وبعض المفسِّرين فسَّر الكتاب في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢] بأنه الكتابة؛ أي: يخرجهم من الأميَّة إلى الكتابة.

ويراد بالكتاب أيضًا: الكتاب الَّذي تدوّن فيه أعمال الإنسان، يقول تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ

QaradawiBooks.com

عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، ويقول: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

فكيف عرفنا في المواضع المتفرِّقة أنَّ الكتاب هو القرآن، وهو التوراة، وهو التوراة والإنجيل معًا، وهو اللوح المحفوظ، وغير ذلك؟ إنَّه السِّياق الَّذي يُحدِّدُ المعنى، فنقول: إنَّه بمعنى المكاتبة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣]، ولذلك لا ينبغي لأحد أن يأخذ آية وحدها ويترك السِّياق، وهذا يحدث كثيرًا في التفسير: أن تقطع الآية عن السياق.

فمثلًا كثير من المُفسِّرين[1] قالوا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣]: إنَّه من كلام يوسف عليه السلام.

وسياق الآيات يقول: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۞ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥١ ـ ٥٣].

وواضح من هذا السياق أنَّ الكلام كله للمرأة ولا دخل ليوسف فيه، ومع ذلك قال جمهور المفسرين: إنَّ الكلام ليوسف عليه السلام.

(١) الطبري، وابن أبي حاتم، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة وغيرهم. وانظر: تفسير ابن كثير (٤٨١/٢)، نشر عيسى البابي الحلبي.

QaradawiBooks.com

وقد ردَّ شيخ الإسلام ابن تيمية[١] على ذلك في رسالة له كما ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره[٢]، والحق معه في هذا؛ فالكلام للمرأة، وكأنهم استكثروا على المرأة أن تقول هذه الجملة القويَّة، مع أنَّ القرآن حكى جُمَلًا في غاية القوة والبلاغة والحكمة لعدد من النساء.

ومن ذلك ما قالته بلقيس في تصوير الاستعمار: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ﴾ [النمل: ٣٤]، قالت ذلك امرأة وهي تُصوِّر الملوك الفاتحين المستعمرين، الَّذين إذا دخلوا بلدًا أذلُّوا العباد، وأفسدوا البلاد، ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

ومن ذلك ما قالته بنت الشيخ الكبير: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. فوضعت أساس اختيار الرجال للمناصب والأعمال: القوة والأمانة.

فلا عجب أن تقول امرأة العزيز هذه الكلمة الَّتي يُؤيِّدها السياق، فينبغي ألا نهمل السياق، ونحن نفسِّر القرآن، مع ما ذكرنا من قواعد، وما سوف نذكر إن شاء الله.

لا بدَّ لنا إذنْ أن نقرأ القرآن على أنَّه كتاب الله إذا أردنا أن نفهمه أو نفسِّره، ولا بدَّ أن نَعِيَ تمامًا أنَّه الكتاب الَّذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. الكتاب الَّذي أنزله الله ليصدِّق بعضه بعضًا؛ فلا اختلاف فيه ولا تناقض: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

---

(١) انظر: دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية (٤٣٣/٣)، تحقيق د. محمد السيد الجليند، نشر دار الأنصار.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤٨١/٢).

QaradawiBooks.com

ولهذا قلنا: إنَّ أوَّل ما يجب على المفسِّـر: أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في موضع فُصِّل في موضع آخر، وما أُبهم في مكان بُيِّنَ في آخر، وما أُطْلق في سورة قُيِّدَ في أخرى، وما عُمِّمَ في آية خُصِّصَ في آية أخرى، وهكذا.

فلا بدَّ أن يفهم القرآن كله، لا يُؤْخذ بعضـه ويُترك بعضه، كما فعل بنو إسرائيل الَّذين قرعهم الله تعالى بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقد نبَّه الله تعالى رسوله ﷺ إلى مثل هذا، فقال: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

تفسير القرآن بالسنة:

ومع تفسـير القرآن بالقرآن، وتتبُّع الألفاظ والمعاني، لا بدَّ أن نؤيِّد ذلك بالسـنة، نلجأ إليها إذا لم يكن الأمر واضحًا في القرآن؛ فهي مبيِّنة القرآن وشارحته، وهي التفسير النظري والتطبيق العملي لكتاب الله ﷻ، وقد قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. وليس هنـاك مَنْ هو أعلم بمراد الله ممن أنزل الله تعالى القرآن عليه، فهو ﷺ أعلم النَّاس بمراد الله.

كان النبيُّ ﷺ قرآنا حيًّا، يفسِّـر القرآن بقوله وعمله وسـلوكه؛ كما قالت عائشة حينما سُئلت عن خلقه ﷺ، فقالت: «كان خلقه القرآن»[1].

فلا يستغني أحدٌ عن الرجوع للسنَّة لبيان القرآن الكريم، ومهم جدًّا في الرجوع إلى السنة: التأكُّد من صحَّة ما جاء عن النبي ﷺ؛ فليس كل ما ورد في السُّنَّة من التفسير صحيحًا.

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

ونحن نجد في كتب الحديث كتابَ التفسير، كما في البخاري كتاب تفسير القرآن، وكما في مسلم وكتب السنن لأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، يذكر فيه ما ورد عن النبي ﷺ وعن بعض الصحابة، ولكنَّه ليس كثيرًا وخصوصًا ما صحَّ منه، فإنه قليل، وقد جمعه كلَّه الحافظ السيوطي في كتابه الشهير «الإتقان في علوم القرآن».

الحذر من تفسير القرآن بالأحاديث الضعيفة والموضوعة:

ومن هنا ينبغي أن نحذر من الأحاديث الضعيفة والموضوعة والواهية ممَّا يُذكر أحيانًا في كتب التفسير بالمأثور، وفي كتب الرقائق، وكتب الترغيب والترهيب[١]، من مثل ما يُروى في تفسير كلمة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] أو ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤] إنَّها وادٍ في جهنَّم قعره سبعون خريفًا[٢]، و«ويل» كلمة معناها هلاك وعذاب كانت موجودة في الجاهلية وموجودة في الإسلام، ومثل كلمة «طوبى» الَّتي يروى عنها: «**طوبى شجرةٌ في الجنَّة طولها كذا أو عرضها كذا**»[٣]. و«طوبى» مقابل كلمة «ويل»، وأشياء غريبة من هذا النوع.

---

(١) لنا كتاب: المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذري، قمت فيه بانتقاء الصحيح والحسن من أحاديث الترغيب والترهيب للمنذري، واختصار الكتاب بحذف الضعيف والمكرَّر منه والتعليق بما لا بدَّ منه.

(٢) رواه أحمد (١١٧١٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في الزهد (٢٣٨٣) وقال: حديث غريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث ابن لهيعة. وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٢١٣٦)، عن أبي سعيد الخدري.

(٣) رواه أحمد (١١٦٧٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. عن أبي سعيد الخدري.
انظر في هذه الأحاديث: الترغيب والترغيب للمنذري (٤٦٥/٤) وما بعدها، كتاب صفة الجنة والنار، نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ٣، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م. وانظر كتابنا: المنتقى (٦٠/١) من المقدمة، نشر المكتب الإسلامي، ط ٣، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

كما رُوِيَ في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، الغي: واد في جهنَّم صفته كذا[١]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]. أثام: واد في جهنَّم فيه كذا وكذا[٢]، ومعروف أنَّ الغيَّ ضدّ الرشد، وأنَّ الآثام من الإثم الَّذي هو ضد البر، فالمبدأ إذن الرجوع إلى السُّنَّة، وإلى ما صحَّ منها على وجه الخصوص، مثل ما وَرَدَ في الأحكام: أنَّ الرسول ﷺ بعث معاذ بن جبل إلى اليمن، وقال له: «**بمَ تقضي يا معاذ؟**» فقال: أقضي بكتاب الله، قال: «**فإن لم تجد؟**» قال: فبسُنَّة رسول الله ﷺ، قال: «**فإن لم تجد؟**» قال: أجتهد رأيي لا آلو. أي: لا أقصِّر ولا أدَّخر وُسْعًا. فضرب النبيُّ ﷺ على صدره، وقال: «**الحمد لله الَّذي وفَّق رسولَ رسولِ الله لما يُرضي رسولَ الله**»[٣].

---

(١) رواه الطبراني (٢٢٧/٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١١٥٧): رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها ثقات إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه. عن ابن مسعود موقوفًا عليه.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٣٣٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٢١٤٣)، من قول شفي بن ماتع.

(٣) رواه أحمد (٢٢٠٠٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الأقضية (٣٥٩٢)، والترمذي في الأحكام (١٣٢٨) وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بمتصل. قال الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٨٩/١، ١٩٠): فإن اعترض المخالف بأن قال: لا يصح هذا الخبر، لأنَّه يروى عن أناس من أهل حمص لم يسموا فهم مجاهيل، فالجواب: أنّ قول الحارث بن عمرو، عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ، يدلُّ على شهرة الحديث، وكثرة رواته... على أن أهل العلم قد تقبلوه واحتجوا به، فوقفنا بذلك على صحته عندهم ـ وذكر أحاديث ـ وإن كانت هذه الأحاديث لا تثبت من جهة الإسناد، لكن لما تلقتها الكافة عن الكافة غنوا بصحتها عندهم عن طلب الإسناد لها. وقال ابن القيم إعلام الموقعين (٢٠٢/١) نحو هذا ثم قال: كيف وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الذي لا يخفى، ولا يعرف في أصحابه متهم ولا كذاب ولا مجروح، بل أصحابه من أفاضل المسلمين وخيارهم، لا يشك أهل العلم بالنقل في ذلك.. كيف شعبة حامل لواء هذا الحديث، وقد قال بعض أئمة الحديث: إذا رأيت شعبة في إسناد حديث فاشدُدْ يديك به. وجوَّد إسناده ابن تيميه في مجموع الفتاوى (٣٦٤/١٣).

QaradawiBooks.com

وهذا الحديث جيِّد؛ كما قال الإمام ابن تيمية وابن كثير، وابن القيِّم والذهبي، وعدد من الحفاظ، ودافع عنه ابن القيِّم دفاعًا مجيدًا في كتابه «إعلام الموقِّعين»، وإن كان ابن حزم ردَّه، وتبعه في عصرنا الشيخ الألباني، ولكن الحديث قوّاه وجوَّده ورضيَه عددٌ من الأئمة في العصور الماضية وفي عصرنا[1].

فإذا كان هذا موقف القاضي والفقيه، أن يقدِّم القرآن، فإن لم يجد فالسنَّة، فإن لم يجد يجتهد وسعه، فأولى أن يكون هذا هو موقف من يتعرَّض لتفسير القرآن.

تفسير الصحابة ﷺ:

فإن لم نجد في السُّنَّة ما يُبيِّن القرآن، فهناك تفسير الصحابة ﷺ، فإذا وردَ عنهم شيء؛ فلا بدَّ أن نستقبله بصدْر رحْب، لأنَّ للصحابة رضوان الله عليهم فضلًا على غيرهم في عدَّة أمور:

معرفة أسباب النزول وأهميته:

أولًا: هم الَّذين شاهدوا التَّنزيل.. شاهدوا أسباب النزول، وعرفوا متى نزلت هذه السورة، وهذه الآيات، وأين نزلت؟ وفيمَ نزلت؟ فهم أدرى بذلك من غيرهم، ولذلك قال العلماء: إنَّ من المهم للمفسِّر أن يعرف أسباب النزول؛ لأنَّها تلقي ضوءًا على المعنى، فمعرفة السبب تُورث المعرفة بالمسبَّب.

(١) ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة برقم (٨٨١) وقال: منكر. وبسط فيه القول، وانظر تخريجه بتوسع في مصنف بن أبي شيبة للشيخ محمد عوامة (٢٣٤٤٣).

QaradawiBooks.com

إنَّ من لا يعرف سبب النزول يمكن أن يقع في خطأ، وقد حدَث هذا من بعض الصحابة، ففي معركة من معارك المسلمين مع أعدائهم؛ جاء أحد الشجعان من المسلمين وألقى بنفسه في وسط جيش الكفار، فقال بعض الناس: لقد ألقى بنفسه إلى التهلكة والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فوقف أبو أيوب الأنصاري يردُّ على هذا القائل قوله[1]، يقول: ليست الآية كما فهمت، إنَّها نزلت فينا معشر الأنصار، فبعد أن غزونا وجاهدنا قلنا: تركنا أموالنا وزروعنا ونخيلنا، فلنجلس إلى أموالنا ولنجلس إلى نخيلنا، ولندَع الجهاد فيكفينا ما جاهدنا، فنزلت الآية تنهاهم عن ذلك، وتُريهم أنَّ القعود عن الجهاد تهلكة؛ في وقت لا زال عود الإسلام فيه طريًّا، ولا زالت الجبهات المختلفة تقف بالمرصاد لهذا الدين: الجبهة الوثنيَّة، والجبهة اليهوديَّة، والجبهة النصرانيَّة والبيزنطيَّة، والجبهة المجوسيَّة المتربصة، وجبهة المنافقين في الداخل، فكيف يفعل الأنصار هذا؟ ولذلك نزلت الآية: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

بيَّن أبو أيوب أنَّ التَّهلكة هنا هي ترك الجهاد، وليست المبارزة أو المغامرة في لقاء الكفار، فسبب النزول ألقى ضوءًا على معنى الآية؛ لهذا حذَّر المحقِّقون من ترك أسباب النزول وإهمالها.

(١) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥١٢)، والترمذي في التفسير (٢٩٧٢)، وقال: حسن صحيح غريب. والحاكم في الجهاد (٢٧٥/٢) وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٨٨). والموقعة كانت بين المسلمين والروم، والقصة كاملة ذكرها الإمام الواحدي في كتابه: أسباب النزول صـ ٦٠، تحقيق كمال بسيوني زغلول، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

QaradawiBooks.com

معرفة صحيح أسباب النزول:

ومع ما تقدَّم ينبغي أن نعرف أن ما صحَّ من أسباب النزول قليل، والعلماء ألَّفوا في أسباب النزول مثل الإمام الواحدي، والحافظ السيوطي وكتابه «لباب النقول في أسباب النزول»، ولكن كثيرًا ممَّا جاء في أسباب النزول ليس صحيحًا.

ثم هل ما ورد في أسباب النزول يعدُّ مرفوعًا؟ هل هو رواية أو هو تفسير؟

اختلف العلماء هنا، فإذا قال الصحابي: إنَّ الآية نزلت في كذا، هل هذا تأويل وتفسير من الصحابي؟ أو هو رواية؟

والواقع أن من تتبَّعها وجد أن بعضها من قبيل الرواية، وبعضها من باب التفسير والتأويل، بمعنى أنَّه فهم للصحابي في هذا الأمر، وقد لا يسلم له غيره بهذا الفهم، ولذلك يختلفون في أسباب النزول.

المهم أنَّ من فضائل الصحابة على غيرهم أنَّهم عرفوا أسباب النزول، ولذلك كان ابن مسعود يقول: «والله ما نزلت آية في كتاب الله؛ إلَّا وأنا أعلم أين نزلت، وفيمَ نزلت»[1]، وكان بعض التابعين يتَّقي التفسير ويتجنَّبه، ويقول: «اتَّقوا تفسير القرآن؛ فإنَّما هو الرواية عن الله ﷻ، ذهب الَّذين يعلمون فيم أنزل القرآن»[2]. أي الصحابة رضوان الله عليهم.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٦٣).

(٢) كلام بعض التابعين، روي عن محمد بن سيرين عن عَبيدة السَّلماني، وروي عن الشعبي عن مسروق، وقد أورد الطبري هذه الروايات في تفسيره (٨٦/١، ٨٧)، تحقيق أحمد محمد شاكر، نشر مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م، وانظر: دقائق التفسير لابن تيمية (٨٦/١)، من مقدمات فهم القرآن.

QaradawiBooks.com

وقد سُئل ابن عمر رضي الله عنهما عن الحرورية (أي الخوارج) وكان يراهم شرار خلق الله، فقال: «إنَّهم جاؤوا إلى آيات نزلت في المشركين، فجعلوها في المسلمين»[(١)].

فمن المهم إذنْ أن نعرف فيمَ أُنزلت الآيات؛ لأنَّ من لا يعرف أسباب النزول يمكن أنْ يضل في الفهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]. حيث تعكس كلمة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾: الأمر المباح كما يقول الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، ولكن السَّعيَ من واجبات الحج أو من أركانه في بعض المذاهب فكيف يقال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؟ فمن عرف سبب النزول: أنَّ الأنصار كانوا يتحرَّجون من الطواف بهما؛ لأنَّه كانت توجد أصنام عند الصَّفا والمروة في أيام الجاهلية، فالقرآن قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ اتَّضح عنده المعنى.

أهمية الرجوع إلى تفسير الصحابة:

ومن هنا كان الرجوع إلى تفسير الصحابة مهمًّا؛ لأنَّ الصحابة هم الَّذين عايشوا رسول الله ﷺ، وتتلمذوا عليه، وشاهدوا أسباب تنزيل القرآن، وعرفوا قرائن الأحوال.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان الصحابة رضوان الله عليهم أهل اللغة حقًّا، فهم عربٌ خُلَّص لم تخالطهم العُجْمَة ولا اللُّكنة، وعربيتهم صافية، لذلك كانوا أعرفَ بالقرآن من غيرهم؛ لأنَّ غيرهم

(١) علّقه البخاري في استتابة المرتدين، قبل الحديث (٦٩٣٠). ورواه ابن عبد البر في التمهيد (٣٣٥/٢٣)، وصحح إسناده الحافظ في تغليق التعليق (٢٥٩/٥).

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

اختلطوا بالأعاجم، والقرآن نزل بلسان عربيٍّ مبين، فيعرفه من عرف لغة العرب، وتمكَّن منها وتذوَّقها، والصحابة تمكَّنوا من اللغة وعرفوها وتذوَّقوها بالسليقة وبالفطرة، كما قال ذلك الأعرابي:

ولستُ بِنَحْويٍّ يلوك لسانه ولكن سليقيٌّ أقول فأُعرب[١]

ومن مزايا الصحابة أيضًا: أنَّهم كانوا أسلمَ النَّاس فطرة، وأبعدهم عن التكلف والتقعُّر، وأقربهم إلى الله تعالى، وأعرفهم بالإسلام وبروحه وبمقاصده.

فهذا النور الإلٰهي الَّذي استكنَّ في قلوبهم، ميَّزهم على غيرهم، فهم أفهم النَّاس للإسلام، ولا عَجَب أن يكونوا أفهم النَّاس للقرآن، من أجل ذلك كان الصحابة مُقدَّمين على غيرهم، وهذا إذا لم يختلفوا، فاتِّفاقهم حُجَّة، وإذا جاء القول عن بعضهم ولم يُعرف له مخالف كان حُجَّة أيضًا.

أمَّا إذا اختلف الصحابة بعضهم مع بعض في تفسير القرآن، أمكن لنا أن نرجِّح قول بعضهم على بعض بمُرجِّحات مختلفة، كما قال بعض العلماء: «ابن عبَّاس يُقَدَّم على غيره»؛ لأنَّ الصحابة أنفسهم كانوا يعتبرونه ترجمان القرآن، والنبي ﷺ قال: «**اللهمَّ فقِّهْه في الدِّين، وعَلِّمْه التأويل**»[٢]. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يستشيره في أشياء من القرآن؛ فكان يبدي من الآراء ما يعجز عنه كبار الصحابة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد فسَّر ابن عبَّاس قول الله تعالى: ﴿**يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [البقرة: ٢٦٩]. فقال: فهْمُ القرآن، ومعرفة القرآن[٣].

---

(١) ذكره من غير نسبة الزمخشري في أساس البلاغة مادة (س. ل. ق).

(٢) سبق تخريجه صـ٢٢.

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٥٧٦/٥).

QaradawiBooks.com

فالصحابة يتفاوتون ولكن الخلفاء الأربعة وابن عبَّاس وابن مسعود لهم باع طويل في القرآن، ولكن ليس معنى هـذا أنَّ ما قاله ابن عبَّاس يكون صوابًا دائمًا، وليس معنى دعاء الرسـول ﷺ له أن يكون معصومًا في تفسيره، ولكن معناه أن يُلهم الصواب أكثر من غيره.

من أجل هذا نسـتطيع أن نرجِّح ما جـاء عن الصحابـة من أقوال بمُرجِّحات شتى، منها: أن تكون الرواية عن الصحابي صحيحة، وليست موضوعة عليه أو ضعيفة أو منكرة، فكثير ممَّا نُسـب إلى الصحابة غير صحيح، وابن عبَّاس نفسـه رُوِيَتْ عنه أقوال صحيحـة، وروايات غير صحيحة في تفسـير القرآن الكريم، وبعضهم نسب إليه تفسيرًا جمع فيه ما روي عنه في التفسير وأسماه «تنوير المقباس في تفسير ابن عبَّاس»، ولكن ابن عبَّاس لم يؤلف، ومثل تفسير مجاهد؛ ولكن مجاهدًا أيضًا لم يؤلف، فلنحذر من الروايات الضعيفة عن الصحابة.

وقد روي عـن ابن عبَّاس روايات شـتَّى بعضها أصـحّ من بعض، وبعضها ضعيف، وبعضها كان العلماء يسمُّونه: «سلسلة الكذب»، وهي السُّـدي الصغير، عن الكلبي، عن أبي صالح، عـن ابن عباس؛ فيجب الحذر منها.

تفسير التابعين:

فإذا لم نجد عند الصحابة، نرجـع إلى التابعين: تلاميذ الصحابة، فالتابعي هـو الَّذي تتلمذ علـى الصحابة وأخذ عنهم، ولا شـك أنَّ للصحابة تلاميذ وخصوصًا علماء التفسـير منهـم، كابن عبَّاس رضي الله عنهما، وكان مـن تلاميـذه مجاهد بـن جبر، وعكرمـة مولى ابـن عباس، وسعيد بن جبير.

QaradawiBooks.com

وهناك مدارس في تفسير القرآن كالمدرسة المكيَّة، والمدرسة المدنيَّة، والمدرسة الكوفيَّة، واشتهر من التابعين أناس في تفسير القرآن، منهم: الحسن البصري وغيره، وهؤلاء ـ ولا شك ـ لهم مزيَّة على غيرهم، فإذا أجمعوا في التفسير كان إجماعهم حجَّة، كما أن إجماعهم حُجَّة في الفقه والأحكام، ولكن إذا اختلفوا كان لنا أن نأخذ بقول من شئنا منهم بأساليب الترجيح المختلفة، لأنَّ التابعين أخذوا عن الصحابة وهم أهل اللغة، فهم أعلم بالتفسير ممن جاء بعدهم.

اختلاف التنوع في التفسير:

يقول الإمام ابن تيمية: «الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع، لا اختلاف تضادٍّ»[1].

فمثلًا حينما يفسِّرون ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. منهم من يقول هو الإسلام، ومنهم من يقول هو القرآن، ومنهم من يقول هو السنة، ومنهم من يقول هو سنة الراشدين، ومنهم من يقول هو سنَّة أبي بكر وعمر، ومنهم من يقول هو طريق العبوديَّة لله، أو طاعة الله ورسوله.

فهل هذه الأقوال متضادَّة؟ ليست مُتضادَّة، ولكنَّها متنوِّعة، ووجه ذلك: أنَّ المفسِّر أحيانًا يركز على معنى معين ليزكِّي هذا المعنى في نفوس تلاميذه، فإذا وجد أحدهم غير مهتم بالسُّنَّة ذكَّره بأن ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: هو اتِّباع السُّنَّة، أو وجد عنده شيئًا للخلفاء الراشدين ذكَّره بأن ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: هو اتباع سنن الراشدين، أو وجد عنده شيئًا تجاه أبي بكر وعمر؛ ذكره باتِّباع شيخي الإسلام وإمامَي الهدى: أبي بكر

(١) مقدمة في أصول التفسير صـ ١١، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٤٩٠هـ ـ ١٩٨٠م.

QaradawiBooks.com

وعمر.. وهكذا، لأنَّ المفسِّر أيضًا مُرَبٍّ، يحاول التركيز على معانٍ يجد النَّاس غافلين عنها.

ولذلك ينبغي لنا ألا نظن بين تفاسير السلف اختلافًا كثيرًا حين نقرؤها، قد يوجد هذا الاختلاف ولكنَّه قليل. ولنحذر أيضًا الضعيف من الروايات؛ فليس كل ما ورد عن التابعين صحيحًا.

التفسير بمقتضى اللغة:

فإذا لم نجد عند الصحابة والتابعين ما يُفسِّر القرآن، نفسِّره بمقتضى اللغة والسياق، فالقرآن كتاب عربي: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، فهو يُفهم في ضوء لغة العرب، وليس كل ما ورد في التفسير مأثورًا، وليس كل المأثور مأثورًا، بمعنى أن بعض ما يُسمَّى بالتفسير بالمأثور هو من باب الرأي والدراية، وأنَّ بعض ما ورد عن الصحابة والتابعين هو من باب الرأي، ولو كان من باب الرواية لما اختلفوا، ولكنهم اختلفوا فدلَّ هذا على أنَّهم فسَّروا برأيهم وفهمهم وتدبُّرهم، كما قال تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وكما قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤].

المراد بالنهي عن تفسير القرآن بالرأي:

وهنا قد يسأل سائل: فما معنى الحديث إذن الَّذي يتوعَّد من يفسِّر القرآن برأيه؟ والذي رواه الترمذي وغيره: «**من فسَّر القرآنَ برأيه أو بما لا يعلم، فليتبوَّأْ مقعدَه من النَّار**»[(١)].

(١) رواه أحمد (٢٠٦٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في التفسير (٢٩٥٠) وقال: حسن. وضعفه الألباني في الضعيفة (١٧٨٣)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

نقول: الرأي منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، ـ وهذا أيضًا في الفقه والاستنباط ـ فالرأي الَّذي لا يعتمد على أصل، ولا يتَّبع فيه صاحبه القواعد، وإنَّما يتَّبع هوى نفسه؛ دون أن يلتزم بمنهج هو الرأي المذموم، وقد ذكر الإمام الغزالي معنيين للرأي المذموم في كتابه «إحياء علوم الدِّين»[1]:

المعنى الأول: أن يكون لمن يريد أن يفسِّر القرآن هوى لشيء معيَّن ومَيْل لفكرة معينة، فهو يريد أن يفسر القرآن ليخدم فكرته ويُؤيد رأيه، وهذا يريد أن يكون القرآن تابعًا له؛ فيأخذ بتلابيب النصِّ القرآني، ليؤيِّد المذهب الَّذي يعتنقه أو الرأي الَّذي يتبنَّاه، وهذا للأسف وجد كثيرًا في الفرق الكلاميَّة، وفي المذاهب الفقهية، وفي الطرق والجماعات الصوفية، وغير ذلك، فالمعتزلي يريد أن يجعل القرآن معتزليًّا، والخارجي يريد أن يجعل القرآن خارجيًّا، والشيعي يريد أن يجعل القرآن شيعيًّا، والحنفي والشافعي، وهكذا.

والقرآن لا ينبغي أن يخضع لرأي أحد أو لمذهب أحد أو لمعتقد أحد، وإنَّما المعتقدات والآراء والمذاهب والأفكار والمفاهيم هي الَّتي ينبغي أن تخضع كلها للقرآن.

والمعنى الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربيَّة من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلَّق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدَّلة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير.

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٢٩٠/١، ٢٩١)، نشر دار المعرفة، بيروت.

QaradawiBooks.com

وقد جاء في الحديث الآخر الَّذي رواه أصحاب السنن: «**من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**»[(١)]. أخطأ لماذا؟ لأنَّه لم يتَّبع المنهج السليم فصوابه جاء اعتباطًا، كالقاضي الَّذي يقضي على جهل هو في النار: «**القضاة ثلاثة: قاضٍ عرف الحقَّ وقضى به، فهو في الجنَّة، وقاض عرف الحقَّ وقضى بغيره فهو في النَّار، وقاضٍ قضى على جهلٍ فهو في النَّار**»[(٢)]. حتَّى وإنْ أصاب الحقَّ؛ لأنَّ إصابته الحقَّ جاءت على غير منهج.

ومن ذلك أن يقول أحدهم في قوله تعالى مثلًا: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]: أنَّ الناقة مُبْصِرة باعتبار «مبصرة» حال من الناقة، وهو على غير هذا، فالمعنى: آية مبصرة واضحة للعيان.

ومن ذلك أيضًا: أن يفسر آية دون أن يربطها بغيرها من الآيات، فإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩، الإنسان: ٢٩]. لا بدَّ أن نقرأه في ضوء قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، أي: أنَّ الإنسان إنَّما يشاء بمشيئة الله، ويريد بإرادة الله، فليحذر من يريد أن يفسر القرآن أن يقع في مثل هذا.

وهناك أشياء مهمة لمن يريد تفسير القرآن:

---

(١) رواه أبو داود في العلم (٣٦٥٢)، والترمذي في التفسير (٢٩٥٢) وقال: غريب. وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥٧١)، عن جندب بن عبد الله.

(٢) رواه أبو داود في الأقضية (٣٥٧٣)، والترمذي (١٣٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٥)، كلاهما في الأحكام، والنسائي في الكبرى في القضاء (٥٩٢٢)، وصحَّحه ابن الملقِّن في البدر المنير (٥٥٢/٩)، والعراقي في تخريج أحاديث الإحياء صـ ٧٨، والسيوطي في الصغير (٦١٨٩)، والألباني في غاية المرام (١٧٥)، عن بُريدة.

QaradawiBooks.com

إخلاص النية:

أولًا: يجب أن يخلص الإنسان النيَّة لله تبارك وتعالى، وأن يتوجَّه إلى الله ويتضرَّع إليه: أن يلهمه الله تبارك وتعالى الصواب.

ورد عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنَّه كان يقرأ في الآية مائة تفسير أو مائة وعشرين تفسيرًا، ولا يهتدي إلى الصواب. ويقول: اللهمَّ يا معلم إبراهيم علِّمني حتَّى يلهمه الله تعالى الصواب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال: ٢٩]. أي: نورًا تفرقون به بين الحق والباطل، وبين الصواب والخطأ، وبين الهدى والضلال.

أمَّا الَّذي يقرأ القرآن ونيَّته مَدْخولة، أو مُنحرف العقيدة، أو مُعوجّ السلوك؛ فسوف ينعكس هذا على تفسيره للقرآن والعياذ بالله.

التجرد من سوابق الأفكار والاعتقادات:

ثانيًا: أن يتجرَّد من كل الأفكار والاعتقادات السابقة، وأن يكون موقفه موقف المتلقِّي المستقبل، الَّذي لا يفرض نفسه على القرآن، ربما صعب على الإنسان أن يتخلص من ذاتيَّته؛ لأنَّها جزء من كيانه، ولكن عليه أن يحاول.

وبعض النَّاس يقرأ القرآن وعنده أشياء أخذها من التوراة يريد أن يفرضها على القرآن؛ كالذي قرأ أنَّ حواء هي الَّتي أغْرت آدم بالأكل من الشجرة، وهذا لا يوجَد في القرآن ولا أثر له فيه؛ بل الَّذي في القرآن أنَّ آدم هو المسؤول الأول. ومن تتبَّع القرآن عرف ذلك، فالخطاب لآدم. قال تعالى: ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٧]، وقال: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴾ [طه: ١١٨]، وقال: ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ

QaradawiBooks.com

نَجِدَ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥]، وقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۞ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]. وهكذا لكن بعض النَّاس يهوى النظر في التوراة والأخذ عنها.

وبعض النَّاس يقول: إن حواء خُلقت من ضلع آدم، وذلك حينما يقرأ قول الله في أوَّل سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء: ١]، وفي آية سورة الأعراف: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩]. ويقولون: «منها» أي: من ضِلَع آدم، وهذا المعنى لا يخطر لمن قرأ القرآن وحده متجردًا، لأن خلق منها وجعل منها تعني من جنسها مثل قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ [الروم: ٢١]. وهو خطاب لكلِّ الرجال، ومثل قوله: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: ٧٢]. فهل يعني هذا أنَّ الزوجات خلقن من ضلوع الرجال!؟ لا يعني هذا، ولكن يعني (من جنس الرجال) يألفنهم ويألفونهنَّ ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥، النساء: ٢٥].

وحديث رسول الله ﷺ: «**فإنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من ضِلَع**»[1]، لا يعني هذا؛ بل يعني أنَّ النساء لهنَّ طبيعة تحمِل الانفعال والعاطفة أكثر من الرجال، وهذه الطبيعة تعين النساء على الحمْل والوضع والإرضاع، وما يصحب ذلك من متاعب. وهذا أيضا نَتَج عن قراءة التوراة.

ومثل ذلك قصة داود كما ترويها سورة ص: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۞ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣١)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٨)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۞ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ۞ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢١ ـ ٢٤].

والإسرائيليات تحكي القصة، على أنَّ الخصمَيْن مَلَكان دَخَلا على داود، وأرادا أن يختبراه، وأنَّه أخذ امرأة جارِه، وغير ذلك ممَّا روته التوراة أو شاع في الإسرائيليات، وهي قصَّة لا يفعلها أراذل الناس؛ فضلًا عن الصَّالحين والأنبياء والمرسلين.

والقرآن يقول: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۞ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۞ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٧ ـ ١٩]، والنَّبِيُّ ﷺ يقول: «**أحبُّ الصيام إلى الله تعالى: صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا**»[(١)]. ويقول أيضًا: «**ما أكل أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكلُ من عمل يده**»[(٢)]، هذا النبيُّ العظيم قالوا عنه في التوراة أشياء لا تليق، ونُقل هذا للأسف إلى التفاسير، والصحيح أن يُقال: إنَّ داود حكم بمجرَّد أنْ سمع أحد الخصمين، وقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾ [ص: ٢٤]. قبل أن يسمع للطرف الآخر؛ متأثرًا في ذلك بالعاطفة. وقد روى ابن حزم رحمه الله عن عمرو بن عثمان بن عفان قال: أتى عمر بن الخطاب رجلٌ قد فُقئت عينه، فقال له عمر: تُحْضِر خصمك، فلعلك قد فقأت عيني خصمك معا، فحضر خصمه قد

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٢)، ومسلم في الصيام (١١٥٩)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢)، وابن ماجه في التجارات (٢١٣٨)، عن المقدام بن معديكرب.

QaradawiBooks.com

فُقِئَت عيناه معا، فقال عمر: إذا سمعت حُجَّة الآخر بان القضاء[١]. والمهمُّ لمن يريد تفسير القرآن ألَّا يَدْخُل على القرآن؛ وفي رأسه أفكار ورثها من كتب سابقة، وأفكار أخذها من الفلسفات القديمة، وأشياء أخذها من أفواه الناس، وأشياء أخذها من التقاليد، وأشياء أتت من هنا وهناك، ويريد بهذا الرُّكام كله أن يفرض نفسه على القرآن.

القرآن كتاب الزمان والمكان:

ثالثًا: ينبغي لمن يريد أن يقرأ القرآن ويفهم القرآن: أن يقرأ القرآن على أنَّه كتاب الزمن كلِّه، وكتاب الحياة كلِّها، وكتاب الإنسان كله، وكتاب النَّاس كلهم، وكتاب الحقيقة كلها.

فالقرآن كتابُ الزمن كله، وليس لزمن دون زمن، ولا لجيل دون جيل، ولا لعصر دون عصر، إنَّما هو كتاب الخلود، الكتاب الَّذي تكفَّل الله بحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومنْ عليها، ولذا لا ينبغي أن يُقال عند معانيه: إنَّ هذا كان في عصر الصحابة، وأصبح الزمن الآن غير الزمن والعصر غير العصر.

وهذا أيضًا ما يجعلنا نتوقف في **مسألة النسخ** لأنَّ الأصل بقاء النص الإلٰهي، فلا يجوز أن نلجأ إلى النسخ ـ أن هذه الآية أو الجزء من الآية أو الجملة أو الفقرة قد نسخت أي: فقدت حكمها ـ إلَّا بيقين.

وبعض النَّاس جاء في عصرنا وقال: القرآن قال: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [النساء: ٣٤]. وهذه القواميَّة كانت في الزمن الماضي؛ حينما لم يكن للمرأة

(١) المحلَّى لابن حزم (٣٦٨/٩)، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، نشر دار الفكر.

QaradawiBooks.com

اســتقلال اقتصادي. أمَّا الآن وقد أصبحت المرأة تعمل: موظفة ومعلمة وطبيبة إلى آخره، فلا ينبغي أن يكون الرجل قواما عليها، ويقولون أيضا: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١، ١٧٦]. هــذا كان في الزمن الماضي والآن تغير الوضع.

وكلامهم هذا يعني أنَّ القرآن كتابٌ موقوتٌ بزمن مُعيَّن، يحقُّ للناس أن ينســخوه بعد هذا الزمن، وهذا هو الباطل الَّذي ينبغي أن يُرفض كل الرفض، ويُقاوم بشدَّة؛ لأن كتاب الله هو الكتاب الباقي للزمن كله.

إنَّه عامٌّ من حيث الزمان، ومن حيث المكان، فلم ينزل للبيئة العربيَّة ولا البيئة الشــرقيَّة خاصة، إنَّما نزل لكل البيئات، ولكلِّ العالم شــرقيِّه وغربيِّه، عجميِّــه وعربيِّه، ولــكلِّ الأجنــاس، ولكلِّ الألــوان، ولكلِّ الطبقات، فهو كتاب العالم كلــه، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

ومن أجل هذا لم يعرض القرآن لتفاصيل تتعلق بالبيئات، ولم يعرض لأشــياء معينة تُقيِّد الناس، ومن ذلك أمره بالشــورى كمبدأ وقاعدة، أمَّا كيفيَّة الشورى؟ ومَنْ الَّذين يُستَشَارون؟ وفيمَ يُستَشَارون؟ وما الكيفيَّة الَّتي نختار بها أهل الشــورى؟ فلم يعرض القرآن لذلــك، حتَّى لا يكون بيئيًّا وموقوتا، إنَّما تركت للمسلمين ليجتهدوا بحســب المصالح الَّتي تتحقَّق لهم في مختلف العصور، ومختلف البيئات، ومختلف الأحوال والظروف.

القرآن كتاب الحياة:

والقرآن ليس كتابًا في اللاهوت، ولكنَّه كتاب للحياة، حتَّى إننا نجد أطول آية فيه نزلت في تنظيم شأن من شؤون الحياة، وهو كتابة الديون، وهذه الآية هي آية المداينة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

QaradawiBooks.com

مُسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومن قرأ سورة مثل سورة البقرة، وجد فيها العبادات والمعاملات، والعقائد، والأخلاق، والآداب، والقصص، ما يتعلَّق بالعلم، وما يتعلَّق بالعمل، وما يتعلَّق بالعقيدة، وما يتعلَّق بالسلوك، وما يتعلَّق بالاقتصاد، وما يتعلَّق بالزكاة والصدقة وما يتعلَّق بالربا، وغير ذلك، ولذا ورد عن ابن عبَّاس أنَّه قال: لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله[1]، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

القرآن كتاب الإنسان كله:

والقرآن كتاب الإنسان كله، الإنسان العقل، والإنسان القلب، والإنسان الجسم، والإنسان الروح، والإنسان الفكر والعاطفة والإرادة،

(١) الإتقان في علوم القرآن (٤/٣٠، ٣١)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

QaradawiBooks.com

الإنسان فردًا، والإنسان في أسرة، والإنسان في مجتمع، والإنسان طفلًا، والإنسان شابًّا، والإنسان شيخًا، فهو يصحب الإنسان في رحلته منذ المرحلة الجنينيَّة: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٣، ١٤]، ثم يصحبه منذ الطفولة: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، إلى أن يصير كهلًا فشيخًا: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ [غافر: ٦٧]. قال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، ويصحبه إلى أن يموت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦]، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۞ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢١، ٢٢].

أهميَّة التمكن من اللغة العربيَّة:

رابعًا: على من يريد تفسير القرآن أن يتمكَّن ممَّا لا بدَّ منه، من أدوات التفسير وآليات الفهم، وأول هذه الأدوات والوسائل: «اللغة» وما يتعلَّق بها، فالقرآن كتاب عربيٌّ كما جاء في القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥].

ولا بدَّ لمن يريد أن يفهم القرآن الكريم ويُفهمه لغيره: أن يتضلَّع في هذا اللسان العربي، ويتمكَّن منه، ويصبح ذا مَلَكَة في هذا اللسان، تشبه مَلَكَة العربيِّ الأصيل المتمكِّن الذوَّاقة، ولذا فلا بدَّ له أولًا من «علم اللغة» ومفرداتها ودلالاتها، وفي هذا يرجع إلى المعاجم ويستفيد منها،

QaradawiBooks.com

ولكن المعاجم أحيانًا قد لا تكفي ولا تشفي؛ لأنَّها تذكر في بعض الأحيان اللفظ معرَّفًا بضده، كأن تعرف الحياة بأنَّها مقابل الموت، وتعرِّف الموت بأنه مقابل الحياة، وقد تذكر المعاجم ما يختلف فيه أهل الاختصاص فتحيِّر القارئ ولا تهديه، وهذا يتطلَّب أن يكون للإنسان حسٌّ لغوي، ومعرفة يستطيع بها أن يُرجِّح بين الاحتمالات المختلفة؛ إذا اختلف أهل اللغة.

فهم اللفظ في عصر نزول القرآن:

فمعرفة المعاني والمفردات مطلوبة جدًّا؛ لأن لها دلالات مختلفة حقيقيَّة أو مجازيَّة، واللفظ قد يتطور من عصر إلى عصر، ونحن ملزمون بأن نفهم اللفظ في عصر نزول القرآن.

وقد ذكر الإمام الغزالي أن بعض الألفاظ تتبدَّل مفاهيمها كأسماء بعض الأشياء[1] فكلمة «الحكمة» في القرآن تختلف عنها في الاصطلاح، وكلمة «التوحيد» في القرآن غير كلمة التوحيد عندما اصطلح عليه المتكلمون على معنى مُعيَّن، فلا ينبغي أن نُسقط المصطلحات الحادثة أو المعاني الطارئة على ألفاظ القرآن، ونحن نفسِّره، ولا بدَّ أن نحذِّر من هذا.

فلفظ التأويل له معنى في اللغة ـ مثلًا ـ وأصبح له معنى عند المتكلمين وعند الأصوليين.

وفي عصرنا أصبح لبعض الكلمات معانٍ تعارف عليها النَّاس لا ينبغي أن نسقطها على الألفاظ القرآنية، فعلى سبيل المثال، لا ينبغي

(١) إحياء علوم الدين (١/٣١ ـ ٣٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أن نقول: إنَّ «**عادًا**» كانت عندهم «مصانع» مثل مصانعنا العصريَّة؛ لأنَّ القرآن قال على لسان هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩].

فكلمة مصانع هذه تعني أماكن اللهو أو القصور المشيدة أو الحصون.

وكذا كلمة «**سياحة**» لها معنى معيَّن في عصرنا لا ينبغي أن نسقطه على لفظ القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]. فالسياحة في لفظ القرآن هذا تعني الصيام أو الهجرة وغيرها.

وهناك ممن كتب في التاريخ مَنْ قال: إنَّ العرب كانوا يُكرهون بناتِهم على البغاء، واستدل على ذلك بقول الله تعالى: ﴿**وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا**﴾ [النور: ٣٣]. وهذا خطأ شديد، ولم يحدث ما ادَّعاه الكاتب في العرب من قبل، فالفتيات في الآية: الإماء أو الجواري أو ملك اليمين. ولو أنَّه نظر في بقية سور القرآن الكريم لعلم هذا المعنى ولتبيَّنه بوضوح، يقول الله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ**﴾ [النساء: ٢٥] أي: من الإماء.

وبعض النَّاس ذهب إلى أنَّ حواء خُلقت أولًا وأنَّ آدم خلق منها، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً**﴾ [النساء: ١]. قال: لو كان المقصود: ﴿**مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ**﴾ آدم، لقال: وخلق منها زوجته، ولكنَّه قال: ﴿**وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ أي آدم: وهذا جهل بمعنى كلمة «زوج» في لغة العرب

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

وفي لغة القرآن الكريم الَّتي تعني المرأة أو الرجل. فالرجل زوج، والمرأة زوج، ولذلك قال الله تعالى لآدم: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥، الأعراف: ٩]. وقال سبحانه: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الروم: ٢١]، ولم يقل زوجات؛ لأنَّ كلمة «زوجات» استعملها الفقهاء على لُغَة من اللغات، لكي يفرقوا بين الكلام عن الرجل والكلام عن المرأة في الحقوق وغيرها، لكن الواقع أنَّ لغة العرب تجعل كلًّا من الرجل والمرأة زوجًا، وأصل الزوج ضد الفرد، وكأنَّ كلًّا منهما يحمل بين طيَّات نفسه شخصيَّة الآخر، فهما زوج في فرد، أو فرد في زوج، وهذا من أسرار التعبير العربي.

أهمية علم النحو والصرف:

ولا بدَّ أيضًا من معرفة علوم اللُّغة، مثل «علم النحو» الَّذي يتعلَّق بالإعراب والبناء وتغيُّر أواخر الكلمات بتغيُّر العوامل الداخلة عليها؛ إنْ حقيقة أو تقديرًا، وهذا العلم لا بدَّ منه حتَّى لا يضلَّ الإنسان، ويفهم الكلام على غير وجهه الصحيح، كما يفهمه العوام، وذلك مثل أن يفهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] على أنَّ الله سبحانه هو الَّذي يخشى العلماء والحقيقة أنَّ العلماء هم الَّذين يخشون الله تعالى. فلفظ «العلماء»، في الجملة فاعل.

ومثل أن يفهم من قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]. أن إبراهيم عليه السلام امتحن ربَّه، والحقيقة أنَّ الله تعالى هو الَّذي ابتلى إبراهيم، لكن التقديم والتأخير أوهم العامةَ بمثل هذا الفهم.

QaradawiBooks.com

لذا لا بد لمن يريد أن يفهم القرآن أن يعرف النحو وأن يعرف الإعراب، وأن يعرف الأسماء والأفعال والحروف، وأسماء الإشارة ودلالاتها، والضمائر ومرجع الضمائر، وقد أشرت إلى قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]. **الَّتي** يستدلُّ بها بعض النَّاس على أنَّ المصحف لا يمسه إلَّا طاهر، وبالنظر إلى مرجع الضمير نجد أنَّ الآية تقول: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٩]. فهل يرجع الضمير في قوله: ﴿يَمَسُّهُۥٓ﴾ إلى الكتاب المكنون، أم إلى القرآن الكريم؟ فإذا كان مرجع الضمير إلى القرآن الكريم فلا يمسُّه إلَّا المطهَّرون، وإذا كان مرجع الضمير إلى الكتاب المكنون ـ وهذا هو الأرجح؛ لأنَّ الضمير يعود إلى أقرب مذكور؛ ما لم يصرفه عن ذلك صارف ـ فالمعنى: أنَّ الكتاب المكنون لا يصل إليه إلَّا الملائكة، ولا تستطيع الشياطين أن تصل إليه، قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]. فمعرفة مرجع الضمير مهمَّة لبيان الحكم.

وإعراب الكلمة غاية في الأهمية، فحينما يقول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. نجد أنَّ إعراب كلمة «كافَّة» له دخل في بيان المعنى المراد، فهي «حال»، ولكن من أيِّ شيء؟ هل هي حال من الفاعل أو حال من المفعول به؟ كما تقول: لقيتُ محمدًا مبتسمًا، فمن المبتسم: أنت أم هو؟ وهنا لا نعرف صاحب الحال.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ هل الحال «كافَّة» هي من الفاعل ـ واو الجماعة في «وقاتلوا» ـ فيكون المعنى: تجمَّعوا

QaradawiBooks.com

على قتال المشركين كما يتجمَّعون على قتالكم؟ أم أنَّ الحال «كافَّة» هي من المفعول به «المشركين» فيكون المعنى قاتلوا كل المشركين كما يقاتلون كل المسلمين؟ وهذا المعنى الأخير يستدل به من قال: إن هذه الآية هي آية السيف، أو تدلُّ على السيف؛ لأنَّها تطالب بقتال المشركين جميعا أيًّا كان وضعهم.

فمن المهم إذنْ أن يتسلَّح من يريد فهم القرآن أو تفسيره بمعرفة علم النحو، وأن يتضلع في هذا العلم، فإن له فوائد كثيرة.

وعلم الصَّرف، وهو العلم الَّذي يتعلَّق ببنية الكلمة، وهذا أيضًا له دخل في الدلالة على المعنى، فمثلا في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. نجد كلمة محيض ـ وهي على وزن مفعل ـ تحتمل أن تكون مصدرًا ميميًّا بمعنى الحيض، أي: نزول الدم، أو اسم مكان، أي: مكان الحيض، فاعتزلوا النساء في مكان الدم هذا، أو في فترة نزول الدم إذا كانت اسم زمان.

ونجد قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ بالتخفيف، أي: بمجرَّد انقطاع الدم، وطهرت المرأة بمعنى انقطع عنها الدم وجفّ، وهذا يعني أنَّ الاغتسال ليس شرطًا، أو (حَتَّى يَطَّهَّرْنَ) بالتَّشديد تدل على زيادة المعنى حيث إن مبنى الكلمة قد زاد، فلا بدَّ أنَّها تدلُّ على شيء آخر، وهو أن تغتسل المرأة، كما قيل: إنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، وهذه المعاني يعين على فهمها علم الصرف.

وأيضًا دلالة الجموع، مثل ما قاله بعض المفسِّرين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]، من أنَّ السفهاء هم

QaradawiBooks.com

النســـاء والصبيان[1] فلا ينبغي أن يُعطـــيَ الرَّجلُ مالَـــه لامرأته، وقد ردَّ المحققون من المفسِّـــرين هذا الكلام، فقالوا: السفهاء جمع سفيه، وهو جمع تكسير على وزن فُعَلَاء للذكور العقلاء. ولو كان المراد النساء لجاء الكلام بجمع ســـفيهة وهي تجمع على سفائه أو ســـفيهات، أي: جمع تكسير، أو جمع مؤنث سالم؛ لكن لا تجمع ســـفيهة على سفهاء. فهذا غير صحيح، فضلا عن أنَّ السَّفَه اســـمُ ذمّ، ولا تذمُّ المرأة على أنوثتها، ولا يذمُّ الصبي على صغره، وفي سورة البقرة: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فجعل الصغير من جنس الضعيف، لا من جنس السفيه.

أهمية علم البلاغة:

ويحتاج المفسِّـــر أيضًا إلى «علـــم البلاغة»: علـــم المعاني والبيان، ليعرف لماذا قُدِّم هذا؟ ولماذا أُخِّر هذا؟ وماذا يفيد الحصْر؟ والمســـنَد والمسنَد إليه، وإذا كان كلاهما معرفة، فماذا يفيد هذا التركيب؟ لأنَّ هذه الأشـــياء لها دلالاتها، فالتقديم مثلًا له دلالته كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. حيث أفـــاد التقديم هنا القصر، أي: لا نعبد إلَّا إيَّاك، ولا نســـتعين إلَّا إيَّاك، ولو أنَّه قال: نعبدك ونستعينك؛ لمَا أفادت القصر.

ولهذا نجد أنَّ معرفة علوم اللغـــة العربيَّة المختلفة أمرٌ لا بدَّ منه، إذ كيف يفقه من لا يعرف أسرار العربيَّة دلالةَ التركيب، كما في قوله تعالى:

---

(١) هكذا روى عن ابن عباس وابن مسعود والحكم بن عيينة والحسن والضحَّاك، وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: هم النساء. انظر: تفســـير ابن كثير (٤٥٢/١) تفسير قوله: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥].

QaradawiBooks.com

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]. فيظن أن ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ شرط! والحقيقة أن هذا قيد لبيان الواقع، كأنه ينكر على هؤلاء السادة الَّذين يجبرون إماءَهم ومواليهم على التكسُّب بهذا المنكر، فيقول: الأمَة تريد التَّحصُّن وأنت تُكرهها على البغاء؟!

ومثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠]. حيث أراد بعض النَّاس أن يجعله قيدًا في الربا، ويقول: القرآن لم يحرم إلَّا الأضعاف المضاعفة، أمَّا النِّسَب المئويَّة البسيطة فهذا ليس أضعافًا مضاعفة!

ولو أخذنا الكلام على ظاهره ـ وعلى طريقتهم هذه ـ لكان الربا المُحرَّم هو الَّذي يعادل ستمائة في المائة (٦٠٠٪) لأن كلمة أضعاف جمع، وأقل الجمع ثلاثة، فإذا كانت الأضعاف مضاعفة، يكون أقلها ست مرات، بما يعني أنَّ الربا لا يكون مُحرَّمًا إلَّا إذا كان أدناه ستَّة أضعاف. وهذا غير معقول، إنَّما المراد من قوله تعالى: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ تبشيع الواقع وليس القيد، كما تقول: إيَّاكم والمخدرات سريعة المفعول، أيعني هذا أنَّ المخدرات غير السريعة في مفعولها جائزة؟ لا. إنَّما المراد تبشيع الواقع الَّذي أصبح ملموسًا عند الناس.

ومن أسفٍ أن كثيرًا ممن يتعالمون في عصرنا، ويدَّعون أنَّهم يقرأون القرآن قراءة معاصرة وقراءة جديدة، لم يتعمَّقوا في لغة العرب، ولم يدرسوا علومها كما ينبغي.

ومما يُعينُ على هذا قراءة المباحث اللغوية في علم أصول الفقه، فقد عُنِيَ هذا العلم بالدراسة اللفظيَّة واللغويَّة، ولذلك نجد فيه: الخاص والعام، والأمر والنهي، والمنطوقَ والمفهوم، والمطلقَ والمقيد، ودلالة الإشارة،

QaradawiBooks.com

ودلالة العبارة.. بحوث ودراسات لفظية، فعلم أصول الفقه علم استنباط من نصوص القرآن والسُّنَّة، وهي نصوص عربيَّة، لذا نجد فيه تأصيلًا للأصول، وتقعيدًا للقواعد، فلا بدَّ من الاستفادة ممَّا كتبه الأصوليون والتمكُّن منه، لحاجة ذلك الشديدة عند الترجيح في المسائل الخلافية.

علوم السُّنَّة:

ومن أدوات تفسير القرآن المهمة وآليات فهمه: أن يتضلع المفسر في علوم السنة، وقد قلنا من قبل: إنَّ من طرق تفسير القرآن: تفسيره بالسنة، فمن لا يعرف السنة، ولا يستطيع أن يميِّز بين المقبول منها والمردود، وبين الصحيح والضعيف، وبين المرسل والمسند، وبين الموقوف والمقطوع والمرفوع، وغير ذلك.. لا يستطيع يقينًا أن يفسِّر القرآن، فإنه سوف يداخله الهوى، بحيث يقبل من السُّنَّة ما يحلو له، ويردُّ ما لا يحلو له، بدون قاعدة وبدون معيار.

فلا بدَّ لمن يفسِّر القرآن أن يكون على علم بالسُّنَّة، إلى جانب الأدوات الأخرى، ولذلك نجد كبار المفسرين كانوا علماء في السنة، كشيخ المفسِّرين أبي جعفر بن جرير الطبري، الَّذي كان إمامًا في اللغة، وكان إمامًا في القراءات، وكان صاحب مذهب في الفقه وله أتباع، وكان إمامًا في التاريخ كما نعرف، فهو صاحب التاريخ المعروف، وكان إمامًا في الحديث وعلومه، وكتابه في هذا ـ تهذيب الآثار ـ الَّذي لم يصلنا للأسف منه إلَّا القليل؛ يُعد من أعظم ما كتب. وكذلك الإمام ابن كثير وغيرهما.

ولا أقلَّ من أن يملك المفسِّر مبادئ هذا العلم الشريف، إذا لم يُحط به كله، فهذا يُعينه على الرجوع إلى المصادر، والعالم هو الَّذي يعرف

QaradawiBooks.com

كيف يرجع إلى المصادر، ويعرف الأصلي منها والفرعي، والأساسي والهامشي، والموثق وغير الموثق.

الحذر من الأحاديث الموضوعة والإسرائيليات الباطلة:

ثم ليحذر من يريد أن يفسِّر القرآن من الأحاديث الواهية والموضوعة، وقد ورد عن الإمام أحمد أنَّه قال: «ثلاثة لا أصل لها: المغازي، والملاحم، والتفسير»[(١)]. وقال أصحابه: يعني أن معظمها ليس متَّصل الأسانيد ولا مرفوعها، أي: ليس لها أسانيد متَّصلة مسنَدة، والمرفوع منها قليل، والصحيح منها أقل[(٢)].

وليحذر أيضًا من الإسرائيليات الَّتي دخلت كتب التفسير، وامتلأت بها بطون الكتب، حتَّى لا يكاد يخلو كتاب من كتب التفسير من هذه الإسرائيليَّات الَّتي ضللت الأمة، وخصوصًا فيما يتعلق بقصص الأنبياء، وقصص السابقين عمومًا، وما يتعلق بخلق السماوات والأرض ونحو ذلك، وما يتعلق بالغيبيات وأمور الآخرة، وأباطيل كثيرة رُويت عن أهل الكتاب، وبعضها غير موجود في كتب أهل الكتاب، ولكنَّها ربما تكون مرويَّات شعبية شائعة عندهم، أو تكون من وضع بعض الَّذين أرادوا أن يُضللوا المسلمين، وأثبتها بعض المفسِّرين في كتبهم دون أن يبيِّن ضعفَها، ومنهم من بيَّن ذلك، مثل الحافظ ابن كثير الَّذي يذكرها أحيانًا قليلة في صفحات طوال ثم يقول: وهذا حديث منكر أو باطل!

(١) رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٤٩٣)، تحقيق د. محمود الطحان، نشر مكتبة المعارف، الرياض.

(٢) انظر: دقائق التفسير لابن تيمية (٥٧/١).

QaradawiBooks.com

وهذا يرجع إلى أنَّ أهل الكتاب لا يقولون بعصمة الأنبياء، كما نقول نحن المسلمين، فمن يقرأ قصص داود وسليمان، وأنبياء آخرين في التوراة وأسفارها، يخرج بانطباع: أنَّ هؤلاء الأنبياء ليسوا قدوة يُؤْتسَى بهم، ويُهْتَدى بهديهم، ومن ذلك ما ذُكر عن يوسفَ عليه السلام أنَّه تمكَّن من المرأة، ونظر إلى أبيه وغير ذلك، وهذا تَردُّه الآيات القرآنية والسياق القرآني في قصة يوسف، فحينما راودته امرأة العزيز عن نفسه قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]. وهذا موقف قويٌّ، وحينما أتت المرأة بالنساء، ورتَّبت لهُنَّ حفلًا، وخَرج عليهنَّ يوسف، وقطَّعن أيديهنَّ وقُلنَ: حاش لله، قالت: المرأة بإصرار: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]. فالقرآنُ صريحٌ في موقف يوسف، كان موقف الإباء والرفض المطلق، ولذا قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]. وقد اعترف النسوة بذلك أمام الملك: ﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ [يوسف: ٥١]. فليس هناك أدنى شك في نصاعة موقف يوسُف، ولكنَّ الإسرائيليَّات الَّتي امتلأت بها كتب التفسير شوَّهت جمال موقف يوسف عليه السلام.

وقد نبَّه حَبْر الأمة وترجمان القرآن ابن عبَّاس على هذا الأمر فقال: «إنَّهم لا يسألونكم عما في كتابكم، وقد أنزله الله عليكم غضًّا طريًّا، فكيف تسألونهم عن كتابهم؟!»[1].

ولهذا ينبغي الإعراض عن هذه الإسرائيليَّات، فإنَّها كثيرًا ما تكون في بحوث لا معنى لها، كالبحث في اسم مؤمن آل فرعون

(١) رواه البخاري في التوحيد (٧٥٢٣)، عن عبد الله بن عباس.

QaradawiBooks.com

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾ [غافر: ٢٨]. والله ﷻ ذكره لنا بوصفه، فهو رجل، وهو مؤمن، وهو من آل فرعون، وهذا هو المهم، وكالبحث في اسم أم موسى وأخت موسى، وهذا ممَّا لا يفيد، فالعلم به لا ينفع والجهل به لا يضر.

الحذر من المرويات المردودة عن مفسِّري السلف:

وليحذر من يريد أن يفسِّر القرآن أيضًا من كثير من الروايات الَّتي تُروى عن مفسِّري السلف، وقد تكون عن بعض الصحابة، أو عن بعض التابعين ممن اشتهروا بالتفسير، كعكرمة ومجاهد، وسعيد بن جبير والحسن وغيرهم، وهذه الروايات قد تكون مردودة، وليس لها سند صحيح، ومع هذا تُنقل، مثل ما ذكر في قصة زيد بن حارثة رضي الله عنه؛ إذ زوَّجه الرسول ﷺ زينب بنت جحش رضي الله عنها، ثم ساءت العلاقة بينهما وانتهت بطلاقها كما أراد الله ﷻ، حيث جعل بعض المفسرين منها قصة درامية غرامية، لا تليق بالرسول ﷺ، فزينب ابنة عمته، وقد زوَّجها لأحبِّ النَّاس إليه زيد بن حارثة، الَّذي ذكره القرآن باسمه من بين الصحابة: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]. فلما طلَّقها زيد تزوَّجها الرسول ﷺ؛ وقد ذكر القرآن علَّة هذا الزواج، وهي إبطال التَّبَنِّي بالفعل بعد إبطاله بالقول. وقد نبَّه العلامة ابن كثير على ضعف الروايات الواردة في هذا الشأن[1].

ومثل هذا ما ذُكر أيضًا في قضية الغرانيق، من أنَّ الرسول كان يقرأ سورة النجم، فلما بلغ منها قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤٩١/٣).

QaradawiBooks.com

﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۞ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢١][1]. ألقى الشيطان على لسانه فقال: «تلك الغرانيق العُلا، وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتجى» ثم استدرك. وهذا كلام غير معقول ولا يجوز، فكيف يذمُّ تلك الآلهة ثم يمدحها في آن واحد؟!

ومن أسفٍ أنَّ بعض العلماء قَبِلَها لتَعدُّد الروايات وقال: «لكن كثرة الطرق تدلُّ على أنَّ للقصَّة أصلًا»[2]، وهذا الكلام لا يسلَم من الرد، ففي بعض الأحيان كثرة طرق الضعيف تشكِّك فيه.

الحذر من الآراء الضعيفة والفاسدة:

وينبغي الحذر أيضًا من الأقوال الضعيفة والآراء الفاسدة، فإنها لبشر، والبشر غير معصومين، وقد قال الإمام مالك وغيره من أئمة السلف: كلٌّ يُؤْخذ من قوله ويترك، إلَّا النبي ﷺ، وهذا ينطبق على كل إنسان حتَّى وإن كان من كبار المفسرين. فحينما يقول بعضهم عند قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]: إنَّها ليلة النصف من شعبان، فهذا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. وليلة القدر بالنصّ والإجماع في شهر رمضان، وهي الَّتي نزل فيها القرآن، فكيف يُقال: إنَّ القرآن نزل في ليلة النصف من شعبان؟! لا شكَّ أنَّ هذا الرأي مردود، فالقرآن نزل في ليلة القدر، وهي نفسها الليلة المباركة.

---

(١) تفسير ابن كثير (١٣٧/٤).

(٢) هو الحافظ ابن حجر، وانظر كلامه في: فتح الباري (٤٣٩/٨، ٤٤٠)، تحقيق محب الدين الخطيب، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، وللشيخ ناصر الدين الألباني رسالة نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق، في الرد عليها وتفنيدها.

QaradawiBooks.com

وحينما يقول بعض كبار المفسِّرين عند تفسير قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]. وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] إنَّ هذا في أهل الكتاب[1] فهذا كلامٌ فيه نظر؛ لأن هذه الآيات وإن كانت في أهل الكتاب، إلَّا أنَّها تشمل المسلمين، وقد جاءت بلفظ عام: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾.

وقد كتب بعضهم ـ للأسف ـ في بعض الصحف السَّيَّارة: أنَّ هذا الكلام لا ينطبق على المسلمين، فهو خاصٌّ باليهود والنَّصارى ليُحَكِّموا التوراة والإنجيل، وهذا شيءٌ عجيب يجعلنا نتساءل: أَمَنْ تَرَكَ الحكم بالتوراة يكون كافرًا أو ظالمًا، ومن ترك الحكم بالإنجيل يكون فاسقًا، ومن ترك الحكم بالقرآن ـ أعظم كتب الله وأخلدها ـ لا يحكم عليه بكفر ولا بظلم ولا بفسق؟! أكان القرآن دون التوراة والإنجيل؟! أم أنَّ الله تعالى يكيل بكيْلين، فإذا ترك اليهودُ كتابَهم فلم يحكموا به، فهم كَفَرَة وظَلَمَة، وإذا ترك النصارى كتابهم فلم يحكموا به، فهم فَسَقَة؟! أمَّا إذا ترك المسلمون كتابهم فلم يحكموا به، فليسوا بكَفَرَة ولا ظَلَمَة ولا فَسَقَة؟!

إنَّ هذا أمر يخالف النقل، ويناقض العقل، ولذا قال سيِّدنا حذيفة فيمن قال مثل هذا الكلام ـ ويبدو أن هذا الكلام ظهر من قديم ـ: نِعْمَ الإخوة لكم بنو إسرائيل، أن كانت لهم كل مُرَّة، ولكم كلُّ حُلوة[2]! أي:

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦٠/٢) وما بعدها.

(٢) رواه محمد بن نصر المروزي في السنة (٦٥)، عن حذيفة.

QaradawiBooks.com

إذا تركوا كتابهم كفروا وظلموا وفسقوا، وأنتم لا شيء عليكم إن تركتم كتابكم.. ويأبى الله هذا، فعدله واحد، وكتبه إنَّما أُنزلت ليحكم بها الناس، والقرآن لم ينزل لكي يتبرَّك به بتعليق آياتِه على الجدران، أو بحمْله حِرْزًا من العين والجنّ وغير ذلك، وإنَّما أنزل ليحكم ويضبط مسيرة الحياة بأحكام الله، ومن قال غير هذا ـ وإن كان من كان منزلة ـ فكلامه غير مقبول.

ومن غير المقبول أيضًا مثل كلام الإمام الطبري عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]، يقول: واهْجروهنَّ في المضاجع أي: قيِّدوهُنَّ ـ أو اربطوهن ـ بالهجار، أي الحبل الَّذي يُربط به[١]. وهذا خروجٌ عن ظاهر اللفظ، فالهجر كما هو معروف ومنصوصٌ عليه: هَجْر في المضاجع، ولذلك قال الزمخشري عمَّن قال هذا: هذا تفسير الثقلاء[٢]. وله الحقُّ في هذا، ويدلُّنا هذا على أنَّ أحدًا ليس له العصمة بعد رسول الله ﷺ.

وبعد..

وبعد هذه المقدِّمات نضعها ـ إن شاء الله ـ بين أيدينا وأمام أعيننا، حينما نبدأ مسيرتنا مع كتاب الله ﷻ مستفيدين ـ إن شاء الله ـ من كل تفسير لكتاب الله سبق، وإذا كان من سؤال: كيف تفسِّر؟ وما هو منهجك؟ وهل هو تفسير قديم أو جديد؟ وهل هو تفسير فقهيٌّ أو كلاميٌّ؟ بالرأي أو بالمأثور؟ أقول وبالله التوفيق: إنَّه تفسير يأخذ من المأثور، ويستخدم الرأي، تفسير يجمع بين الرواية والدراية، بين العقل

(١) تفسير الطبري (٣٠٩/٨).

(٢) الكشاف للزمخشري (٥٠٧/١)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والنقل، بين الأصالة والمعاصرة، يهتدي بتفسير السلف، ومعارف الخلَف، وعلوم العصر، ولكنَّه يُمحِّص ويُرَجِّح، وليس أسيرًا لأحد ولا مقلدًا لأحد، يستفيد من كل التفاسير الماضية، ولكنَّه لا يخوض ويتوسَّع في اللغويات، ولا في الفقهيات، ولا في الكلاميات، بحيث يخرج تفسير القرآن عن مقصده وعن هدايته؛ بل يهتم بإبراز مقاصد القرآن، وهداية القرآن، وعظمة القرآن، وروْعة القرآن، وهو تفسير تحليلي وموضوعي، يتتبَّع كلمات النص القرآني ويُحلِّلها ويُعايشها، ويَتَتَبَّع المعنى في القرآن الكريم، ويضمُّ بعضه إلى بعض، فخير ما يُفسر القرآن بالقرآن، ثم بالسُّنَّة الصحيحة.

وهذا ما سأحاول السَّيْرَ عليه، سائلًا الله ﷻ أن يلهمني الصواب، وأن يفتح عليَّ بفتوح من عنده، فكتاب الله معطاء، ولا تنقضي عجائبه.

اللهم فقِّهنا في كتابك، واجْعلنا من أهل القرآن، أهل الله وخاصَّته، واجعل القرآن العظيم ربيعَ قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاءَ أحزاننا، وذهاب همِّنا وغمِّنا.. اللهمَّ آمين. وصلِّ اللهمَّ وسلِّم على سيِّدنا محمد، وعلى آله وصحبه تسليمًا كثيرًا.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

تفسير سورة الرعد

سورة الرعد هي السورة الثالثة عشرة في ترتيب المصحف، وآياتها: ثلاث وأربعون، أو أربع وأربعون، أو خمس وأربعون، أو سبع وأربعون على اختلاف المصاحف الكوفيَّة والمكيَّة والشاميَّة[١].

هل السورة مكية أو مدنية؟

وهذه السورة كُتب في بعض المصاحف أنَّها مدنيَّة، ومنها المصحف الَّذي أشرفَتْ عليه لجنة من كبار العلماء في مصر، وكانوا يسمُّونه (مصحف الملك فؤاد).

والاختلاف كبير في المكِّي والمدني، ولا يخلو من خَلَل كثير، فكثيرٌ من السُّور الَّتي يقال عنها مدنيَّة إذا قرأتها؛ داخلك إحساس أنَّها غير مدنيَّة، ومنها سورة الرعد، وسورة الإنسان، ومن يقرأ هذه أو تلك يستيقن أنَّها مكيَّة، وهذا ما جاء عن ابن عباس؛ فقد روى مجاهد وعلي بن طلحة عن ابن عباس: أنَّها مكيَّة[٢].

---

(١) يختلف عدد الآيات بين الكوفيين والمكيين والشاميين باختلاف بدايات بعض الآيات أو نهاياتها، وليس لزيادة أو إثبات آيات في بعض المصاحف غير موجودة في مصاحف أخرى.

(٢) رواه النحاس في الناسخ والمنسوخ صـ ٥٣٥، تحقيق د. محمد عبد السلام محمد، نشر مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٤٠٨هـ.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وسئل الفقيه التابعي الجليل سعيد بن جُبَيْر عن قوله تعالى في آخر سورة الرعد: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]. أهو عبد الله بن سَلام؟ فقال: كيف وهذه السورة مكيَّة[1]؟ ولكن بعض الروايات الَّتي وردت ـ خصوصًا في أسباب النزول ـ جعلت بعضهم يظنُّ أنَّها مدنيَّة، وليس الأمر كذلك.

وبعضهم يظنُّ أنَّ كل ما ذُكر فيه أهل الكتاب أو مُحاجَّة أهل الكتاب من القرآن فهو مدنيٌّ، مثل ما قيل في آية سورة يونس: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] إنَّها مدنيَّة، والسورة كلها مكيَّة. والصحيح أن هناك أشياء كثيرة ذُكرت عن أهل الكتاب في القرآن المكي، فينبغي أن يُتَنبَّه لهذا.

المكي والمدني:

والمكي من القرآن هو ما نزل قبل الهجرة، والمدني هو ما نزل بعد الهجرة وإن نزل في مكة كآية سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] الَّتي قالوا: إنَّها نزلت في مكة عند الفتح، فالمقصود بالمكي والمدني: الزمان، لا المكان.

والقرآن الَّذي نزلَ قبل الهجرة، وهو ما يُسَمَّى بالمكِّي يعمل على ترسيخ العقائد، وتأسيس القواعد الَّتي تقوم عليها الحياة الإسلاميَّة، من إرساء معاني التوحيد لله تبارك وتعالى، والإيمان بالآخرة والجزاء، ومصاير المؤمنين ومصاير الكافرين، والنبوة والوحي، والعمل الصَّالح، وأصول الفضائل ومكارم الأخلاق.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥٢١/٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أمَّا القرآن الَّذي نزل بعد الهجرة وهو ما يُسمَّى بالمدني، فيعمل على تنظيم المجتمع الإسلامي في المدينة، فقد صار للمسلمين مجتمع في المدينة بعد الهجرة يُخاطَب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الَّتي لم تنزل إلَّا بعد الهجرة، حيث أصبح للمؤمنين جماعة مميَّزة، لها كيان، ولها أرض، ولها سلطان، فكانت مهمة القرآن أن يقيم هذا المجتمع ويُؤسِّسه، ويتبعه بالترشيد والهداية والتقويم.

ومن أجل ذلك، فالتَّمييز بين القرآن المكِّي والقرآن المدني يظهر عند قراءة السور، والذي يقرأ سورة الرَّعد يحسُّ ويستيقنُ أنَّها سورة مكيَّةٌ، فموضوعها مكِّي، وأسلوبها مكِّي، ونَفَسُها مكِّي، ومنْ يتذوَّق القرآن لا يشك في أنَّ هذه السورة مكية.

ثم إنَّ السور الَّتي قبلها وبعدها ممَّا بدأ بأحرف ﴿الٓر﴾ كلها مكيَّة، وهذه حلقة من هذه السلسلة، أو هذه الزمرة، وإن زيد فيها ميم؛ لحكمة يعلمها الله ﴿الٓمٓر﴾.

استثناء بعض الآيات من السور المكيَّة بأنَّها مدنية:

أمَّا مسألة استثناء بعض الآيات من السور المكيَّة لتكون مدنية، ففي النَّفْس منها شيء، وتحتاج إلى تمحيص وتحقيق في كل ما يُستثنى، فأحيانًا يستثنون آية، ويعجب المرء لماذا استثنَوها؟! وهي شديدة التعلق بما قبلها وبما بعدها في التحام وثيق؟ مثلما استثنوا من سورة المرسلات المكيَّة آيتها الثامنةَ والأربعين، وقالوا: إنَّها مدنية، والآية تقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]. وقبلها: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٧]، وبعدها: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٩]. فهل كان

QaradawiBooks.com

السياق قبل نزول الآية: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؟! لا، فهذا يخالف ما قامت عليه السورة.

فينبغي أن نحرص ونتحرَّى وندقِّق في المكِّي والمدني، ومسألة استثناء آية أو آيات من السور، فبعض هذا يكون تبعًا لروايات حول أسباب النزول، كثيرًا ما تكون غير محققة وغير صحيحة!

ترتيب نزول سورة الرعد:

سورة الرعد إذن: مكيَّة نزلت في أواخر العهد المكي على ما يبدو، فقد وردت بعض الروايات تفيد أن سورة «يونس» وما بعدها من السور الَّتي تبدأ بـ «الر» وهي يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر، نزلت في مدة زمنية متقاربة، وقالوا: إنَّ سورة يونس نزلت بعد سورة الإسراء؛ وإن كان ترتيب نزول السور يحتاج إلى كثير من التروي والتحقيق أيضًا.

وهذا يعني أنَّها نزلت في السنوات الثلاث الأخيرة في مكة قبل الهجرة، وبعد وفاة أبي طالب عم الرسول ﷺ، ووفاة السيدة خديجة زوج رسول الله ﷺ في ذلك العام الَّذي سمَّاه «عام الحزن» حينما اشتدَّت عليه قريش، ونالت منه ومن أصحابه ما لم تَنَلْ من قبل.

تسلية الرسول ﷺ والدفاع عنه:

فكان نزول هذه المجموعة من السور تسليةً لرسول الله ﷺ، ودفاعًا عن النبوَّة في مواجهة المكذبين لها، والمشككين فيها، والمفترين عليها، ودفاعًا عن الوحي كما في سورة يونس: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس: ٢].

QaradawiBooks.com

وكما في سورة هود: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وفيها أيضًا: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: ١٢]، ومنها: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وكما في سورة يوسف: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]. وفيها أيضًا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

وسورةُ الرَّعد تسير في هذا الاتجاه، وسورة إبراهيم تسير في الاتجاه ذاته، ولكن بنفَس حار، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۞ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ [إبراهيم: ١٣ ـ ١٥]، وفي آخر السورة: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وأيضًا: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ۞ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٧، ٤٨].

وسورة الرعد منذ أوَّل آية تمشي في هذا الاتجاه، ففيها دفاع عن النبوَّة، وتأكيد لحقيَّة القرآن، وبيانٌ لما بعث الله به محمدًا ﷺ من الحق المطلق، وردٌّ على أولئك الَّذين يطلبون الآيات الحِسيَّة، فيقولون: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الرعد: ٧، والآية: ٢٧]. في أكثر من موضع في هذه السورة، فبسط الله لهم من آياته الكونيَّة ما فيه عظةٌ وعبرة، وردَّ عليهم بردود مختلفة في أنحاء السورة.

QaradawiBooks.com

لماذا سُمِّيت سورة الرعد؟

وقد سميت هذه السورة بسورة الرعد؛ لأنَّ الله تعالى ذكر فيها تسبيح الرعد، فقال: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]. والراجح أن تسميات السور توقيفيَّة.

تسميات السور وأسبابها:

والتَّسميات تكون لملابسات شتى، فأحيانًا تُسمَّى السور باسم أوَّلها كسورة «ص»، وسورة «ق»، وسورة «اقتربت»، وسورة «لم يكن»، وسورة «الرحمن» وغيرها.

وأحيانًا تُسمَّى باسم شيء متميز فيها، كلفظة معينة لم تتكرر في غيرها من السور مثل سورة الجاثية: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨]، والأحقاف: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]، أو معنى معين له أهمية مثل سورة الشورى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وسورة الصف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]. وغيرها.

وبعض السور تحمل أسماء الله تبارك وتعالى، مثل: سورة الرحمن، وسورة النور: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، وسورة فاطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، وسورة غافر: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣].

وبعضها يحمل أسماء أشخاص كبعض الأنبياء والرسل، مثل سور نوح، وإبراهيم، ويونس، وهود، ويوسف، ومحمد، عليهم الصلاة والسلام، وسورة «المزمِّل» و«المدَّثِّر»، ومن غير الأنبياء كسورة «لقمان» وسورة «مريم».

QaradawiBooks.com

وبعضها يحمل أسماء أقوام، مثل سورة «الروم»، وسورة «قريش»، وسورة «سبأ».

أو أسماء أصناف من الناس، ومن المخلوقات، مثل: سورة «الجن»، وسورة «الملائكة» ـ وهو اسم آخر لسورة «فاطر» ـ وسورة «المؤمنون»، وسورة «المنافقون»، وسورة «المطفِّفين»، وسورة «الكافرون».

أو أسماء أماكن، مثل سورة «الأحقاف»، وسورة «الحِجْر».

أو أسماء حيوانات، مثل: سورة «البقرة»، وسورة «الفيل».

أو أسماء حشرات مثل: سورة «النحل»، وسورة «النمل»، وسورة «العنكبوت» وهكذا.

وفي بعض السور نجد أنَّ للسورة أكثر من اسم مثل سورة «الإسراء»، تسمَّى سورة «بني إسرائيل»، وسورة «النحل» تسمَّى سورة «النِّعَم»، وسورة «اقتربت» وتسمَّى سورة «القمر»، وسورة «لم يكن» وتسمَّى سورة «البيِّنَة»، وهكذا، وهذه التَّسميات للسور متنوِّعة، وهي تدلُّ على تنوُّع موضوعات القرآن الكريم.

سر البداية بالبسملة:

وقد بدأت سورة الرعد بالبسملة، كما بدأت كل سور القرآن، ما عدا سورة التوبة.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

والبسملة استجابة لأمر الله تعالى لرسوله في أوَّل آية نزلت من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. فهي قراءة باسم الله الرحمن الرحيم في بداية كل سورة.

QaradawiBooks.com

والتَّسمية على الأمور ذات البال من سنن الأنبياء وهديهم، فسيدنا نوح عليه السلام عندما ركب السفينة قال: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١].

وسيدنا سليمان عليه السلام حينما كتب إلى ملكة سبأ كتابه كتب فيه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١].

هل البسملة آية من الفاتحة؟

وقد اختلف السَّلف حول البسملة: أتكون آية من كل سورة أم لا؟ وهل هي آية من سورة الفاتحة وحدها، أو ليست آية لا من الفاتحة ولا من غيرها؟ خلافًا طويلًا بين المالكية وغيرهم.

ورغم أنَّ هذا الخلاف في أمر مهم؛ إلَّا أنَّ السلف رضوان الله عليهم وسع بعضهم بعضًا في هذا الأمر، كما وسع بعضهم بعضًا في كل الأمور الخلافية الفرعية، وصلَّى بعضهم وراء بعض، ولم يجد حَرجًا ولا عَنَتًا في ذلك، وهذه هي سماحة سلف هذه الأمة الَّتي نرجو من الخلف أن يعوها ويدركوها، ويسيروا على هديها.

والذي أرجِّحه أنَّ البسملة آية من كتاب الله عز وجل؛ فإنَّ الصحابة رضي الله عنهم في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ حينما كتبوا المصاحف جرَّدوها من غير القرآن، وقد كانت المصاحف تحوي بعض التفسيرات والتعليقات والإضافات لعددٍ من الصحابة على مصاحفهم، فلمَّا كتبها سيِّدنا عثمان جرَّدها من كل ذلك فبقيت خالصة لكلام الله عز وجل، وهذا ممَّا يجعلني أرجِّح أنَّ البسملة آية من القرآن، وإن لم تكن آية من كل سورة ذُكرت فيها، وهذا من فضل الله عز وجل على المسلمين: أن جعل البسملة في

غير مرخصة للطباعة

بداية كل سورة، فإذا قرأها المسلم مبتدئًا السورة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فإنَّه يستعين ويبدأ ويشرع ويقرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾.

الله الرحمن الرحيم:

و«الله» لفظ الجلالة عَلَم على الذات الإلٰهيَّة لا يشركه فيه أحد من خلقه.

و«الرحمن» أيضًا اسم علم يفرد وحده كلفظ الجلالة «الله»، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]. فالرحمن اسمٌ مفرَد لأنَّه علم على الذات الإلٰهيَّة.

وصيغة «الرحمن» هذه تدلُّ على المبالغة في الرحمة، فإذا قُرنت بـ«الرحيم» ازدادت المبالغة فهو رحمَن رحيم، وعلى أيِّ وجه فسَّرت «الرحمن الرحيم» المنعم بجلال النعم أو المنعم بدقائقها، أو رحمن الدنيا أو رحيم الآخرة أو غير ذلك، فإن اجتماع الاسمين في البسملة يدلُّ على سَعَة رحمة الله تبارك وتعالى، فهو سبحانه الموصوف بالرحمة، والرحمة صفة ذاتية لله ﷻ ينبغي أن يوصف بها كما يوصف بالعلم، والإرادة والقدرة، والحياة، والسمع والبصر والكلام، وكما يوصف بالحكمة.

أرحم الراحمين:

وقد وُصف الله ﷻ بالرحمن الرحيم، ووصف بأرحم الراحمين؛ كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ

QaradawiBooks.com

ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١]، وكما قال سيِّدنا يعقوب عليه السلام: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]. وكما قال يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢]. وكما قال سيِّدنا أيوب عليه السلام: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

خير الراحمين:

فهو سبحانه أرحم الراحمين، وهو خير الراحمين: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، وقد وسِعَت رحمتُهُ كلَّ شيء: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وكما قالت الملائكة في دعائهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧]، فكما أن علمه يسع كلَّ شيء، تسع رحمته كل شيء أيضًا.

هذا هو الله سبحانه وتعالى ربُّ المسلمين، وإلٰههم ليس كما يقول دعاة التنصير والاستشراق وتلاميذهم: إنَّ إلَه المسلمين إلٰه جبروت وانتقام ولا يُعرف بالرحمة، فهذا كذب على الإسلام، وعلى القرآن، وعلى السنة، فالله هو «الرحمن الرحيم» الَّذي اختار أن تبدأ سور القرآن كلها ـ عدا براءة ـ بالبسملة، وأن يردِّد المسلمُ «الرحمن الرحيم» كلَّ يوم في صلاته أربعًا وثلاثين مرَّة. سبع عشرة مرَّة في البسملة ـ حيث الصلوات المفروضة في اليوم والليلة سبع عشرة ركعة ـ وسبع عشرة مرَّة أخرى في الفاتحة؛ فهي آية منها، فهذه أربع وثلاثون؛ عدا النوافل والأذكار، لتَظلَّ حياةُ المسلم موصولة برحمة الله عزوجل. فكيف يقال: إنَّ إلٰه المسلمين إلٰهُ عذاب وإلٰهُ انتقام؟! هذا غير صحيح بلا ريب.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الرحمة من صفات الله والعذاب من أفعاله:

وحينما قال الله ﷻ لرسوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحِجْر: ٤٩، ٥٠] جعل الرحمة كالمغفرة من أسمائه تعالى وصفاته، أمَّا العذاب فجعله من أفعاله ولم يجعله من أسمائه، فليس من أسمائه المُعذِّب.

وقد ذهب الإمام المحقق ابن القيِّم إلى أنَّ اسم «المنتقم» لم يصح من أسماء الله الحسنى[1]، وفي القرآن «ذو انتقام» وليس فيه «المنتقم» هذه، لا بالتعريف ولا بالتنكير.

ورود لفظ «الرحمن» و«الرحيم» في القرآن الكريم:

وقد ورَدَ لفظ «الرحمن» في القرآن الكريم سبعًا وخمسين مرَّة، وهذا عدا ما في البسملة، فإذا أضفنا مائة وثلاث عشرة ـ وهي عدد ما في البسملة من لفظ الرَّحمن ـ كان المجموع مائة وسبعين مرَّة ذكر فيها «الرحمن» في القرآن الكريم كله.

أمَّا لفظ «الرحيم» معرفًا بالألف واللام أو غير مُعرَّف مثل: «رحيم»، «رحيمًا» فقد ورد في القرآن الكريم مائة وخمس عشرة مرَّة، كما في «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، فإذا أضفنا إليه مائة وثلاث عشرة مرَّة أصبح مجموع ما ذكر في القرآن منه مائتين وثماني وعشرين مرَّة، وهذا يدلُّنا على مَدَى عناية القرآن بغرس معنى رحمة الله في نفس الإنسان المسلم، حتَّى إذا ناجى ربَّه، ناجاه بهذا، وإذا عامل ربَّه عامله

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (١/١٧٧)، تحقيق هشام عبد العزيز عطا وآخرين، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

بأنه الرحمـــن الرحيم، فلا ينبغي أن ييأس مـــن رَوْح الله قط، مهما تكن ذنوبه ومهما تتفاقم سيئاته؛ فإنَّ رحمة الله أعظم، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

* * *

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

﴿الٓمٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]

غير مرخصة للطباعة

ترتيب السور توقيفي:

بدأت السورة بالحروف المقطَّعة، وأحب قبل الكلام عنها أن أذكُر هنا أن ترتيب السور على القول الراجح توقيفي. ولو كان اجتهاديًّا كما ذهب بعض العلماء إلى أنَّ بعضها توقيفيّ وبعضها الآخر باجتهاد الصحابة لأتت السور الَّتي تبدأ بـ﴿الٓر﴾ تباعًا بعضها إثر بعض، ثم تأتي بعدها السورة الَّتي تبدأ بـ﴿الٓمٓر﴾ فهذا هو المعقول، ولأتت السور الَّتي تحمل أسماء الأنبياء متتابعة دون فصل أو بترتيب الأنبياء الزمني، فإبراهيم عليه السلام أسبق من يوسُف ويونس عليهما السلام، وهكذا، فهذا يدلُّ على أن ترتيب السور ترتيبٌ توقيفي.

الأحرف المقطَّعة في أوَّل السورة:

بدأت السورة بـ﴿الٓمٓر﴾ وللمُفسِّرين كلام طويل الذيول في معاني الأحرف المقطَّعة؛ لا نريد أن نطيل فيه.

فهناك من قال: إنَّها من المتشابه الَّذي لا يعلم معناه إلَّا الله، ولذا نجد بعض المفسِّرين يقولون عندها: الله أعلم بمراده، وهذا ما جاء عن صدِّيق الأمّة أبي بكر رضي الله عنه إذ قال: «لكلِّ كتاب سرٌّ، وسرُّ القرآن أوائل السور»[(١)]. كما جاء قريب من هذا عن ابن عباس، وعن الشَّعبي ـ علامة التابعين ـ الَّذي قال: «الأحرف المقطَّعة في أوائل السور سرُّ الله فلا تطلبوه»[(٢)].

(١) انظر: جامع البيان للطبري (٢٠٩/١).

(٢) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٢٥٠/٢)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، وغرائب القرآن للنيسابوري (١٣٠/١)، تحقيق الشيخ زكريا عميرات، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهناك من قال: إنَّها رموز وإشارات إلى أسماء الله تبارك وتعالى، فالألف: تشير إلى الله، واللام: تشير إلى لطيف، والميم: إلى مهيمن، والراء: إلى رحيم.

ومن قال: إنَّها إشارة إلى أفعال الله، فالألف: آلاؤه، واللام: لطفه، والميم: مجده، والراء: رحمته.

ومن قال: إنَّها أسماء للسور، فهذه سورة: ﴿الٓمٓ﴾، وتلك: ﴿طسٓ﴾، وأخرى: ﴿حمٓ﴾، ولكن هذه الحروف تتشابه وتشترك أكثر من سورة في بداية واحدة، فتحتاج في تسميتها بالحروف إلى شيء آخر يميزها عن غيرها.

ومن قال: إنَّ هذه الحروف مسرودة سردًا أُريد به التنبيه على إعجاز القرآن والتَّحَدِّي به، كأنَّه يقول للمشركين: هذه الأحرف الَّتي تسمعونها هي من جنس الأحرف الَّتي تُرتِّبون منها كلامكم، ومع هذا عجزتم أن تأتوا بمثل هذا القرآن، أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثلِه، وهو الَّذي لم يخرج عن أحرف كلامكم، فهذا دليل على أنَّه من وحيِ الله، وليس من صنع محمد.

وممَّا يؤكِّد هذا الكلام ـ كما قالوا ـ: إنَّه ما ذكرت هذه الأحرف إلَّا ويذكر بعدها القرآن مباشرة أو أثناء السور، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقال: ﴿الٓمٓصٓ ۞ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، وقال: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وقال: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، وقال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال في سورة الرعد: ﴿الٓمرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ١]. وهكذا فهو تنبيهٌ على الإعجاز والتَّحدِّي.

QaradawiBooks.com

أعداد الأحرف في أوائل السُّور:

وقد بدأتْ بعض السُّوَر بحرف واحد، مثل: ﴿صٓ﴾، ﴿قٓ﴾، ﴿نٓ﴾.

وبعضها بدأ بحرفين، مثل: ﴿طسٓ﴾، و﴿حمٓ﴾، و﴿طه﴾، و﴿يسٓ﴾.

وبعضها بدأ بثلاثة أحرف، مثل: ﴿الٓمٓ﴾، و﴿الٓر﴾.

وبعضها بدأ بأربعة أحرف، مثل: سورة الرعد هذه ﴿الٓمٓر﴾، و﴿الٓمٓصٓ﴾.

وبعضها بدأ بخمسة أحرف، مثل: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، و﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ﴾ إلى آخره.

أثر هذه الأحرف في الأسماع والقلوب:

ويلاحظ أنَّ هذه الحروف ذات نغم معيَّن مؤثِّر، وقد حدَّثني بعض الأخوة أنَّ بعض المتخصِّصين في الموسيقى من الغربيين دخل في الإسلام بعد سماعه تلك الأحرف، فإنَّ لها وقعًا معينًا، وقد وجد هذا الموسيقي خللًا في بعض الفواتح فتوقف فيه حتَّى سأل بعض المسلمين عن سرِّ هذا؛ فوجد أنَّه لم يقرأ الأحرف قراءة صحيحة مُقطَّعة؛ بل قرأها مجمعة.

ونحن لا نعرف الموسيقى، ولكن هذا القرآن ـ الَّذي نعرفه ـ عجيب جدًّا، فهو يؤثِّر في الأسماع، ويؤثِّر في القلوب، حتَّى بجرسه وموسيقاه، وكلُّ سورة لها جرس معيَّن وإيقاع معيَّن، وهذا ما يجعلنا نقول: إنَّه من المستحيل أن يُترجم القرآن ترجمة كاملة مستوعبة؛ ولو أمكننا ترجمة المعاني، فكيف تترجم الجرس والإيقاع واللحن؟!

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

ومن الأشـياء الَّتي عرفتها أن إخوانا لنا لهم مستشـفى في أمريكا؛ اسمه مستشفى أكبر ـ أو مستشفى الله أكبر ـ أجروا تجارب على المرضى بإسـماعهم القرآن الكريم فوجـدوا أنَّ له تأثيرًا على هـؤلاء المرضى: العربي منهـم والأعجمي، والمسـلم منهم، وغير المسـلم، ومن يفهم القرآن ومـن لا يفهمه، وكان هـذا التأثيـر إيجابيًّا، فتحسَّـنت أحوال المرضى، وهذا من العجائب في تأثير هذا القرآن العظيم.

معنى الآيات:

الإشارة بـ «تلك»:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ تلك إشارة إلى السورة المتلوة هذه، على أساس أنَّها مُستَحْضرة.

و﴿تِلۡكَ﴾ ـ كما يقول النحويون ـ اسم إشارة، ولكنَّها إشارة للبعيد، أمَّا الإشـارة إلى القريب فتكـون بـ «هذه» و«هـذا» و«هـؤلاء». و«ذلك»، و«تلك»، و«أولئك» إشارة للبعيد، فما وجه البُعد في ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؟

يقول علماء البلاغة وعلماء التفسـير: إنَّ الشيء إذا كان رفيعَ المقام والمنزلة، ينظر إليه باعتبار عُلوِّ مقامـه ورفعته كأنه بعيد، ولهذا جاء في القرآن: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [يونـس: ٣٢]. والله حاضر معنا: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ [الحديد: ٤].

وجـاء أيضًـا: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢]. وهذا هو سر الإشارة بـ «تلك» وبـ«ذلك» في مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، أي: ذلك الكتاب البعيد الشأن، العظيم المنزلة، الرفيع المقام، الَّذي لا تتطاول إليه الأعناق.

QaradawiBooks.com

﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الآيات: جمع آيــة، والآيةُ هــي: العلامة الواضحة الدالة على شيء، قال تعالى على لسان زكريا؛ حينما استجاب الله له؛ إذ دعاهُ أن يُصلح له زوجَــه، ويرزقَه غلامًا بعد الكبر، رغــم عقم امرأته: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ [مريم: ١٠].

فالآية: العلامة، ولكنَّها في القرآن تكون علامة على أشــياء عديدة، ولذلك تُذكر كلمة الآية، ويراد بها: الآية التكوينيَّة في الأنفس والآفاق، في الأرض وفي الســماء، في العالم العلوي وفي العالم السفلي: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولذلــك نجــد فــي القــرآن كثيــرًا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾، ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، أو ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إلى آخره من الآيات الكونيَّة، الَّتي تدل على قدرة الله تعالى ووحدانيته، وتدبيره وحكمته وعظمته.

وهناك الآيــة بمعنى المعجــزة الَّتي تدل على صدق الرســول، أيِّ رسول، حينما يكذِّبه قومه ويقولون: «ائتنا بآية» تدلُّ على أنَّك رسول الله، وتدلُّ على أنك لا تمثِّل نفسك؛ وإنَّما تمثِّل الإرادة الإلٰهيَّة.

وقد أنزل الله على رسله آيات تدلُّ على صدقهم، مثل عَصا موسى، وخروج يده من جيبه: ﴿بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ٢٢].

وهناك الآية بمعنى الآية التنزيليَّة.. الآية المتلوَّة المسموعة المقروءة، مثل آيــات القرآن الكريــم، ومنها هــذه الكلمة الَّتــي معنا ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. فالواضح أنَّها الآية المتلوَّة المنزلة من عند الله.

QaradawiBooks.com

وكلُّ سورة في القرآن تشتمل على آيات، فالسورة مجموعة من الآيات لها بداية ولها ختام، حُدِّدت بتحديد رسول الله ﷺ لها، أي: بالتوقيف، ولذلك عُرف أنَّ القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة.

والآية لفظة أو أكثر دلَّت على معنى مُعيَّن، وعُرفت بدايتها وعُرف ختامها بالتوقيف أيضًا، وأقلها كلمة، مثل قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤]، آية في كلمة واحدة، وبعضهم جعل مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١]، وقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ آية في كلمة واحدة، والصحيح أنَّها آية في كلمتين؛ فواو القسم كلمة، والفجر كلمة، والضحى كلمة، باعتبار تقسيم النَّحويين للكلمة أنَّها اسم وفعل وحرف.

معنى الكتاب في الآية:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ و«الكتاب» هنا هو القرآن الكريم، أو السورة من القرآن، فمن الممكن أن تكون إشارة إلى السورة نفسها، أو إلى القرآن والسورة دالة عليه.

وكنت قد أشرت في المقدِّمة إلى أنَّ كلمة «الكتاب» تُذكر ويراد بها معان عدة معانٍ، فقد يُراد بها القرآن، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

وقد يُراد بها التوراة والإنجيل، مثل: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

ويُراد بها أحيانًا التوراة فقط: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الإسراء: ٢].

ويُراد بها أحيانًا اللوح المحفوظ: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأحيانًا يُراد بها الكتاب المدوَّنة فيه الأعمال: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤]، ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف: ٤٩].

وأحيانًا يُراد بها ما أنزله الله على رسله: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾ [الحديد: ٢٥].

وأحيانًا يُراد بها المكتوب: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٩]، أو مصدر بمعنى المكاتبة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾ [النور: ٣٣]. أي: المكاتبة بالنسبة للأرقاء، فالسياق هو الَّذي يحدِّد المعنى.

والسياق في هذه الآية ينطق بأنَّ الكتاب هو القرآن، وكلمة «الكتاب» بهذا التعريف تفيد الحصر، يقول المفسِّرون والبلاغيون: كأنَّه حصر الكتاب في القرآن، أي: كأنَّ هذا هو الكتاب ولا كتاب غيره، كما تقول: هذا هو الرجل؛ كأنَّك نفيتَ الرجولة عمَّن عداه! أو تقول: شوقي الشاعر. أي: كأنه ليس هناك شاعر غيره، فهذا نوعٌ من الحصر: حَصْر صفة الكمال في هذا الشيء، وكأنها نُفِيَتْ عن غيره.

وذلك أنَّ أيَّ كتاب بعد القرآن: إمَّا كتاب وضعي من وضع البشر، وهذا لا يرقى إلى مستوى كتاب أنزله الله، وإمَّا كتاب منزل من الله ﷻ، وهذه حُرِّفَت وبُدِّلتْ، فلم يبقَ كتابٌ إلَّا كتاب الله ﷻ «القرآن الكريم»، وكل الكتب قبله حُرِّفَت تحريفًا لفظيًّا وتحريفًا معنويًّا، وأضاعها أهلها بعد أن استُحفظوا عليها فلم يحفظوها، أمَّا القرآن فإنَّ الله هو الَّذي تَولَّى حفظه، ولذلك فهو الكتاب ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾.

QaradawiBooks.com

ثمَّ إنَّ القرآن وحده هو من بين الكتب الإلٰهيَّة: الكتاب المعجز، فلم يُنزل الله كتابًا معجزا يتحدَّى به البشر غير هذا القرآن.

القرآن المنزَّل:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ هو القرآن أيضًا الَّذي أُنزل على محمد ﷺ، وعبَّر عنه بالذي أُنزل، ولم يقل: القرآن هو الحق، أو هذا الكتاب هو الحق؛ لأنَّه أراد أن يصفه بصفة لها تأثيرها في إثبات الخبر (الحقِّيَّة) وهذه الصفة هي أنَّه مُنزَّل من ربِّ محمد ﷺ، فهو كتاب جاء من عُلوٍّ.. من فوق سبع سماوات.. من الله ﷻ إلى محمد ﷺ، لم يصعد إليه محمد ﷺ، وإنَّما أُنزل إليه، وهذا يدلُّ على أنَّ النبوة لا تُنال بالكسب، إنَّما تُوهب للناس هبة كما قال الناظم في التوحيد:

وَلَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ مُكْتَسَبَةْ وَإِنْ رَقَى فِي الْخَيْرِ أَعْلَى عَقَبَةْ(١)

فالنبوة لا تكتسب إنَّما تُصْطفى، ولذلك أنزل الله القرآن إلى محمد ﷺ. ثم تُبيِّن هذه العبارة: أنَّ القرآن ليس كلامًا نابعًا من الأرض، ولكنَّه وحيٌ نازلٌ من السماء، من عند الرب تبارك وتعالى.

صفة الربوبية:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ ونرى هنا كيف يستعمل القرآن الكريم صفة الربوبيَّة، وقد وردت في القرآن مئات المرات بصيغ مختلفة، ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، و﴿رَبُّ كُلِّ شَيۡءٍ﴾، و﴿رَبُّكَ﴾، و﴿رَبُّكُمۡ﴾، و﴿رَبَّنَا﴾، و﴿رَبِّهِۦ﴾.

(١) انظر: حاشية البيحوري على جوهرة التوحيد صـ١٧، بيت رقم (٦٣)، نشر دار السلام للطباعة، مصر، ط١، ٢٠٠٢م

QaradawiBooks.com

وكلمة: ﴿رَبُّكَ﴾ وحدها ذكرت في القرآن الكريم مائتين واثنتين وأربعين مرَّة، بعضها ليس خطابًا لله ﷻ، مثل ما جاء في سورة يوسف: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، و﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ﴾ [يوسف: ٥٠]. أمَّا ما عدا هذين الموضعين فهي لله ﷻ، ومعظمها خطاب لرسول الله ﷺ، وبقيتها وردت في قصص الأنبياء، كقوله: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٦١]، وقوله: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة: ٦٩]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢]. وغير ذلك.

بين كلمة «الربِّ» في القرآن وكلمة «الأب» في الإنجيل:

وكلمة الربِّ تفيد معنى التربية والرعاية، والتَّعهُّد والترقية في مدارج الكمال، يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]. أي: الَّذي يُربِّيكُم ويرعاكم ويتعهَّدكُم بفضله وعنايته وإمداده، ويُرقِّيكم في مدارج فضله وكماله لتبلغوا أقصى ما يمكنكم من الكمال المقدَّر لأمثالكم، وليست كما قال بعض النصارى للأستاذ الإمام محمد عبده، وقال له بعض الفرنسيين: القرآن يتحدَّث إلى النَّاس دائمًا بلغة القهر: أن إلٰهكم صاحب السلطان القاهر، وصاحب الجبروت، وصاحب الكبرياء، أمَّا الإنجيل فيتحدَّث للناس على أنَّ الله تعالى هو «الأب»، وكلمة الأب تعني العطف والرحمة.

هذا مع أنَّ كلمة «الربِّ» أعظم وأبلغ وأعمق من كلمة «الأب»، فكلمة «الأب» قد تكون فيها شبهة الولادة، والله لم يلد ولم يولد، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فكثيرًا ما تكون علاقة الأب بابنه علاقة الحاجة، فالأب يحتاج إلى ذرِّيَّة فيُنجب، وأحيانًا تدفعه إلى ذلك الشهوة،

QaradawiBooks.com

كما قال ذلك المعري وغيره: إن شهوة آبائنا هي الَّتي جَلَبت علينا النكد في حياتنا، أمَّا الله ﷻ فهو يخلق النَّاس دون حاجة إليهم، يخلقهم بفضله، ويرعاهم بفضله، فنعمة الإيجاد والإمداد من الله ابتداء، فهو الربُّ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣]، والذي أسبغ على الإنسان نعمَه ظاهرة وباطنة.

لقد رأينا بعضَ الآباء يهجر أبناءه أو يتركهم، بل رأينا منهم من يقتل أبناءه من إملاق واقع، أو خشية إملاق متوقَّع، كما ذكر القرآن وسجَّل ذلك على العرب في جاهليتهم: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

علاقة الله تعالى بعباده علاقة البر والرحمة:

أمَّا علاقة الله تعالى بعباده فهي علاقة البر والرحمة الَّتي ليس وراءها منفعة ولا حاجة ولا شهوة، ولذلك كان الله تعالى أرحم بعباده من الوالدة بولدها؛ بل هو أبر بهم من أنفسهم.

قد يُسيء الإنسان إلى أبيه مرَّة، فإذا ندم على ذلك فقد يتعب أشدَّ التعب في استرضاء أبيه، وقد عرفت بعض الأبناء أساؤوا إلى آبائهم وندموا، وأرادوا أن يحسنوا إليهم، فظلوا سنين ولم يستطيعوا أن يحصلوا على رضا آبائهم، أمَّا الله تعالى فإنك تُسيء العلاقة معه وتُذنب في حقِّه، وتفرط في جنبه، فإذا قلت: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فتح لك الباب على مصراعيه، ولم تجد على بابه حاجبًا ولا بوَّابًا، فالله أبرُّ بك من نفسك، وأرحم بك من أبويك، وهذا هو الرب.

غير مرخصة للطباعة
نسخة ميزان
QaradawiBooks.com

كلمة «الحقِّ» في القرآن:

﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

و«الحقُّ» كلمةٌ من الكلمات القرآنية الَّتي شاعت في القرآن كله، مكيِّه ومدنيِّه، وقد وردت معرفة بالألف واللام مائة وخمسًا وثمانين مرَّة في القرآن كله، واشتقاقها من «حَقَّ» أي: ثبت ووقع، فأصل الحق هو الثابت الواقع الصحيح، وكلما كان الشيء أكثرَ ثبوتًا وأبعد عن التغيُّر، كان أقرب إلى ماهيَّة الحق، ولذلك كان الحق بإطلاق هو الله تبارك وتعالى، فهو الحق الَّذي لا يعتريه باطل كما قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

ومن غابت عنه هذه الحقيقة في الدنيا فسوف تتكشَّف له في الدار الآخرة: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

وما جاء من عند الله فهو حق، ولذلك كان القرآن حقًّا: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الرعد: ١].

فالحقُّ أُطلق في القرآن على القرآن نفسه كما في السورة، وأُطلق على الإسلام دين الحق: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، والفتح: ٢٨، والصف: ٩].

وأُطلق على الساعة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] لأنَّها ثابتة وواقعة، ولا يمكن أن تتخلف، وإن كنا لا نعلم موعدها.

والقرآن حقٌّ من نواحي عدّة:

حقٌّ من ناحية مُنزله؛ لأنَّه من عند الله الحق، وحقٌّ من ناحية غايته؛ لأنَّه كتاب يهدي إلى الحق، كما اعترف بذلك الجن أنفسهم حينما استمعوا

QaradawiBooks.com

إليه، فرجعوا إلى قومهم منذرين: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وحقٌّ من ناحية مضمونه ومحتواه، فكلُّ ما فيه حق؛ أخباره حقّ؛ لأنَّها لا تتخلف، ولأنها الصدق الَّذي لا يشوبه كذب، وأحكامه حق؛ لأنَّها العدل الَّذي لا يشوبه ظلم، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام. لذا قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

القرآن إذن كله حق؛ بل هو الحق، والتعبير الَّذي معنا يقول: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد: ١]، وأهل العربيَّة يقولون: إنَّ هذا التعبير يفيد الحصر، فركنا الإسناد، أو المسنَد إليه والمسنَد، أو المبتدأ والخبر ـ كما يقول البلاغيُّون ـ إذا كانا معرَّفين أفادا الحصر ـ حصر الخبر في المبتدأ ـ، والمسند إليه هنا أو المبتدأ هو «الَّذي» في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾. وهو اسم موصول معرفة، والمسند أو الخبر هو «الحقُّ» وهو معرفة أيضًا، فكأنَّنا حصرنا الحقَّ في القرآن، فهو الحقُّ ولا حقَّ غيره، كما نقول: شوقي الشاعر، أي لا شاعر غيره.

ومعنى حصر الحقِّ في القرآن ـ كتاب الله ﷻ ـ أي: لا يوجد كتاب غيره ديني أو دنيوي، يوصف بأنه الحق، فهو الحق المصفَّى الَّذي لا شائبة فيه كما عبَّر القرآن: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

الأكثريَّة لا تؤمن:

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]. «لكنَّ» حرف استدراك ـ كما يقول النَّحويون ـ، والاستدراك رفع شيءٍ توهم ثبوتُه، كأنْ تقول: «زيد

QaradawiBooks.com

شجاع ولكنَّه بخيل»، فالغالب أنَّ الشجاعة والكرم متلازمان، فكيف يجود الإنسان بنفسه، والجودُ بالنفس أقصى غايات الجود، ولا يجود بماله؟ فالذي يتوهم أنَّه كما ثبتت له الشجاعة يثبت له الجود والكرم والسخاء، فتأتي «لكنَّ» لرفع هذا التوهُّم، تقول: «ولكنَّه بخيل مع شجاعته».

شواهد الحق للقرآن:

فالقرآن حينما قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ كان المتوقع أن يؤمن أكثر النَّاس به ما دام حقًّا؛ بل ما دام هو الحقُّ البيِّن الواضح النَّيِّر المضيء الَّذي دلَّت عليه كل الشواهد، وشهِدت به الفِطَر السليمة، وشهِدت به العقول الرشيدة، وشهِد به المشركون أنفسهم في بعض الأوقات حينما تركوا أنفسهم على سجيتها بأنه الحق «وإنَّ له لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمُثْمِر، وإنَّ أسفله لمُغْدِق، وإنَّه ليعلو ولا يُعْلى»[1].

وشهد الجنُّ بأنَّه: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وشهد له الَّذين آمنوا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦].

وشهد له المنصفون من أهل الكتاب: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وشهد أُولو العلم بأنَّه الحق: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

---

(١) رواه الحاكم في التفسير (٥٠٦/٢) وصحَّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، والبيهقي في دلائل النبوة (١٩٨/٢)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

شـــهد كلُّ هؤلاء لهذا الكتاب بأنَّه الحق، ومع هذا لـــم يؤمن أكثر الناس، وهذا أمر مؤسف: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

كلمة «النَّاس» في القرآن الكريم:

إنَّ القرآن كتاب عظيم، كتاب عالميٌّ، فلم يقل: أكثر العرب أو أكثر أهل الشرق، ولكن قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، وكلمة «النَّاسِ» ذكرت في القـــرآن الكريم مائتين وأربعين مـــرَّة، وأنا معنيٌّ بذكـــر أعداد الكلمات القرآنية، لأنَّها «مُؤشِّـــرات» تشـــير إلى محاور اهتمام القـــرآن، وما هي الأشياء الَّتي يُعنى بها ويكررها؛ لأن تكرار الأشياء في القرآن دليل على أنَّها من مهمَّات القرآن، ومن أهدافه تثبيتها والتعريف بها، ولفت الأنظار والقلوب إليها.

لماذا لا يؤمن أكثر الناس؟

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ رغـــم وضوح الحق وســـطوع شمســـه لا يؤمنون، وهذا مؤْسف حقًّا، وقد سجَّله القرآن على أكثريَّة الناس: أنَّهم ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وأنَّهـــم ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وأنَّهـــم ﴿لَا يَشۡكُرُونَ﴾، وأنَّهـــم ﴿لَّا يَعۡقِلُونَ﴾، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

الإيمان أمر اختياري:

وذمُّ القرآن لهذه الأكثريّة غير المؤمنة؛ يدلنا على شيء مهم، وهو أنَّ الإيمان أمر اختياريّ، أي أنَّ الإنسان في استطاعته أن يؤمن، كما أنَّ في اســـتطاعته أن يكفر، ولو كان الإيمان أمرًا إجباريًّـــا اضطراريًّا ما ذمَّ الله الَّذين لا يؤمنون، وما قال الله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠]؟!

QaradawiBooks.com

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٨]؟! ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٣٩]؟! هذه النداءات وهذه الإنكارات تدلُّ على أنَّ الإيمان أمر اختياري، وأول ما يطلب من الإنسان ممَّا يكلف به العقلاء أن يؤمن بالله ﷻ.

موانع الإيمان والهداية:

والإيمان هو التصديق والإذعان، وليس مجرَّد معرفة الحق، فكثير من النَّاس عرفوا الحق ولم يؤمنوا، وهذا هو ما نلحظه فعلا، وسجَّله القرآن نفسُه، وعرفناه من وقائع التاريخ، فكم من أناس عرفوا الحق واضحًا لائحًا بيِّنًا أمامهم، تلوح أنواره، ومع هذا لم يستجيبوا له، ولم يذعنوا له، ولم ينقادوا له لأسباب شتى:

منها: الكِبْر والعُلو، كالذين قال الله فيهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. وهكذا قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. هو العلو والاستكبار في الأرض الَّذي يمنع من الإيمان.

ومما يمنعه أيضًا: الحسد، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

والعصبية أحيانًا؛ فاليهود من بني إسرائيل كانوا يَعرفون أنَّ محمدًا ﷺ نبيٌّ، وكتبهم تُبشِّر به، وعلاماته واضحة، ولكنهم كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١]، أي: نؤمن بالكتاب الَّذي أُنزل على بني إسرائيل، أمَّا ما ينزل على بني

QaradawiBooks.com

إسماعيل فلا نؤمن به، وهذه عَصبيَّة كما قال جماعة المتنبئين والمرتدين: «كـذَّاب رَبِيعَةَ أحبُّ إلينا من صادقِ مُضَـر»[(١)]، فاليهود ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقـرة: ٩١]، عصبيَّة كما قال أبو جهل وغيره من مشـركي قريش: «تنافسنا نحن وبنو هاشم، أطعموا فأطعمنا، وسقَوْا فسـقينا، حتَّى إذا تحاذينا على الرُّكَب، وأصبحنا كفَرَسي رهان قالوا: منَّا نبيٌّ يوحى إليه»[(٢)]! وهذه العصبيَّة هي الَّتي جعلتهم يكفرون.

والتقليد الأعمى ممَّا يمنع من الإيمان أيضًا، فحينما نقرأ في رسالات الأنبياء وقصصهـم نجد: ﴿أَنَنْهَىٰكَ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ [هـود: ٦٢]، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقـرة: ١٧٠]، وهذا التقليـد الأعمى للآباء والأجداد حينًا، أو للسـادة والكبراء حينًـا: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧] يمنع من الإيمان.

كما يمنع منه حُبُّ الدنيا أحيانًا، فالإنسان قد ينتفع من وراء الكفر، مثل: كثير من الأحبار والرهبان الَّذين كانوا يأكلون أموال النَّاس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله.

ومن حُبِّ الدنيا: حـب الملك، فقد رأينا هرقـل حينما جاءه كتاب رسول الله ﷺ، وأراد أن يستوثق من هذا النبي، وكان يتوقع ظهور نبي،

(١) تاريخ الطبري (٢٨٦/٣)، نشر دار التراث، بيروت، ط ٢، ١٣٨٧هـ.

(٢) تفسير البغوي (١٥٧/٢)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ.

QaradawiBooks.com

فجاء بأبي سفيان ومن معه ـ وهو من بلاد العرب ومن نفس بلدة محمد ﷺ ـ وسأله أسئلة في غاية الدقّة والروعة، ليعرف منه: أهو صادق أم كاذب؟ ومن قرأ هذا الحديث في أوائل صحيح البخاري عجب من أسئلة هذا الرجل، وقد عرف من هذه الأسئلة أنَّه على حق، وجمع رجالَ دينه ورجالَ كهنوته، وعرض عليهم الأمر، «فحاصوا»[١] حيْصَة حُمُرِ الوحش، وهاجوا عليه، فحينما وجد أنَّ الأمر سيتفلت منه ويفلت الزمام من يده تراجع، وقال: إنَّما أردتُ أن أختبر ثباتكم على دينكم، وغلَّب حُبَّ ملكه على الإسلام فذهب بإثمه وإثم رعيَّته[٢].

وهناك عوامل شتى تجعل النَّاس لا يؤمنون بالحق؛ والحق أمامهم بيِّن المعالم، واضح القسمات: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

وقفتان في تفسير الآية:

وأحبُّ قبل أن أنتقلَ إلى الآية الثانية أن أذكر أمرين يتعلقان بالآية الأولى: الأمر الأول أثاره بعض المفسِّرين القُدَامى، والأمر الثاني أثاره بعض المعاصرين، وكلا الأمرين يتعلق بالأحكام والفقه، وهذا يدلنا على أنَّ الآيات الَّتي تتعلق بالأحكام ليست هي الآيات المحصورة في خمسمائة آية أو نحو ذلك، وتتحدَّث عنها كتب تفسير آيات الأحكام.

---

(١) الحَيْص: العُدول والهرَب مِنَ الشَّيْءِ. النهاية في غريب الحديث، مادة (ح. ي. ص). وحاصوا: نفروا وكروا راجعين.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

هل الآية تنفي القياس؟

فقد وقف بعض المفسِّرين عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾، وقالوا: هذه الآية تنفي القياس والاستدلالَ به، واعتبارَه أصلًا يعوَّل عليه ويرجع إليه في الأحكام، لأنَّ الآية بهذه الصيغة حصرت الحق فيما أنزل من عند ربنا ﷻ، والقياس ليس أصلًا منزَّلًا، وإنَّما هو رأي اجتهادي من أهل الاجتهاد، فإذن قد خرج عن دائرة الحق، هكذا قال من قال من المفسِّرين الَّذين يهتمون بأمور الفقه في الآيات.

والواقع أنَّ هذا الاستدلال لا يستقيم ولا يُسلَّم لهؤلاء، حتَّى وإن قلنا: إنَّ الحصر هنا حصر حقيقيّ، مع أنَّه قد يقال: إنَّه حصر إضافي وليس حقيقيًّا، لأننا نقول: إنَّ الَّذي أنزل من الله ﷻ، وهو القرآن يدلُّ على القياس كما يدل على غيره بالتَّبَع، فالقياس جاء ضمن آيات القرآن من مثل: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]. والاعتبار: الانتقال من حادثة إلى حادثة؛ لتُعطَى الثانية حكم الأولى، من إعطاء النظير حكم نظيره، إلى آخر ما استدلَّ به أهل القياس من القرآن الكريم، فالقياس إذن مُتضَمَّن في القرآن، وهكذا يقال في نفس الأدلة الأخرى، مثل: الإجماع، ومثل السُّنَّة النبويَّة نفسها، فهذا يقال فيها أيضًا، فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ هو القرآن، والسنَّة ليست منزَّلة، فهل هي خالية عن الحق؟ نقول: لا؛ لأنَّ القرآن دلَّ على السنة، كما دلَّ على الإجماع، كما دلَّ على القياس، حينما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وحينما قال: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، وحينما قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فاعتُبر هذا أيضًا من الحق الَّذي جاء به القرآن.

QaradawiBooks.com

الكتاب والميزان:

على أن هناك أمرًا لم يذكره المفسِّرون القدامى، وهو أن ما أنزل الله تعالى أمران: أنزل الله تعالى الكتاب، وأنزل معه الميزان، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧]، وقال أيضًا: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

فما الميزان إذن؟ ليس الميزان هو ما توزن به الخضروات والفواكه وهذه الأشياء، فالأمر أكبر من هذا، فالميزان الَّذي قرنَه الله بالكتاب: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾، وقرَنه برفع السماء في سورة الرحمن: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩]. ليس ميزانًا ماديًّا حسيًّا من حديد أو غير ذلك، ولكنَّه ميزان معنوي تُوزن به الأفكار والأعمال والقيم، فهذا هو الميزان الَّذي يدخل فيه القياس، وكلُّ نظر صحيح يقوم على اعتبار عقلي صحيح، فهو كما يقول العلَّامة ابن القيِّم: «هما في الإنزال أخوان» الكتاب والميزان[1]، فعلى هذا يدخل القياس ضمن ما أنزل الله، لأنَّ الله أنزل الكتاب بالحق، وأنزل الميزان بالحقِّ أيضًا، وهذه هي القضيَّة الأولى.

هل تدل الآية وأمثالها على إلغاء رأي الأكثريَّة؟

أمَّا القضيَّة الثانية: من قضايا الأحكام الفقهية الَّتي أثيرت في عصرنا حول قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، ومثلُها: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

(١) إعلام الموقعين (٢٤٩/١)، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

QaradawiBooks.com

﴿ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣، ويوسف: ٣٨، وغافر: ٦١]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧، ويوسف: ٢١، ٤٠، ٦٨، النحل: ٣٨] إلى آخر ما جاء من هذا النوع، فقد استدلَّ بعض النَّاس بمثل هذه الآيات على أنَّ الأكثريَّة لا اعتبار لها في أيِّ أمر من الأمور، وعلى هذا أنكر من أنكر نظامَ التصويت بالأغلبيَّة في القضايا المصلحيَّة والقضايا الاجتهاديَّة، وقال من قال: هذا نظام غربيّ، هذا نظام مستورَد، هذا نظام ديمقراطي لا نعرفه ولا يعرفنا!

الاستدلال الخاطئ في وضع النص في غير موضعه:

وهكذا بهذه السهولة وهذه البساطة، ردَّ أولئك المتسرِّعون هذا النظام الَّذي يقوم على اعتبار رأيِ الأغلبيَّة بمثل هذه الآيات، وهذا استدلالٌ خطأ، فالمشكل ليس في الاستدلال بالقرآن والسُّنَّة، فكثيرٌ من النَّاس يستدلون بالقرآن ويستدلون بالحديث، والحديث الصحيح، ولكن كثيرًا ما يُوضع النص في غير موضعه، أن يستدلَّ بالنص على ما لم يُسَق له النص، وهنا الآفة الكبيرة: وضع النصوص في غير موضعها، وأحيانًا يكون هذا عن غفلة، وأحيانًا يكون عن عمد وسوء نيَّة، وهذا ما نسمِّيه «تحريف الكلم عن مواضعه».

فالآيات الَّتي ذمَّت أكثريَّةَ الَّذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أو ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ أو ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، جاءت في قضايا العقيدة، ولكن في القضايا الَّتي تتعلَّق بمصالح النَّاس وتتعلق بالأمور الاجتهاديَّة الَّتي تتَعدَّد فيها وجهات النظر ما بين مُؤيِّد ومعارض، أنختار هذا رئيسا أم نختار ذاك؟ زيدًا أم عمرًا أم بكرًا؟

كيف نفضِّل إذا تساووا في المزايا أو كان لكُلٍّ منهم مزيَّة تقابل مزيَّة الآخر؟

QaradawiBooks.com

ليس لنا إلَّا أن نرجِّح بالأغلبيَّة، وإذا كانت مصلحة معيَّنة مختلف عليها: أندخل الحرب أم لا ندخلها؟ أو كانت قضية من القضايا الَّتي يختلف فيها الناس، فلا بدّ من ترجيح، وإلا فلن نستطيعَ أن نُرجِّح بغير مُرجِّح، فليست كل القضايا يحكم فيها النص كما يظنّ بعض الناس، فهناك أشياء سكت عنها الكتاب والسُّنَّة، وهي منطقة العفو الَّتي جاءت تسميتها في الحديث هكذا: «**ما أَحَلَّ اللهُ في كتابه فهو حلالٌ، وما حرَّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عَفْو، فاقبلوا من الله عافيته؛ فإنَّ اللهَ لم يكنْ لينسى شيئًا**»[1] من حديث أبي الدرداء.

وحديث: «**سكت عن أشياء رحمةً بكم غيرَ نسيانٍ، فلا تبحثوا عنها**» الَّذي رواه الدارقطني، وهو من أحاديث الأربعين النوويَّة أيضًا[2].

تفاوت أنظار أهل الاجتهاد في قضايا المصالح:

هذه المنطقة الَّتي سكتت فيها النصوص أو اختلفت فيها النصوص، وتفاوتت فيها أنظار أهل الاجتهاد، وفيها قضايا المصالح، وما أكثرها، حتَّى إنك لو رجعت إلى الفنيين فيها لوجدتهم يختلفون، وقد رأينا الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يختلفون في بعض القضايا النظريَّة، ويختلفون أيضًا في القضايا العمليَّة كقضية أسرى بدر، فقد كان منهم من

(١) رواه البزار (٤٠٨٧) وقال: إسناده صالح. والحاكم في التفسير (٣٧٥/٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والبيهقي في الضحايا (١٢/١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٩٤): رواه البزار والطبراني في الكبير وإسناده حسن ورجاله موثقون.

(٢) رواه الدارقطني في الرضاع (٤٣٩٦)، والطبراني (٢٢١/٢٢)، والبيهقي في الضحايا (١٢/١٠)، وحسنه النووي في الأربعين النووية، الحديث الثلاثون، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١٥٠/٢): حسنه أبو بكر السمعاني في أماليه. عن أبي ثعلبة الخشني.

QaradawiBooks.com

يميل إلى الشِّـدَّة مثل عمر، ومنهم من يميل إلـى اللين، مثل أبي بكر، فماذا نصنع في مثل هذا؟

بعض النَّـاس يقول: نحن مـع الحق، ولكن ما هـو الحق في هذه القضايا؟ ليس هناك شيء اسمه الحق في القضايا الاجتهادية، فكلٌّ واحد يرى أنَّ رأيه هو الحق وهو الصواب.

وهنا نقول: رأي الاثنين أقرب إلى الصواب مـن رأي الفرد، ورأي الثلاث أقرب إلى الصواب من رأي الاثنين. وفي الفقه نقول: هذا الرأيُ أولى وأرجح؛ لأنَّـه رأي الجمهـور إذا لم نجد مُرجِّحًـا آخر، والإمام الغزالـي ذهب في بعض كتبـه وهو «الاقتصـاد في الاعتقـاد» إلى أنَّ الترجيح في بعض الأحيان يكون بالكثرة[1].

قاعدة الترجيح بالكثرة:

وسيدنا عمر رضي الله عنه قعَّد هذه القاعدة، وقد رأينا النبي ﷺ حينما استشار أبا بكـر وعمـر، في مسـألة الأسـرى قـال: «**لـو اتَّفَقْتما علـى رأيٍ ما خالفتُكما**»[2] والمعنى: أنَّهما سيكونان صوتين والنبيُّ ﷺ صوت واحد.

وفي غزوة أحد كان النبي ﷺ وكبـار الصحابة يرون عدم الخروج إلى القوم والبقاء في المدينة يحاربون مِن داخلِها، ولكنَّ شباب الصحابة ـ وهم الأكثريَّة ـ أبَوا إلَّا أن يخرجوا لقتال الأعـداء، ووجدوا أنَّه لا يليق بهم أن يظلوا في المدينة حتَّى يدخل عليهم هؤلاء، فنزل الرسول ﷺ على رأيهم.

---

(١) فضائح الباطنيـة للغزالي صـ ١٧٣، تحقيق عبد الرحمن بدوي، نشـر مؤسسـة دار الكتب الثقافية، الكويت.

(٢) رواه أحمـد (١٧٩٩٤)، وقال مخرِّجوه: إسـناده ضعيف. وقال الهيثمي فـي مجمع الزوائد (١٤٣٥٥): رواه أحمد، ورجاله ثقات إلا أن ابن غنم لم يسمع من النبي ﷺ.

QaradawiBooks.com

صحيحٌ أنَّه لم يَعُد؛ لأنَّ الأمـــر كان واضحًا بأنَّهم الأكثريَّة، والعَدُّ جاء في العدد المحدود، وهو ما صنعه سيِّدنا عمر حينما جعل الشورى في ستَّة من كبار الصحابة الَّذيـــن تجتمع الأُمَّة على واحدٍ منهـــم إذا وافقوا عليه، وهؤلاء الســـتَّة ممَّن تُوفي رســـول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، ومن العشـــرة المبشَّرين بالجنة، ومن السابقين من المهاجرين، فوضع عمر نظامًا لهم: إذا اختار خمســـةٌ واحدًا منهم، فيجب أن يخضع الواحد للخمسة، وإن رفض وتمرَّد تُضـــرب عنقه، وإذا أربعة اختـــاروا وعارض اثنـــان فيُؤخذ باختيار الأربعة، وإذا اختار ثلاثـــةٌ واحدًا، وثلاثة واحدًا وتســـاوت الكفتان، أخذ بمُرجِّح من الخارج، وهو عبد الله بن عمر، فإذا لم يقبلوا عبدَ الله بن عمر، فيؤخذ باختيار الثلاثة الَّذين فيهـــم عبد الرحمن بن عوف، فاعتبر لصوت عبد الرحمن بن عوف ميزة ترجيحيَّـــة، كأنَّ صوته بصوتين، وهذا ما جعل عبد الرحمن بن عوف ينزع نفســـه من هذا الأمر، ويقـــول: لا أريده حتَّى يســـتطيع أن يجمع النَّاس على أمر، وهـــذه العمليَّة ـ كما نـــرى ـ عمليَّة تصويت سنَّها سيِّدنا عمر، وقد أُمرنا أن نتَّبع سنة الراشدين: «**عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين من بعدي، عَضُّوا عليها بالنواجذ**»[1].

فهذا هو النظام الإســـلامي، وقد جـــاء في الحديث: «**اتِّباع السَّـــواد الأعظم**»[2] وهذا الحديث حسَّـــنه بعض العلماء وصحَّحه بعضهم، وورد من عدَّة طرق.

---

(١) رواه أحمد (١٧١٤٢)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح بطرقه وشـــواهده. وأبو داود في السُّنَّة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٦)، وابن ماجه في المقدمة (٤٣)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٠)، عن العرباض بن سارية.

(٢) رواه عبد الله بـــن أحمد في زوائد المســـند (١٨٤٥٠)، وقال مخرِّجوه: إســـناده ضعيف. عن النعمان بن بشير.

QaradawiBooks.com

وليس هناك دليل للَّذين قالوا: إنَّ الأكثريَّة لا معنى لها، ولا يقوم عليها أمر؛ لأنَّ الله ذمَّ الأكثريَّة، فهذا في موضع، وهذا في موضع آخر، ولا تخلط الأمور بعضها ببعض.

والقول بأنَّ هذا النظام مستورد لا يُسلَّم؛ لأنَّ هذا النظام أساسه إسلامي كما رأينا؛ على أنَّه لا مانع من استيراد بعض الأمور النافعة إذا لم يكن الإسلام ينكرها، وإذا لم تخالف مبدأً من مبادئ الإسلام، لا في عقيدته ولا في شريعته، ولا في أخلاقه ولا في قِيمه، ولا في غير ذلك، فلا مانع من الاقتباس، وقد اقتبس المسلمون الأوائل ما ينفعهم، إذا كان فيما نقتبس مصلحتنا وليس فيه مخالفةٌ لشريعتنا، وفي هذه الحالة ندخله ضمن نظامنا الإسلامي فيصبح جزءًا من النظام الإسلامي، ويفقد جنسيَّته الأولى، ويلتحم بالنظام الإسلامي، ويأخذ في هذه الحالة الصبغة الإسلاميَّة والروح الإسلاميَّة[1].

* * *

(١) انظر كتابنا: فتاوى معاصرة (٢/٧٠٤ ـ ٧٢١)، فتوى: الإسلام والديمقراطية، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، وكذلك كتابنا: من فقه الدولة في الإسلام صـ ١٣٠ ـ ١٤٧، نشر دار الشروق، القاهرة، ط٦، ٢٠٠٩م.

QaradawiBooks.com

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]

عناية القرآن بالكون:

يقول بعض علماء الإسلام: إنَّ هناك مصحفين: أحدهما ناطق، والآخر صامت، فالناطق هو القرآن، والصامت هو الكون.

المصحف الأول: القرآن، آياته مقروءة مسموعة، والمصحف الثاني: الكون، آياته منظورة مشهودة. وكلا المصحفين يدلُّ على الله، ويهدي ويشدُّ العقول والقلوب والأبصار والبصائر إلى الله.

القرآن يهدي إلى الله بما اشتمل عليه من آيات معجزة، بيَّنت الحق من الباطل، وميَّزت الهدى من الضلال.

والكون كذلك يهدي إلى الله بكل ما فيه: أرضه وسمائه، إنسانه وحيوانه، نباته وجماده، من الذرة الصغيرة إلى المجرَّة الكبيرة، ويأخذ بالعقول والقلوب لتقف بين يدي الله الكبير المتعال.

كلُّ ما في هذا الكون دالٌّ على الله تبارك وتعالى، كما يقول ذلك القائل:

تأمَّل سطورَ الكائنات فإنها ... من الملأ الأعلى إليك رسائل
وقد خُطَّ فيها لو تأمَّلت سطرها ... ألا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطل[1]

(١) ذكرها من غير نسبة: ابن القيم في التبيان في أقسام القرآن صـ١٦٧، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر دار المعرفة، بيروت.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ولهذا نرى الآيــة الأولى حينمــا تحدَّثت عن المصحــف الناطق، تحدَّثت الآية الثانية عن المصحف الصامت عن الكون، وبدأت بالسماء أعظم ما في هــذا الكــون: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]، وخلق السماوات أكبر من خلق الأرض؛ لهذا بدأ الله بها.

اسم الذات الإلٰهيَّة (الله):

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾. «الله» اسم للذاتِ الإلٰهيَّة، عَلَم على الذات المقدَّسة؛ ذاتِ الخالق ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣]، عَلَمٌ على الإلٰه في اللغة العربيَّة.

وقد ذكرت في القرآن الكريم كله ألفين وستمائة وسبعًا وتسعين مرَّة. كما في «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» على اختلاف تشكيلها بالضمِّ أو بالفتح أو بالكسر.

فإذا أضفنا إليها مائة وثلاث عشرة مرَّة، وردت فيها في البسملة. كان المجموع ألفين وثمانمائة وعشر مرات. وهذا لفظ الجلالة صريحًا، فإذا نظرنا إلى أنَّه يذكر مع صفات أخرى وأفعــال، مثل هذه الآية الَّتي معنا ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ [الرعد: ٢]، ومثل آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. حيــث ذُكِر لفظ الجلالة (الله) مرَّة واحدة فيها. وذُكر ظاهرًا ومستترًا سبع عشرة مرَّة خلالها أيضًا على نحو: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾. والهــاء فــي: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾، وفــي: ﴿لَّهُۥ﴾، وفــي: ﴿عِندَهُۥٓ ﴾، وفي: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ وهكذا.

QaradawiBooks.com

فإذا ذُكر الله تعالى قريبًا من ثلاثة آلاف مرَّة. فكيف بذكره تعالى بأسمائه الأخرى وأفعاله، وبالضمائر الظاهرة والمستَتِرة؟!

إنَّه الشيء الكثير؛ وذلك أنَّ هذا القرآن إنَّما نزل أولًا ليصل النَّاس بحبل الله، ليقيم هذه الصلة بين الإنسان وربه، فليس هناك فجوة ولا جفوة بين الله تعالى وعباده، وهذا من أعاجيب ذلك القرآن.

فلا يعرف فضل القرآن إلَّا من قرأ الكتب الأخرى، مثل ما يسمَّى بالتوراة، أسفار العهد القديم، الَّتي لا تكاد تُحِسُّ بوجود الله تعالى فيها إلَّا بين الفينة والفينة. فهي مشحونة بالحديث عن بني إسرائيل، وعن ملك بني إسرائيل، ومَجْد بني إسرائيل، وأخبار بني إسرائيل، وقبائل بني إسرائيل، وتعداد بني إسرائيل، أمَّا الله ولقاؤه وحسابه وجزاؤه، فشيء بسيط جدًّا.

رفع السماوات بغير عمد:

إنَّ القرآن حافلٌ بالثناء على الله، وبتعظيم الله ﷻ، وبتمجيد الله ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

هذا السقف المرفوع، السقف المحفوظ، هذا البناء الربَّاني من فوقنا. والسماء في اللغة: هي كلُّ ما علاك، حتَّى السقف يمكن أن يكون سماء كما جاء في سورة الحج: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]، فقوله: ﴿بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: بحبل إلى السقف فيخنق نفسه، وهل هذا يريحه وينتهي الأمر؟!

وتطلق السماء أيضا على السَّحاب الَّذي ينزل الله ﷻ منه الماء.

QaradawiBooks.com

وهناك السماوات العُلَا كما جاء في سورة طه: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طه: ٤].

وقد ذُكرت سَمَاوات منكرة خمس مرات. وذكرت السماوات مُعرَّفة مائة وخمسًا وثمانين مرَّة.

ولكن: ما هي السماوات؟

بعض النَّاس في عصرنا من المتأوِّلين للقرآن على غير وجهه ممَّن فُتنوا ببعض ما عرفوا من العلم الحديث حاولوا أن يجعلوا السماوات السبع تلك الكواكب السيَّارة المرتبطة بمجموعتنا الشمسية هذه، ومن هؤلاء: الشيخ جمال الدين القاسمي في تفسيره «محاسن التأويل»[(١)]، واتجه إلى ذلك أيضًا الشيخ عبد القادر المغربي في تفسيره «جزء تبارك» من القرآن.

وأنا أعتقد أنَّ السماوات السبع شيء أعظم من هذه الكواكب، فقد عرفنا في عصرنا أنَّ المجموعة الشمسيَّة واحدة من ملايين المجموعات، تحتويها المجرَّة الَّتي نحن جزءٌ منها. وهذه المجرَّة واحدة من ملايين المجرَّات الأخرى.

وهذا يدلُّ على أنَّ هذا الكون عظيم لا يعلم سَعَته إلَّا الله ﷻ، ونحن نقول حين نرفع من الركوع ـ كما علَّمنا رسول الله ﷺ ـ: «**ربَّنا لك الحمد، ملءَ السماوات، وملءَ الأرض، وملءَ ما بينهما، وملءَ ما شئتَ من شيءٍ بعد**»[(٢)].

(١) محاسن التأويل (٢١٠/١، ٢١١)، تحقيق محمد باسل، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

(٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٧٦)، عن ابن أبي أوفى.

QaradawiBooks.com

وإذا كان مُلكُ الله عظيمًا، وكانت السماوات العُلا هي أعظم ما في هذا الملك بعد العرش والكرسي ـ وهما في الجهة الفوقيَّة أيضًا ـ فلا نستطيع أن نقبل تأويل من تأوَّل السماوات السبع بأنَّها الكواكب السيَّارة هذه السبعة، أو الأفلاك السبعة ـ كما في التفاسير القديمة ـ وأنَّ الكرسي هو الفلك الثامن، والعرش هو الفلك التاسع جريًا وراء علم الفلك اليوناني القديم؛ الَّذي جاء علم الفلك الحديث وأثبت أنَّ هذا كله خرافات، ولذلك لا ينبغي أن ينشغل بها من يريد أن يفهم كتاب الله ﷻ. ولا ينبغي أن نقع في مثلها في عصرنا.

السماوات هي هذا الكون العلويُّ العظيم من فوقنا، لا نعرف منه إلَّا القليل. ترى هل ما نعرفه من هـذه الكواكب والنجـوم الَّتي تصل إلينا أشعَّتها بعد ملايين السنين ـ كما يقول الفلكيُّون ـ هل هو السماء الدنيا؟ والله تعالى يقول: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗا﴾ [فصلت: ١٢]، ويقول: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ [الصافات: ٦، ٧]، هل كانت هذه الكواكب والنجوم هي زينة السـماء الدنيا؟ وهل بعد هذه السماء الدنيا سماوات أخرى لا نعلمها؟ قد يكون، ولا نخوض في هذا؛ لأنَّا لم نُؤْتَ من العلم إلَّا قليـلًا. ورحم الله امرأ عرف حدَّه فوقف عنده. ومن سعادة جَدِّك وقوفك عند حَدِّك ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤].

المهمُّ أنَّ هذه السـماوات العُلا، وهذا البناء العظيم رفعه الله تعالى بغير عمد ترونها. ومعنى رفعها أي: خلقهـا مرفوعة. وليس معناها أنَّها كانت خفيضة فرفعها، ولكن ابتدأها وأنشأها مرفوعة هكذا.

﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ كيف رفعت بغير عمد؟

العرب عرفوا الخيام، وهذه الخيمة الصغيرة ما كانوا يستطيعون رفعها بغير عمد في أطرافها وفي وسـطها؛ فكيف بهذه الخيمة الكبرى؟ بهذه

QaradawiBooks.com

السماوات.. كيف رفعها الله بغير عمد ترونها؟ ترى هل النفي هنا للموصوف والصفة معًا؟ أي ليس هناك عمدٌ بالمرة: مرئيَّة، أو غير مرئيَّة، أم أنَّ النفي للصفة؟ وهناك عمد غير مرئيَّة؟

و«عَمَد»: جمع عِماد وعمود. فهل هناك أعمدة يقوم عليها هذا البناء العلوي العظيم ولكنَّنا لا نراها؟ هذا ما يفسِّره العلم الحديث بأنه القوى الجاذبة الَّتي تمنع تلك الأجرام العظيمة أن تتصادم أو تتهاوى أو تتساقط، وتحفظ بعضها أن يرتطم ببعض بالجاذبيَّة والقوى الطاردة.

فهل هذه القوى هي العمد غير المرئيَّة؟ يمكن أن يكون هذا، فالله هو الَّذي ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] وقد تساءل رائد الفضاء الروسي «جاجارين» حينما صعد إلى الفضاء ونظر إلى الأرض من بُعد، فقال: ما أجملها، مَنْ علَّقها! الَّذي علقها هو الله ﷻ، الَّذي أمسكها أن تزول وتسقط. والسماوات أعظم من الأرض، وقد رفعها الله بغير عمد ترونها.

استواء الله على عرشه:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كيف استوى على العرش؟ هناك معركة كلاميَّة لا نريد أن ندخل فيها بين السلف والخلف في معنى الاستواء. والمعنى واضح فهمه الصحابة دون أن يسألوا عنه. فالله استوى على عرشه، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يعني أمر الملك والملكوت، ينظم هذا الكون. هكذا فهم الصحابة الاستواء على العرش، يعني انفراد الله ﷻ بهذا الملك، وتفرده بالتدبير ﷻ من فوق عرشه.

وجاء بعد ذلك من جاء، وجعل من هذه القضيَّة معركة بين السلف والخلف، بين من يُؤول ومن لا يؤول. ونحن لا نحب في أمور

QaradawiBooks.com

الغيبيّات المتعلقة بالله تبارك وتعالى، أو بالدار الآخرة، أن نخوض في تفاصيلها، أو نبحث عن كُنهها. بل نقول كما قال السلف: استوى استواء يليق بذاته.

ومذهب السلف هو الراجح عندنا في هذه القضايا؛ لأن قضايا الألوهية أكبر من عقولنا، فلا ينبغي أن نبدِّد طاقات عقولنا فيما لا تستطيع أن تصل إليه أو تعرف حقيقته، وهي الَّتي لم تصل إلى كل حقائق الوجود المادي بعد. فالعلم يقول: إننا لم نعرف من حقائق الكون المادي إلَّا نسبة ضئيلة (٣٪). والنسبة الكبرى (٩٧٪) الَّتي يسمُّونها «الأعماق السوداء» لا نعرف عنها شيئًا، والله يقول: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]. وما لا نبصر أكثر. فكيف نطمع أن نعرف الله ﷻ ؟!

إنَّنا نؤمن به دون أن نبحث في التفاصيل أو الكيف، والسلف كانوا يؤمنون بهذا، دون تكييف ولا تمثيل، كما ورَدَ ذلك عن أمِّ سلمة وعن رَبِيعة وعن الإمام مالكٍ حينما سئل عن الاستواء، فقال: «الاستواءُ غيرُ مجهول، والكيف غيرُ معقول، والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعة»[1]؛ لأنَّ السؤال عن ذلك يفتح بابًا من أبواب الفتنة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]. لهذا فنحن نوفِّر الطاقة العقليَّة للبحث فيما يفيد، ولا نبحث في هذه الأمور ولا نطيل فيها.

(١) رواه الدارمي في الرد على الجهمية (١٠٤)، تحقيق بدر بن عبد الله البدر، نشر دار ابن الأثير، الكويت، ط ٢، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

ومن ناحية أخرى؛ فقد اتفق الجميع ـ سلف وخلف ـ على أن ذاتَ الله تعالى ليست كسائر الذوات. والمفروض أن نقول: إنَّ صفاتِ الله تعالى ليست كسائر الصفات، وأفعال الله تعالى ليست كسائر الأفعال؛ فلا نقيس الغائب على الشاهد؛ لأنَّه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ثم نحن لا نأمن إذا دخلنا في باب التأويل، وخضنا لجَّته أن نقول على الله بغير علم. وإذا سلَّمنا كان ذلك أسلم لنا. فلو قال الله ﷻ: ماذا قلتم في شأني؟ نقول: آمنا بما وصفتَ به نفسك، وبما وصفك به رسولك ﷺ. وهكذا نخرج من العقدة. ولكن لو أوَّلنا ربما سئلنا: من أين لكم ما قلتم؟ كيف قلتم عليَّ ما لا تعلمون؟ فلا نجد جوابًا.

ثم إنَّ الجميع قد اتفقوا على أن مذهب السلف أسلم. ومعنى هذا أن مذهب الخلف الَّذين أوَّلوا لا يخلو من خطر، والإنسان في باب العقائد لا يعدل بالسلامة شيئًا، ولهذا نترك الدخول في مَعْمعَة التأويل.

فهناك أشياء يتكلَّف تأويلها، كأن تقول اليد معناها القدرة أو النعمة، فما معنى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] على هذا التأويل؟ لا نجد إلَّا نوعًا من التكلف المرذول.

ثم إنَّ كثيرًا من الَّذين أوَّلوا انتهى في أواخر عمره إلى مذهب السلف في عدم التأويل. كإمام الحَرَمَيْن في «رسالته النظاميَّة»، والغزالي في كتابه: «إلجام العوامِّ عن علم الكلام»، وإمام المؤولين الفخر الرازي الَّذي دافع عن التأويل وكتب فيه كتبًا، ثم انتهى في كتابه «أقسام الذات» إلى قوله: «لقد تأمَّلتُ المناهج الفلسفيَّة، والطرق الكلاميَّة، فوجدتها لا تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا. ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن.

QaradawiBooks.com

اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، واقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]»[١].

وكذلك الإمام أبو الحسن الأشعري أوَّل في مطلع حياته، ثم رجع عن التأويل في كتابه: «الإبانة في أصول الديانة»، وكتابه «مقالات الإسلاميِّين»، وفي «رسالته إلى أهل الثَّغْر»، وانتهى إلى مذهب الإمام أحمد، وهذا أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ.

ثم إنَّ الَّذين أوَّلوا لا بد لهم في النهاية أن يتفقوا مع الآخرين كما قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني في بعض كتبه: إنَّ الَّذين يؤولون الاستواء بالاستيلاء لا بدَّ لهم أن يؤولوا الاستيلاء أيضًا. إذ كيف يكون استيلاء الله تبارك وتعالى؟ ويذكرون في هذا بيتًا من الشعر يقولون: إنَّه منحول[٢]:

قَدِ استوى بِشْرٌ على العراقِ من غَيْرِ سَيْفٍ ولا دَمٍ مُهرَاقِ

فهل استواء الله تعالى على عرشه كاستواء بشر على العراق؟ لا يمكن أن يقول ذلك أحد. فهو استيلاء ليس كاستيلاء المخلوقين. وبهذا يتَّفق الفريقان.

مذهب السلف في الصفات:

فنحن إذن نأخذ بمذهب السلف، ولا نخوض في لُجَّة التأويل. ومذهب السلف ليس كما يفهمه العوامُّ أو يُصوِّره بعض الغلاة ممَّن

(١) جزء من وصيته التي أوصى بها لما احتضر لتلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصبهاني، ذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥٠١/٢١)، تحقيق مجموعة بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، نشر مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٢) وقد عزي للشاعر الأخطل، وهو نصراني، كما في البداية والنهاية (٢٤١/١٢)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر دار هجر للطباعة والنشر، ط ١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

يدَّعون السلفية، الَّذين يقول بعضهم: الاستواء هو الجلوس! فهذا لا يمكن أن يقوله سلفي يعرف معنى السلفية؛ لأن هذا تشبيه، والتشبيه ممنوع.

أمَّا السلف فيقولون: نثبت لله ما أثبته لنفسه؛ بلا تكييف ولا تمثيل، ولا تشبيه ولا تعطيل، كما يقول تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وأحبُّ أن أضيف أننا إذا رجَّحنا مذهب السلف؛ فليس معنى هذا أننا نُضلِّل الآخرين ممن أوَّلوا أو نكفرهم. فبعضهم من أعلام الأمة، وما كانوا يقصدون إلَّا تنزيهَ الله تبارك وتعالى، وشرح الإسلام للعقليِّين من الناس، فوجهتهم حسنة ونيَّتهم طيِّبة. ولا ينبغي أن نرميهم بالكفر أو بالفسوق أو بالإثم. ولكن نقول: إنَّ مذهب السلف هو الأرجح والأسلم هنا.

وقد ذهب المحقِّقون من علماء المسلمين ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم إلى أن من اجتهد في فهم دين الله وفي طاعته في المسائل العلميَّة الأصوليَّة والعمليَّة الفرعيَّة فهو دائرٌ بين الأجر والأجرين. أي: أنَّه مأجور وليس مُجرَّد معذور، فإنْ أخطأ فله أجرٌ واحد، وإن أصاب فله أجران[1].

ما العرش؟

بالغ بعضهم وقال: ليس هناك عرش، ولكنَّه كناية، كما نقول: استوى الحاكم على سرير الملك، ولعلَّه لم يجلس عليه قطُّ، أو لعلَّه ليس له سرير ولا عرش، فهذه مبالغة مرفوضة. والشيء المؤكد أنَّ هناك عرشًا،

(١) مجموع الفتاوى (٣٤٦/٢٣، ٣٤٧)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد، المدينة النبويَّة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م، ومختصر الصواعق المرسلة لابن القيم صـ ٥٩٠، ٥٩١، تحقيق سيد إبراهيم، نشر دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

وقد ذكره الله تبارك وتعالى في أكثر من عشـــرين آيـــة من كتابه الكريم. وذكـــر أنَّ لـــه حَمَلـــة: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [غافر: ٧]، وهذا في الدنيا، وفي الآخرة: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقـــة: ١٧]، ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [الزمر: ٧٥]، فهناك عرش حقيقيٌّ.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]

تسخير الشمس والقمر ومعناه:

عُنِيَ القرآن بهذا الكون عناية بالغة، عُنِيَ بالسماوات.. بالأفلاك، بذلك العالم العلوي من فوقنا، وعُنِيَ فيه خاصة بالشمس والقمر، ورغم وجود نجوم أخرى لا عدَّ لها ولا حصر، ولا يعلمها إلَّا الله ﷻ، ومنها ما هو أكبر من الشمس بآلاف المرات وملايين المرات، ولكن الشمس؛ وهي نجم، والقمر؛ وهو كوكب: هما اللذان يهمان البشر، لهذا ذكر الشمس والقمر في القرآن الكريم أكثر من ثلاثين مرَّة، قد تذكر فيها الشمس منفردة، وقد يذكر فيها القمر منفردًا، وقد يذكران معًا، وقد ذكر تسخيرهما في ستَّة مواضع من القرآن، منها هذا الموضع الَّذي معنا: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾.

وهنا نتساءل: لمَ سُخِّر الشمس والقمر؟

إنَّهما سُخِّرا لنا. لم يذكر القرآن من المسخَّر له الشمس والقمر هنا في هذا الموضع، ولكنَّه ذكر في آيات أخرى أنَّ ذلك التسخير لنا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٢]. فكلُّ هذه مُسخَّرة لنا.

فما معنى التسخير إذن؟

التَّسخير سَوْقُ الشيء قهرًا إلى غاية يقصدها المُسخِّر، أو هو تذليلُ الشيء وسوقه بعصا القهر. فالشمس والقمر مُسَخَّران ذلَّلهما الله وسخَّرهما.

QaradawiBooks.com

الشمس ذلك النجم العظيم الَّذي هو أكبر من أرضنا بملايين المرات سخَّره الله ﷻ، وسخَّره لنا.. لمصلحتنا نحن البشر فوق هذه الأرض، نستفيد من ضيائها وحرارتها بالنهار، ونستفيد من ضيائها بالليل بانعكاسها على وجه القمر، فهي مُسَخَّرة لنا، وليست إلٰهًا ولا معبودًا كما صنع ذلك من صنع طوال التاريخ.

عبادة الأجرام السماوية:

فهناك أناسٌ عبدوا الشَّمس، وأناسٌ عبدوا القمر، وأناسٌ عبدوا الكواكب، وقد ضلَّت البشريَّة حينما عبدت الأشياء المسخَّرة لها.

ومشكلة البشريَّة ليست في الإلحاد، فالإلحادُ شيءٌ ضئيل جدًّا، ولهذا لم يأتِ الرسل ليقيموا الدليل على وجود الله، ولا ليقاوموا الإلحاد والجحود، إنَّما جاؤوا ليقاوموا الشِّرك، جاء كلٌّ منهم لقومه يقول: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وكانت مشكلة البشريَّة على مدار التاريخ في الشِّرك الَّذي أفسد العقول، وكان وكرًا عشَّشت فيه الأباطيل والخرافات، فعَبَدَ النَّاس مظاهر الطبيعة المختلفة، ومظاهر القوَّة، ومظاهر النفع.

ومن أجل ذلك عبدوا الشمس، وعبدوا القمر، وعبدوا الكواكب من قديم، فالمصريون القدماء عبدوا الشمس ـ الإلٰه رع ـ وأهل سبأ عبدوا الشمس. كما حكى عنهم القرآن على لسان الهدهد الَّذي ذهب إلى سبأ وعاد يقول: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۝ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ۝ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٢ ـ ٢٤].

QaradawiBooks.com

فالناس ضلُّوا بعبادة هذه الأجرام السماويَّة، ولا عَجَب إذا كان هناك من عبد الحجر، بل هناك من عَبَد إلٰهًا من العجوة فإذا جاع أكله؟ لا عجب إذا عبدوا الشمس الَّتي يرونها من بعيد.

وجاءت عقيدة التوحيد تحريرًا للإنسان من العبودية للأشياء أيًّا كانت هذه الأشياء، سواء كانت في عالم الأرض أو في عالم الأفلاك، وإعطاء الإنسان هذه الفكرة العظيمة الإيجابيَّة النافعة؛ إنَّ كلَّ ما في الكون مُسَخَّر للإنسان: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

فهذه الشمس، هذه الكتلة الملتَهبة الضخمة مُسَخَّرة للإنسان: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾، والقمر تابعٌ للأرض وهو أكبر تابع من توابعها، وله صلة بحياة الإنسان من ناحية المدِّ والجزر، والإضاءة في اللَّيل وغير ذلك.

فالقمر والشمس كلاهما مسخَّران من قبل الله تبارك وتعالى للإنسان.

جريان الشمس والقمر:

﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ يجريان، الشمس تجري، والقمر يجري، كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۞ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۞ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٨ ـ ٤٠]، وقد قال بعض أهل الفلك والجغرافيا الفلكيَّة في وقت من الأوقات: إنَّ الشمس ثابتة والأرضَ هي الَّتي تدور وتتحرك، ثم ثبت خطأ هذا، وتبين أنَّ الشمس تدور وتتحرَّك أيضًا بمعدل دورة كل خمسة وعشرين يومًا عند خطِّ الاستواء، وفي كل خمسة وثلاثين يومًا عند القطبين، فالشمس لها دورتها، والقمر له دورته أيضًا في كل سبعة وعشرين يومًا ونصف اليوم

QaradawiBooks.com

دورة، وأكملت بعد ذلك بيومين لتكون تسعة وعشرين يومًا ونصف اليوم، وهذه هي عدَّة الشهر القمري، فكلاهما إذن ـ الشمس والقمر ـ يدور ويتحرَّك، وكل ما في الكون يتحرَّك ولكنَّها حركة منتظمة، حركة في إطار ثابت وحول محور ثابت، فالحركةُ أصلٌ في الكون، والثبات أصلٌ فيه أيضًا.

﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ أي كلٌّ من الشمس والقمر يجري، واختار القرآن كلمة «يجري» مثل جريان الفلك: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥]. ومثل كلمة السَّبْح: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، كأنَّ هذا الكون بحر كبير تجري فيه الشمس، ويجري فيه القمر، وتسبح فيه النجوم في أفلاكها: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

الأجل المسمَّى:

﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الأجل المسمَّى هو الوقت المُحَدَّد، فهل تجري الشمس والقمر إلى وقت محدَّد هو إكمال الدورة أي: الشمس تكمل دورتها والقمر يكمل دورته، ثم يعود كلٌّ منهما إلى الدوران من جديد دون توقف؟ أم أنَّهما يدوران لأجلٍ مسمَّى، وهو الأمد الَّذي قدَّر الله تبارك وتعالى أن تنطفئ فيه الشمس، وأن يعتم أو يخسف هذا القمر؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ١ ـ ٣]؛ حينما يأذن الله تعالى بأن يطوي صفحة هذا العالم؟

يمكن أن يكون هذا الأجل هو القيامة عندما تقوم الساعة، ويمكن أن يكون الأجل المسمَّى للدورة المحدَّدة، ثم يعود كلٌّ منهما من جديد، ولعل هذا هو الأوفق؛ لأنَّ الله قال بعد ذلك: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ وهذا من جملة تدبير الله ﷻ: تسخير هذه الأجرام لمنفعة الإنسان.

QaradawiBooks.com

تدبير الله تعالى للأمور:

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: يُصرِّفه تصريف من يعلم أدباره وعواقبه، قد يعلم البعض أوائل الأمر ولا يعرف أواخره، يعرف الحاضر ولا يعرف المستقبل، يعرف شيئًا وتغيب عنه أشياء، ولكن الله ﷻ حينما يقضي أمرًا يعرف ما وراءه، يعرف العواقب القريبة والبعيدة.

فمثلًا حينما ألقى إخوة يوسُف أخاهم يوسُف في الجب؛ ما كانوا يعرفون ما سوف يحدث بعد ذلك، ولكن الله ﷻ يعلم أن يوسف سيلتقطه سيَّارة ويبيعونه إلى عزيز مصر، وسيكرم مثواه، وسيقع في محنة ويُلقى به في السجن، وسيخرج ويحدث له أشياء كثيرة، ويصبح عزيز مصر، ويجعل الله على يديه بعد ذلك إنقاذ مصر وما حولها من المجاعة الطاحنة والأزمة الخانقة الَّتي كادت تقتل الناس، فالله هو الَّذي يُدبِّر الأمر ويعلم العواقب.

ولذلك؛ فالتدبير من صفات الله تعالى ومن أسمائه، وقد اشتهر عند الناس: العبد يفكِّر والرب يدبِّر، أو العبد في تفكير والرب في تدبير.

وماذا يدبِّره؟ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، و«أل» في الأمر للاستغراق، فالأمر هو كل الأمر: أمر السماء وأمر الأرض، أمر الإنس وأمر الجنّ، أمر الإنسان وأمر الحيوان، وأمر النبات وأمر الجماد، وأمر العالم الأرضي وأمر عالم الأفلاك، أمر اليوم وأمر الغد، الأرزاق والآجال، الإماتة والإحياء، الإفقار والإغناء، الإسعاد والإشقاء، الإضحاك والإبكاء، الضر والنفع، والخفض والرفع، كلُّ شيء يُدبِّره الله تعالى ويُدبِّره على أحسن الوجوه وأحكمها؛ لأنَّه يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

QaradawiBooks.com

فعنده العلم، وعنده الحكمة، وعنده القدرة، فلماذا لا يُدبِّر الأمر على أحسن الوجوه، وهذا مقتضى ملكه وسلطانه؟! ولذلك جاءت مسألة التدبير هذه في القرآن الكريم ثلاث مرات، بعد الاستواء على العرش:

كما في سورة يونس: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣].

وفي سورة السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٤، ٥].

وفي آية الرعد الَّتي معنا: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾.

فالتدبير من صنعه سبحانه، ومن صفته، والله ﷻ ذكر ما يدل على اعتراف المشركين له بالتدبير: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]. هكذا حتَّى المشركون إذا سألتهم: من يُدبِّر الأمر؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

فالله هو المدبِّر، ولا نقول عن غيره: مُدبِّر الأمر، وإنَّما نقول فلان مدبِّرٌ أمرًا كما قال الله تعالى في سورة النازعات: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥] أي: أمرًا من الأمور هكذا بهذا التنكير، سواء قلنا: إنَّ هذه المدبِّرات هي الملائكة، أو قلنا: إنَّها الغزاة، أو خيل الغزاة؛ من باب المجاز. المهم أنَّه أمرٌ من الأمور، أمَّا مُدبِّر الأمر فهو الله ﷻ.

QaradawiBooks.com

وجوب تدبير الإنسان وتخطيطه:

لكن ليس معنى هذا أنَّ الإنسان لا عمل له ولا سعي له، وأن يترك كل شيء بزعم أنَّ الله هو المدبِّر كما قال ذلك بعض الصوفية، فبعضهم ألَّف كتابًا أسماه «التنوير في إسقاط التدبير»[1] وهذا في الواقع نوع من الغُلُوّ؛ لأنَّ تدبير الله ﷻ لا يعني أننا لا نفكِّر في أمورنا، ولا نُرتِّبها ولا نُخطِّط لها؛ بل يعني أن نخطِّط وندبِّر كما خطَّط سيِّدنا يوسف لمدة خمسة عشر عامًا: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٧ ـ ٤٩]، وكما خطَّط الرسول ﷺ للهجرة ورتَّب لها.

وهكذا؛ فالأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله، والسَّعيُ والتفكير وترتيب الأمور وَفْقَ سنن الله تعالى، لا ينافي التدبير من عند الله ﷻ.

تفصيل الآيات من الله تعالى:

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ يُدبِّر ويفصِّل الآيات: يبيِّنها مفصَّلة متميِّزة بعضها عن بعض، واضحة كالصبح لذي عينين.

وهنا نتساءل: أهي الآيات التنزيليَّة: آيات الكتاب المحكمة؟ ولعلَّ هذا هو الأقرب لأنَّه يتَّفق مع قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في مطلع السورة، فهل يُفصِّل الآيات حتَّى تقتنع العقول وتستنير القلوب، وتحيا الضمائر بهذه الآيات: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، وهنا: لتستبينَ سبيل المؤمنين.

---

(١) لابن عطاء الله السكندري.

QaradawiBooks.com

أم أنَّ الآيات هنا في هذا الكون الدالَّة على وجوده، وعلى وحدانيَّته، وعلى كمال قدرته، وعلى واسع رحمته، وعلى بالغ حكمته؟

هي آيات أيضًا.. ولعل هذا هو ما يفيده قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧، ٩٨]. فالآيات هنا لعلَّ الأرجح أن تكون كونيَّة، فالله يفصِّلها كما يفصل الآيات التَّنزيليَّة.

معنى اليقين بلقاء الله وأهميته:

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ لماذا؟ ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾. الله ﷻ أقام هذا الكون الكبير، هذا الكون البديع، هذا الكون الَّذي أحسن الله فيه كلَّ شيء خلقه، وأتقَنَ فيه كلَّ شيء صنَعه، ورتَّبه أحسن ترتيب، وأحكمه أرْوَعَ إحكام، لماذا فعله هكذا؟ ولماذا سَخَّر؟ ولماذا دَبَّر؟ ولماذا فَصَّل الآيات؟ ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

«لعلَّ» في القرآن الكريم:

تأتي إمَّا للترجِّي، وإمَّا للتعليل، وأضاف بعضهم معنى ثالثًا، فقال: إنَّها قد تأتي للاستفهام، مثل: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]، ومثل: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]. لكنها أكثر ما تأتي للترجِّي أو للتَّعليل، ومعنى الترجِّي أي: توقّع حصول شيء يحبه الإنسان، كأن تقول: لعلَّ هذا يحدث، أو تقول: عسى أن يحدث كذا.

وأحيانًا تفيد التعليل، مثل الأوامر القرآنية؛ كما قال الراغب الأصفهاني: إنَّها تحتمل الترجِّي وتحتمل التَّعليل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

QaradawiBooks.com

﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]: أي: راجين أن تفلحوا، أو لكي تفلحوا بمعنى التعليل.

وقال الراغب الأصفهاني: إنَّها إذا جاءت في معرض الخطاب ولم يكن قبلها أمر فالغالب أنَّها تفيد التعليل، مثل الآية الَّتي معنا هنا: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي: لكي تُوقنوا بلقاء ربِّكم.

فالله رفع السماوات وسخَّر الشمس والقمر، ويُدبِّر الأمر ويفصِّل الآيات، لتوقنوا بلقاء الله ﷻ، أي: لتؤمنوا بالآخرة، وتعلموا أنَّ هذه الحياة وراءها حياة أخرى، وأنَّ الموت ليس نهاية المطاف، وإنَّما هو رحلة إلى عالم آخر، كما قال عمر بن عبد العزيز: «إنَّما خُلقتم للأبد، وإنَّما تُنقلون بالموت من دار إلى دار»[(١)]. وكما قال الشاعر الصَّالح:

وما الموتُ إلَّا رحلةٌ غيرَ أنَّها من المنزلِ الفاني إلى المَنْزِلِ الباقي[(٢)]

فهذا الكون الَّذي خلقه الله ﷻ، وتلك الدلائل الَّتي نصبها لنا لنعلم أنَّ هناك حياةً أخرى ودارًا أخرى، تُوفَّى فيها كل نفس ما كسبت، وتخلد فيما عملت، وهذا هو معنى لقاء الله، أي: وقوف الإنسان بين يدي ربِّه يومَ العرض للحساب والجزاء والثواب والعقاب فلا بدَّ أن نعلم هذا بيقين.

واليقينُ أن يعلم الإنسان الشيء علمًا لا شكَّ فيه، ينتفي عنه الرَّيْب والشبهات، فهو العلم الجازم الَّذي لا يحتمل النقيض، وهذا هو اليقين، تقول: أيقن الشيء أو أيقن به: إذا علمه علمًا لا شك فيه، فاليقين هو

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٨٧/٥).

(٢) من شعر أبي العتاهية. انظر: الإعجاز والإيجاز للثعالبي صـ ١٥١، نشر مكتبة القرآن، القاهرة.

QaradawiBooks.com

الأمر الواضح الثابت الَّذي لا شك فيه، ولذلك سُمِّيَ الموت يقينًا: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي: يأتيك الموت؛ فهذا أمر لا شكَّ فيه، والله تعالى يقول: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٧] أي: أتانا الموت.

فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ يعني تؤمنون به إيمانًا جازمًا، لا يتطرَّق إليه ريْبٌ ولا شكَّ.

مراتب العلم:

وينبغي أن نعلم أنَّ هناك مراتب، فهناك اليقين، وتحت اليقين الظنُّ، وهناك من الظنِّ الراجح والضعيف، وهو أقربُ إلى الشك أو إلى الوهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] فهذا هو الظنُّ الضعيف لأنَّ كلمة «ظنًّا» هكذا بالتنكير تدلُّ على التحقير.

والظنُّ الراجح أحيانًا يُعبَّر به عن اليقين كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦]، وكما قال أيضًا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. فالظنُّ إذا كان راجحًا يكفي الإنسان ليخشى الله ﷻ، ويؤمن بلقائه. قال تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٠].

أمَّا الظنُّ الضعيف ـ كما قلنا ـ فهو أشبه بالشكِّ، وعندنا الظنُّ الَّذي هو الإدراك الراجح، والإدراك المستوي الطرفين يُسَمَّى شكًّا، والإدراك المرجوح يُسَمَّى وَهْمًا، فلا الوهم ينفع، ولا الشكُّ ينفع.

QaradawiBooks.com

لكنَّ المطلوب في أمر الآخرة هــو اليقين، ولذلك وصف الله تعالى المتَّقين في أوَّل سورة البقرة فقال: ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]. فلا تقوى بغير يقين، وفي سورة النمل: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمــل: ٢، ٣]. وكذلك في ســورة لقمان وَصَفَ المحسنين بأنَّهم: ﴿بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٤]. فالمتَّقون والمؤمنون والمُحْسِنون لا يمكن أن يكونوا إلَّا موقنين بالآخرة.

أهميَّة اليقين بالآخرة:

واليقين بالآخرة هو دواءُ كلِّ داء، ومشكلة البشريَّة هي عدم الإيمان بالآخرة، ومع أنَّ هذه القضيَّة المصيريَّة الأولى، فلو آمن النَّاس بالآخرة لانحلت العقد، وانحلت المشــكلات، ولكنَّ النَّاس يعيشــون ليومهم، ولا يفكِّرون في غدهم، ولو أنَّهم آمنوا بالآخرة لرتَّبوا حياتهم ترتيبًا آخر، وفكَّروا لها تفكيرًا آخــر، ولذلك كان القرآن مُركِّزًا علــى هذه القضيَّة: «اليقين بالآخرة».

وانصراف النَّاس عن الإيمان بالآخرة هو أصل كلِّ فساد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]

بعد أن تحدَّث الله عن العالم العلوي، عن السماوات الَّتي رفعها بغير عمد، وعن استوائه سبحانه على العرش، وتسخيره الشمس والقمر يجريان لأجل مُسمًّى، نزل الله ﷻ بنا إلى هذه الأرض الَّتي نعيش عليها، وبعد أن حدَّثنا عن السماء من فوقنا.. ها هو يُحَدِّثنا عن الأرض من تحتنا ومن حولنا.

اهتمام القرآن بالأرض بعد السماء:

ولا بدَّ للإنسان أن ينظر في العالم من حوله، من فوقه ومن تحته: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. ولأنَّ السماوات أعظم فقد بدأ الله بها، ثم ثنَّى بالأرض: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾. وقد نبَّهنا القرآن في آيات كثيرة ووفيرة إلى هذا الكوكب الَّذي نعيش عليه «الأرض» الَّتي ذكرت هكذا مُعرَّفة أربعمائة وإحدى وخمسين مرَّة في القرآن الكريم كله، وهذا ليلفت أنظارنا إلى هذه الأرض.

المراد بكلمة الأرض في القرآن:

والأرضُ حينما تُذكر في القرآن تُذكر بمعان ثلاثة:

أوَّلها: أن يراد بها هذا الكوكب الَّذي نعيش عليه، ومعظم ما جاء في القرآن الكريم من لفظ الأرض جاء بهذا المعنى، وخصوصًا إذا قوبلت

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بالسماء في نفس الآية، أو في مثل ما معنا الآن: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ ﴾. فهنا يتَّضح لنا أنَّ الأرض هنا: هي هذا الكوكب الَّذي يقابل السماء في نظر القرآن.

وثانيها: أن يُرادَ بالأرض جزءٌ من هذا الكوكب، كقطر من الأقطار، أو إقليم من الأقاليم حسب ما يدلُّ عليه السياق، كما جاء في سورة يوسف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ [يوسف: ٥٦] فالمقصود: أرض مصر؛ وليس الأرض كلها، وحينما قال يوسف للملِك: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥] إنَّما قصد بالأرض هنا أرض مصر، وكذلك حينما قال أخو يوسف: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾ [يوسف: ٨٠] قصد أرض مصر، فالسياق دلَّ على المراد.

ثالثها: أن يُراد بالأرض أرض الجنَّة كما جاء في أواخر سورة الزمر: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٤].

فهذه المعاني الثلاثة هي الَّتي تقصد بها كلمة «الأرض» حيثما ذكرت في القرآن الكريم.

وأحيانًا يختلف المفسِّرون في تحديد معنى «الأرض» مثل ما جاء في أواخر سورة الأنبياء: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. فقد اختلف المفسِّرون في المقصود بالأرض هنا، حيث ذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ الأرض هنا هي الأرض، أيُّ أرض يُمكِّن الله فيها للعباد الصَّالحين بصلاحهم، فهم الَّذين يستحقُّون الخلافة في الأرض والتمكين فيها، والصلاح هنا يشمل

QaradawiBooks.com

الصلاح الديني، والصلاح الدنيوي، فهم صالحون لعمارتها، وهم صالحون لزراعتها، وهم صالحون لإقامة دين الله فيها.

وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ الأرض هنا هي أرض الجنَّة، وكأنهم نظروا في الواقع، وقالوا: إنَّ الأرض في بعض الأحيان لا يرثها الصالحون، وإنَّما يتمكَّن فيها الجبابرة والطغاة والكفار، ويسلَّطون عليها، فالمراد بالأرض على هذا أرض الجنَّة في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾.

فكلمة «الأرض» إذا ذكرت يقصد بها أحد هذه المعاني الثلاثة إلَّا في موضع في سورة سبأ، حيث قال الله ﷻ في قصة سليمان: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ: ١٤]. فقد ذهب بعضهم إلى أنَّ الأرض هنا هي مصدر أَرَضَ يَأرِض؛ لتخرج بذلك عن المعاني الثلاثة السابقة.

المقصود بالأرض هنا والمراد بمدِّها:

أمَّا الأرض في الآية الَّتي معنا فالمقصود بها الكوكب الَّذي نعيش عليه بدليل أنَّه ذكرها بعد السماوات: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ ومعنى أنَّه مدّ الأرض، أي: بَسَطها طولًا وعرضًا، وهيَّأها لمعيشة الإنسان.

وهنا نجد القرآن الكريم حينما يحدِّثنا عن الأرض، يحدِّثنا أحيانا عن أنَّ الله تعالى جعلها بساطا: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠]، أو جعلها مهدًا: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: ٥٣] مثل مهد الطفل، أو مهادًا: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦]،

QaradawiBooks.com

أو فراشًا: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، أو قرارًا: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦١].

فهي مُهيَّأة، تهيئة يمكن أن توصف بأنَّها فراش، وأنَّها مهاد، وأنَّها قرار، وأنَّها بساط، وأنَّها مستقر، وأنَّها متاع: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]. المهم أنَّ الله هيَّأها وذلَّلها بحيث يستطيع الإنسان أن يقوم فيها بالمهمة الَّتي وُكِّلت إليه، مهمَّة الخلافة ومهمَّة العمارة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

هذه المهمَّة الَّتي اشْرأبَّت إليها أعناق الملائكة، وتمنَّوا أن يكونوا هم أصحابَ هذا المنصب، ولكنهم لم يُؤهَّلوا لذلك، ولذلك حينما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، قال الله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وبيَّن لهم في مسابقة عُقِدت بينهم وبين آدم أنَّهم لا يملكون المؤهِّلات الَّتي تجعلهم خلفاء في هذه الأرض، أمَّا آدم فقد أُوتي العلم الَّذي يُمكِّنه وهم لم يُؤْتَوهُ، فالإنسان مهمته أن يقوم بالخلافة في الأرض، وأن يقوم بعمارتها: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. و﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾ أي: طلب إليكم عمارتها، فالسين والتاء للطلب، كما يقول أهل اللغة.

مدُّ الأرض وبسطُها لا ينافي تكويرَها:

فالله إذن قد هيَّأ الأرض ليقومَ الإنسان فيها بالعمارة والخلافة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بسطها.

QaradawiBooks.com

وهنا يأتي السؤال: هل هي مبسوطة أو مكوَّرة؟

وقد قال المفسرون هنا: مدَّها: أي بَسَطها طولًا وعرضًا، حيث تتَّسع لحياة الإنسان ومعيشته، فهل يتنافى هذا مع التكوير؟ أي: مع كونها كرة كما دلَّ على ذلك العلم الحديث؟

أقول: لا يتنافى ذلك مع التكوير أبدًا، فالتكوير أصبح حقيقةً واقعة، ولم يعد حقيقة علميَّة فقط؛ بل أصبح حقيقة عمليَّة، فالإنسان قد دار حول الأرض آلاف المرات، والمحاولات مستمرَّة بصورة أو بأخرى.

وقضية التكوير هذه سبق المسلمون بها غيرهم في الوقت الَّذي كانت أوربا تجهل كل الجهل هذا الأمر، وتعتقد أنَّ الأرض مبسوطة، ولا يمكن أن تحتمل التكوير. قبل أن يظهر كوبرنكس وجاليليو وغيرهما، كان المسلمون يقرِّرون ذلك في كتبهم الدينيَّة، لا أقول: الكتب الفلسفيَّة أو العلميَّة أو الفلكيَّة؛ بل أقول: الكتب الدينيَّة. فهذا ابن حزم في كتابه «الفِصَل في المِلَل والنِّحَل» يدلِّل على كروية الأرض ويردُّ على من ينكر ذلك[١]، وفخر الدين الرازي في تفسيره في مواقع شتَّى يتحدَّث عن هذا[٢]، وكُتب علم الكلام الَّتي خلطت الكلام بالفلسفة، مثل: المواقف والمقاصد وغيرها، تتحدَّث عن هذا، وكتب التفسير من المتقدمين والمتأخرين حتَّى العلامة الآلوسي يتحدثون عن هذا الأمر[٣]، فلم تكن هذه القضيَّة مشكلة عند المسلمين، ولكنَّها ـ بالقطع ـ كانت مشكلة عند النصارى، عندما اكتشف المكتشفون بعد ذلك أنَّ الأرض كرة وليست مبسوطة.

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٩٧/٢)، نشر دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.
(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي (١٧٠/١٩).
(٣) روح المعاني للآلوسي (٢١٩/١)، تحقيق علي عبد الباري عطية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

QaradawiBooks.com

فالكُرويَّة لا تنافي البسط؛ لأنَّ الجسم العظيم بالنسبة لمن يعيش عليه يكون مبسوطًا، والإنسان يرى الأرض مبسوطة مهيَّأة للحرْث والزرع والبناء، والواقع أنَّها لو لم تكن مبسوطة لما استطاع الإنسان أن يعيش عليها، وما أمكنه أن يراها ممدودة، ولو كانت الأرض مُربَّعة أو مستطيلة أو مثلثة أو في صورة دائرة لكانت ممدودة في وسطها فقط: في مركز الدائرة وما حوله، فإذا ذهبت إلى الحوافّ أو الأطراف، فلن تراها ممدودة؛ لأنَّ الطرف في هذه الحالة يعني المد في ناحية واحدة، فمن تأمَّل في مَدِّ الأرض يجده بالفعل دليلًا على التكوير، فالتكوير هو الَّذي تجد فيه المد والبسط في أيِّ مكان على الكرة؛ ما دامت كرةً كبيرة، المد والانبساط فيها واضح، فليس هناك إذنْ تنافٍ؛ بل هناك تكامل بين عمليَّة المد والبسط، وعمليَّة التكوير.

أهميَّة الجبال الرواسي للأرض:

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗا﴾ أرساها بالجبال؛ فالرواسي هي الجبال الراسية، أي: الثابتة الراسخة، وقد سمَّاها القرآن في بعض الآيات أوتادًا: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۝ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ [النبأ: ٦، ٧] تُمسك الأرض أن تميد أو تضطرب، فهي بمثابة الأوتاد للخيام.

هذه الجبال لها أهميَّتها في منع الأرض من المَيَدَان أو الاضْطراب، وهذا ما تفضَّل الله تعالى بذكره في آيات كثيرة، كما في سورة لقمان: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٖ ۝ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١٠، ١١]. فالله ثبَّت هذه الجبال الرواسي في الأرض حتَّى لا تميد الأرض!

QaradawiBooks.com

الأنهار في الأرض:

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗا﴾ كما جعل الله في الأرض الرواسي، جعل فيها الأنهار؛ لأنَّ الحياة لا يمكن أن تتم إلَّا بالماء، وهذه حقيقة قرَّرها القرآن، وقرَّرها العلم، وقرَّرها الواقع: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. ومن هنا جعل الله في الأرض أنهارًا، سواء كانت هذه الأنهار من ماء نبع من الأرض، ثم سار وجرى أو كانت من السحاب كما هو الشأن في الأنهار، وحتى الماء الَّذي ينزل من السحاب أصله الأرض كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۞ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٠، ٣١] فأصل الماء خارج من الأرض، ومعلومٌ أنَّ السَّحاب ماء تبخَّر، وقد قال الشاعر العربي:

كالْبَحْرِ يُمْطِرُه السَّحَابُ وما لَهُ فَضْلٌ عليه لأنَّه من مائه[1]!

فالله هيَّأ هذه الأنهار بمياهها العَذْبة لإحياء الأرض بالنبات، وليشرب منها الإنسان والحيوان: ﴿لِّنُحۡيِيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ [الفرقان: ٤٩].

معنى كلمة «جعل»:

وكلمة «جعل» تأتي على عدة أوجه: هناك جعل اللازمة، وهي من أخوات «كاد» الَّتي تُسمَّى بأفعال الشروع، فنقول: «جعل يصنع كذا» أي: شرع فيه، وطفق يفعل كذا وكذا، وهذه لم تأتِ في القرآن.

(١) من شعر عبد الله الأسطرلابي هبة الله البغدادي، كما في معجم الأدباء (٢٧٧١/٦)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

وهناك جعل المتعدية الَّتي تأتي في القرآن، وأحيانًا تكون متعدِّية لفعل واحد، وهنا تكون بمعنى أنشأ وأوجد، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] أي: أنشأ الظلمات والنور، وأوجدها وخلقها.

وأحيانًا تكون متعدية لفعلين، وتكون في هذه الحالة من أخوات «ظنَّ»، كما هو مقرَّر في علم النحو، ومعناها: تصيير شيء إلى شيء؛ إما حقيقة أو اعتقادًا: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩].

وجعل الَّتي معنا: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ من المتعدِّي لفعل واحد بمعنى أنشأ وأوجد فيها رواسي وأنهارًا.

ظاهرة الزوجيَّة في النبات وفي الكون كله:

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ من جميع الثمرات في الأرض جعل الله ﷻ زوجين اثنين.

وكلمة «زوج» أحيانًا تطلق على الفرد أو الشيء الَّذي يقرن بغيره من نظير له أو ضدّ له، وأحيانًا تطلق على الاثنين فهناك زوج وهناك فرد، وتطلق على الصنف، فمن كل زوج: أي صنف كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧] أي: صنف جميل حسَن، وقال: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧، لقمان: ١٠] أي: صنف أصيل رفيع القيمة.

فأمَّا الزوج من الشيء وضدُّه فمثل الذكر والأنثى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥].

فما المراد هنا ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾؟ هل المراد من جميع الثمرات خلق الله صنفين اثنين مختلفين في الكمية، مثل الصغر

QaradawiBooks.com

والكبر؟ أو في اللون، مثل الأبيض والأسود؟ أو في الطعم، مثل الحلو والحامض؟ أو في الكيفية، مثل الحرارة والبرودة؟ هذا احتمال.. يعني أنَّها أصناف مختلفة؛ فمن كل الثمرات خلق الله أصنافًا مختلفة.

أم أنَّ المراد أنَّه خلق من كل صنف زوجين اثنين؟ أي: زوجين زوجين، أو صنفين صنفين، أو نوعين نوعين، ثمَّ تكاثرت هذه الأصناف وتنوعت، وهذا مثل الذكورة والأنوثة، وقد ذهب إلى هذا بعض المفسِّرين، ولكنهم قالوا: لا دليل على هذا، فلم يكن عندهم دليل على أنَّ هناك ازدواجًا عامًّا في النبات وفي ثمراته، وقد عرفوا من هذا فقط النخيل، ففيه ذكورةٌ وفيه أنوثةٌ، ومن قديم عرف النَّاس تأبير النخيل وتلقيحه، أمَّا أن يكون ذلك شيئًا عامًّا في كل نبات، فهذا ما لم يعرفوه، ولذلك استبعده بعض المفسِّرين، مع أنَّ القرآن قرَّر ذلك في آيات أُخر، وأشار إلى هذه الحقيقة الكونيَّة الَّتي أصبحت من الحقائق العلميَّة المعروفة في عصرنا: أنَّ النباتاتِ مزدوجة، فيها ذكورة وأنوثة، وهناك حبوب التذكير وحبوب التأنيث، وأنَّها تنتقل بين أفراد النبات عن طريق الحشرات كالنَّحل وغيرها، أو عن طريق الرياح أو غير ذلك من الوسائل.

والله تعالى يقول في سورة يس: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦]، فهنا يمكن أن تُفسَّر الأزواج بمعنى الأصناف، أو بمعنى المزدوجة المتقابلة، مثل الذكورة والأنوثة، وهذا من إعجاز القرآن الكريم؛ لأنَّه لو احتمل معنى واحدًا كالمعنى الأخير فقط، لكان ذلك شيئًا مُعمَّى على النَّاس في عصر نزوله وما بعد عصر نزوله؛ إذ لم يكتشفوا هذه الحقيقة، فهو يمكن أن يفهم على وجه معقول ويؤدِّي الثمرة المطلوبة، والأوضح من ذلك

غير مرخصة للطباعة

والأشمل قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] فهذه كليَّة مطلقة عامَّة.

وقد كان بعض المفسِّرين يقول: إنَّها أغلبيَّة وليست كليَّة، فهي من باب التَّغليب، ولكن الواقع يقول لنا الآن: إنَّ هناك ازدواجًا في الكون، وتقابلًا بين الأشياء، كما نعرف في الكهرباء الموجب والسالب، وهنا نجد أنَّ البناء الكوني يقوم على الذرَّات، والذرَّة فيها الشحنة الكهربائية الموجبة، وتقابلها الشحنة السالبة، أو «البروتون» و«الإلكترون» كما يقولون، فأصبحت هذه الحقيقة القرآنية، حقيقة واقعية.

وأنا لست من الَّذين يلوون أعناق النصوص؛ ليؤيِّدوا مكتشفًا علميًّا أو نحو ذلك، ولكن إذا كان القرآن واضحًا؛ فينبغي أن نصحِّح فهم الأولين، أو نكملَه إذا كانت الحقيقة حقيقة علميَّة فعلًا، وكان النص القرآني يتَّسع لها بغير تكلف ولا اعتساف.

فلا عجب إذن أن يفيد قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾. زوجيَّة المتقابلات هذه، وهناك ذكورة وأنوثة في النبات كما عبَّر عنها علماء البيولوجيا وعلم الأحياء.

معنى إغشاء الليل النهار:

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يُلبس الليل النهار فيغشِّيه ويلتف عليه، كما يلتف الملبوس على لابسه، فالليل يستر النهار، وبعد ذلك يأتي النهار، فيطغى على الليل، أي أنَّ كلًّا منهما يعمل في الآخر: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] بصورة متعاقبة، فظاهرة التعاقب بينهما واختلافهما لفت إليها القرآن كظاهرة كونيَّة.

QaradawiBooks.com

وحدثنا عن الليل والنهار في نحو خمسين آية أو أكثر من ذلك؛ ليلفتنا إلى هذه الظاهرة: أنَّ الليل يعقبه نهار، والنهار يعقبُه ليل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠، ١١]، ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [القصص: ٧٣]، إلى آخر ما جاء في القرآن الكريم.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ وفي سورة الأعراف: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] كأنَّما يسارع وراءه ويركض خلفه.

وجاء أيضًا: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، ولعلَّ هذا أيضًا ممَّا يفيد في قضية تكوير الأرض.

وفي آيات أخرى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] أي: يدخل كلًّا منهما في الآخر، فهما متلاحقان، كأنَّما أصبح كلٌّ منهما جزءًا من الآخر.

وقد تساءل بعض المفسِّرين هنا: لماذا ذُكر الليل والنهار هنا، وإغشاء الليل والنهار في هذه الآية، مع أنَّ هذا يتَّصل بالشمس والقمر، فكان المتوقع أن يكون ذلك في الآية السابقة الَّتي تحدَّثت عن الأفلاك والعالم العلوي، وعن رفع السماوات بغير عمد، وعن الشمس والقمر إلى آخر ذلك؟

وأجاب بعض المفسِّرين: بأنَّ هذا يقع في الأرض فربطه بموضوع الأرض، ونحن في عصرنا عرَّفنا العلمُ بجواب أسَدَّ وأصوبَ من هذا الجواب، وهو أنَّ الليل والنهار مرتبطان في الواقع بالأرض أكثر من ارتباطهما بالسماء وبالشمس وبالقمر، فالليل والنهار إنَّما يأتيان نتيجة دوران الأرض حول نفسها، كما هو مقرَّر في الجغرافيا الفلكيَّة الَّتي يدرسها التلاميذ في مدارسهم؛ فالأرض تدور حول نفسها، ونتيجة هذا

QaradawiBooks.com

الدوران اليومي كل أربع وعشرين ساعة، يحدث الليل والنهار، فهذه ظاهرة أرضية فعلًا، ولسنا في حاجة إلى تكلف الجواب الَّذي تكلَّفه بعض المفسِّرين.

غير مرخصة للطباعة

الكون مجال للتفكر في آيات الله:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: هذه الظواهر الكونيَّة في عالمنا الأرضي، في كوكبنا الَّذي نعيش عليه، من مدِّ الأرض وإنشاء الجبال الرواسي أوتادًا للأرض، وإنشاء الأنهار لتكون مصدرًا للحياة، حياة النبات وحياة الحيوان وحياة الإنسان، وخلق هذه الثمرات من كلِّ زوجين اثنين، كلُّ هذا جديرٌ بأن يكون فيه آيات ودلائل على وجود الصانع الحكيم؛ لأنَّ هذا التدبير لا يمكن أن يكون من غير مدبِّر، ولا يمكن أن تكون هذه الصنعة من غير صانع، ولا يمكن أن يكون هذا الأثر من غير مُؤثِّر، ولا يمكن أن يكون هذا الإبداع من غير مُبدع، ولا يمكن أن يكون هذا التنظيم من غير مُنظِّم، فهذا مستحيل.

وقد ألف بعضهم وهو «جوليان هكسلي» كتابًا تحت عنوان: Man stands alone «الإنسان يقوم وحده مستغنيًا عن الإلٰه»، ذكر فيه أن هذا الكون وجد أو نشأ بالصدفة، وهو يقوم من غير إلٰه، وردَّ عليه رجل من المتضلِّعين في شتى العلوم الكونيَّة والرياضيَّة وهو رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك «أ. هـ ـ كريسي موريسون» في كتاب أسماه «الإنسان لا يقوم وحده»، وترجم إلى العربيَّة تحت عنوان: «العلم يدعو إلى الإيمان»، وترجمه الأستاذ محمود صالح الفلكي، وهو كتاب قيِّم يردّ فيه صاحبه بمنطق عالم راسخ متمكِّن في الجيولوجيا وفي الفلك وفي الفيزياء وفي الكيمياء وفي النبات وفي الحيوان وفي الرياضيات، فالرجل دائرة معارف

QaradawiBooks.com

علميَّة وهو عالم موسوعي، ولذلك استطاع أن يرد على هذا الرجل، ويبيِّن له بالمنطق الرياضي والمنطق العلمي: أنَّ هذا الكون لا يمكن أن يقوم وحده، ولا بدَّ أنَّه من صنعِ صانع حكيم، وكل شيء فيه يدل على هذا، وتحدث عن الأرض، فقال: إنَّ الحياة لكي تقوم على الأرض ـ حياة الإنسان ـ فإنها تحتاج إلى آلاف الموافقات والترتيبات والتدبيرات، الَّتي يستحيل أن تأتي صدفة، وأنا لا أستطيع أن ألخِّص الكتاب هنا، ولكنِّي أنصح بقراءته، خصوصًا للذين يتعرَّضون لشبهات الملاحدة والجاحدين في عصرنا.

والحمد لله فقد انهارت دولة الإلحاد، الدولة الَّتي قامت على «لا إلٰه.. والحياة مادة»، انهارت في بلادها، وللأسف لا يزال في بلادنا أناس يتحدثون عن مثل هذا، ويماحكون في هذه الأشياء ويجادلون في الله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨، ولقمان: ١٠]، فالرجل تحدث في كتابه عن الحياة لكي تقوم على ظهر هذا الكوكب لا بد من أشياء كثيرة، ولو حدث أيُّ خللٍ في التنظيم الكوني: ما أمكن أن تقوم الحياة على الأرض، مثل أن تبعد الأرض عمَّا هي عليه الآن عن الشمس، قال: «ما كانت حرارة الشمس تكفي لأن تنشئ في الأرض الحرارة الكافية لأن تقوم الحياة، أو أن تقترب الأرض عمَّا هي عليه الآن من الشمس؛ فإن ذلك يجعلها تحترق.

ولو كانت الأرض تدور بسرعة أكبر ما أمكن أن تقوم عليها الحياة، لأنَّ الضوء حينئذ لا يتسلَّط عليها بدرجة كافية. وكذلك لو كانت أبطأ في دورانها لتسلَّطت عليها حرارة الشمس في الجهة المقابلة لها مدَّة أطول وبالتالي تحترق، ولتجمَّدت الأحياء في الجهة الأخرى غير المقابلة من شدَّة البرودة».

QaradawiBooks.com

وهكذا كل شيء: سرعة الدوران، والقرب والبُعد، والحجم لو كانت أصغر حجمًا أو كانت أكبر حجمًا، وكمية الماء لو كانت في الأرض أقل أو أكثر، وكمية الأكسجين والهيدروجين، وكل شيء حينما تقرأ؛ سوف تجده بمقدار، وصدق الله العظيم: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

فالرجل قال: إنَّ هذا لا يمكن أن يتمَّ بالمصادفة العمياء، وهو يناقش مسألة المصادفة مناقشة حسابيَّة رياضيَّة، لا يتَّسع المقام لأُحدِّثكم عنها، وقد كتبت هذا في رسالة عنوانها «وجود الله».

فالقرآن ـ إذن ـ يلفتنا إلى أنَّ هذه الظواهر الكونيَّة في هذه الأرض فيها آيات: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾. و«ذَلِك» إشارة إلى تلك الظواهر: مد الأرض، وإنشاء الرواسي، وإنشاء الأنهار، وخلق الثمرات، إلخ.

والمفسِّرون يقولون: إنَّ التعبير بـ «ذلك» في مثل هذا الموقع دلالة على عُلوِّ شأن المشار إليه، وإن كان قريبًا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فمن لا يتفكر مثل «جوليان هكسلي» هذا لا يجد أي آية، ولكن الَّذي يتفكر ـ مسلمًا كان أو غير مسلم ـ لا بدَّ أنْ يصل إلى أن هذا الكون وراءه مُكوِّن، ومُكوِّن عظيم، فيستدل على وجود الله، ويستدل على عظمة الله تعالى وكماله، وعلى عظيم قدرته، وعلى جميل حكمته، وعلى إحسان صنعته؛ لأنَّه: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. فلا يصل إلى مجرَّد الإيمان بوجود الإلٰه؛ بل إلى كمال هذا الإلٰه، فلا يمكن أن يصنع هذا إلَّا من هو مُتَّصف بكل كمال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

QaradawiBooks.com

القرآن والدعوة إلى التفكر:

والتَّفكُّر من الأمور الَّتي ذكرها القرآن في مجالات عدَّة، وخصوصًا في المجال الكوني؛ ليثير في الإنسان أن يتفكر، وأن يعمل عقله.. أن يستخدم هذه اللطيفة الربَّانيَّة الَّتي وهبها الله تعالى إياه؛ فلا يعطِّلها ولا يجمِّدها، فشأن الكفرة والجاحدين أنَّهم يعطلون هذه الأجهزة الربَّانيَّة الَّتي جهَّز الله بها الإنسان، فلم تعد تغنيهم هذه الأجهزة شيئًا بعد الجحود: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

فالجحود خرَّب هذه الأجهزة، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

إنَّ على الإنسان أن يدع الغفلة وينتبه لما حوله ويتفكَّر في هذا الكون ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقد جاء هذا التعبير «التفكُّر ومشتقاته» في القرآن الكريم ما يقرب من عشرين مرَّة على صور مختلفة، فأحيانًا «تتفكرون»، وأحيانًا «يتفكرون»، وأحيانًا «يتفكروا»، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ: ٤٦] أي: أن تقوموا مخلصين في طلب الحق؛ وهو معنى القيام لله مثنى وفرادى ثم تتفكَّروا.

ومجالات التفكر في القرآن: الكون بسمائه وأرضه، والإنسان والتفكر في خلقه، والتاريخ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]،

QaradawiBooks.com

والقــرآنِ نفسِــه، وأمثال القــرآن: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، والعلاقات الاجتماعيَّة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

لا بدَّ للإنســان أن يتفكَّر في شــتَّى المجــالات، ولا يُجمِّــد عقله، ولا يُعطِّل فكره. وكما يقول أهل اللغة: الفكر هو إعمال الخاطر في الشيء، وكما يقول أهــل المنطق: هو ترتيــب المعلوم للوصول إلــى المجهول. والمنطق نفســه قد عرَّفوه بأنه آلة قانونيَّة تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر. وحينما عرَّفوا الفكر قالوا: الفكر هو ترتيب المعلومات التَّصوريَّة أو التصديقيَّة للوصول بها إلى مجهولات تصوريَّة أو تصديقيَّة.

و«التفكُّــر» لفظة قرآنيَّة الأســاس، لكثرة ترديد فعلهــا «يتفكَّر» في القرآن. وجاء في القرآن فعل «فكَّر» مرَّة واحدة.

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثــر: ١٨]، وإن كان المشــهور الآن على الألســنة «التفكير»، ومن ذلك ما كتبه الأســتاذ العقاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ مــن كتابه: «التفكير فريضة إســلاميَّة». وصيغة التفكر في نظري أوســع من مجــرَّد ترتيب المعلومات للوصول إلى المجهول؛ لأن اســتخدام الاستقراء والنظر في الأشياء الذهنية المجردة لاكتشاف المجهول، والاختيار بين البدائل كل هذا يدخل في التفكر.

التفكر في الخلق لا في الخالق:

والمهمُّ أن يتفكَّر في مخلوقــات الله، ولا يتفكَّر في الخالق، ولذلك نرى أن كلَّ ما جاء فــي التفكُّر في القــرآن بعيدٌ عــن التفكر في ذات

QaradawiBooks.com

الله ﷻ، ومن هنا جاء الحديث: «**تفكَّروا في آلاء الله، ولا تفكَّروا في الله فتَهْلكوا**»[١]. وهو حديثٌ ضعيف؛ ولكنَّه روي من طرق يقوِّي بعضها بعضًا؛ ولذلك حسَّنه بعض العلماء، ومعناه صحيحٌ باتِّفاق.

أمَّا التفكُّر فلا يكون في الله، فمن أين للمخلوق أن يتفكَّر في خالقه؟ ومن أين للعاجز أن يتفكر في القادر؟! ومن أين للمحدود أن يتفكَّر في المطلق؟! ومن أين للناقص أن يتفكَّر في الكامل؟! وإذا كان الإنسان لم يعرف الكونَ الماديَّ من حوله؛ بل لم يعرف حقيقة نفسه؛ فكيف يعرف غيره؟!

وقد ألَّف أحد أقطاب العلم العصري[٢] كتابًا سمَّاه: «الإنسان ذلك المجهول»، وقال: «إنَّنا عرفنا الجمادات، وقوانين الجمادات، وقوانين الذرة، وقوانين الكون من حولنا، واكتشفنا هذه الظواهر، ولكنا لم نعرف أنفسنا بعد»، فإذا كان الإنسان لا يزال مجهولًا عند نفسه؛ فكيف يطمع أن يدرك كُنْه ربه؟!

إدراك الكنه هذا بعيد ولا سيما بالنسبة للألوهيَّة: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. ولذلك ينبغي البُعد عن هذه الساحة، وعلى الإنسان أن يوفِّر طاقته وجهده الذهني لما ينفعه، ولِما يستطيع أن يصل إلى الحقيقة فيه، أمَّا ما هو أكبر منه وأبعد عن اختصاصه، فلا ينبغي أن يشغلَ نفسَه

---

(١) رواه أبو الشيخ في العظمة (٢)، وابن بطة في الإبانة (١٠٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦٦/٦)، عن ابن عباس. والطبراني في الأوسط (٦٣١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٩) وقال عقبه: هذا إسناد فيه نظر. عن ابن عمر. وحسَّنه الألباني في الصحيحة بمجموع الطرق (١٧٨٨)، وفي صحيح الجامع الصغير (٢٩٧٥، ٢٩٧٦) ومعنى الحديث صحيح بالإجماع.

(٢) هو ألكسيس كاريل (Alexis Carrel) جراح وعالم بيولوجي فرنسي، ألَّف كتابه الشهير: الإنسان ذلك المجهول (L'Homme Cet incomu) عام ١٩٣٥م، وتُرجم إلى العربية.

QaradawiBooks.com

به، لأنَّ ذلك سيدخله في متاهة لا يستطيع أن يصل فيها إلى قرار، والَّذين بحثوا في مسألة الذات والصفات وغير ذلك من الأشياء الَّتي خاض فيها بعض المتكلمين من المسلمين، وصلوا في نهاية الأمر إلى أنَّهم خاضوا أو غاصُوا في بحر عميق؛ كادوا يغرقون فيه، وانتهى بعضهم في النهاية إلى أنَّه كان يتمنَّى أن يعيش على إيمان العجائز، ويطلب إيمانًا كإيمان العجائز!

ويقول الفخر الرازي في هذا[١]:

العلمُ للرحمن جلَّ جلالُه وسواهُ في جَهَلَاتِه يَتغَمغمُ
ما للتُّرابِ وللعلومِ؟! وإنَّما يَسعى ليعلمَ أنَّه لا يعلمُ

وبعد أن حصَّل أفكار المتقدِّمين والمتأخِّرين، وغاص فيما غاص، قال في النهاية:

نهايةُ إدراكِ العُقُول عِقَالُ وغايةُ سَعْيِ العالَمِينَ ضَلَالُ[٢]

وانتهى إلى مذهب السلف في التسليم، في الأمور الَّتي يعجز العقل عن إدراك كنهها.

وكذلك انتهى قبله الإمام الغزالي، وشيخه إمام الحرمين رحمهم الله جميعًا.

فالأشياء البسيطة لم يعرفها العقل، فلم يعرف معنى الحياة.. ما الحياة؟ وما حقيقتها؟ مع معرفته بآثار الحياة؛ من نموّ وتنفُّس، وإفراز

(١) انظر: العواصم والقواصم لابن الوزير (٣٥٧/٦)، نشر مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
(٢) رسالة ذم لذات الدنيا لفخر الدين الرازي صـ ٢٦٢، نشر دار برايل، لندن، ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

وعضوية، فإذا عجز العقل الإنساني عن معرفة بعض الحقائق الماديَّة من حوله، فكيف يطمع أن يعرف حقيقة الله تبارك وتعالى؟!

ولذلك ينبغي أنْ يكون مجال التفكر هو الكون، وسنن الله في الكون، والإنسان في هذا الكون، وتاريخ الإنسان، ويتفكر في آيات الله الكونيَّة، وفي آيات الله التنزيليَّة. فهذا هو الموضع الحقيقي للتفكير، وهو الموضع النافع، وإلا زلَّت قدم الإنسان، ودخل في صحراء يتيه فيها، وهيهات أن يخرج منها سالمًا!

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ **[الرعد: ٤، ٥]**

آيات الله في الأرض والزرع:

حدَّثنا الله تبارك وتعالى عن رفع السماوات بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مُسمَّى، وتدبير الأمر، وتفصيل الآيات، لعل النَّاس بلقاء ربهم يوقنون، وحدَّثنا بعد ذلك عن هذا العالم السفلي الَّذي نعيش فيه: عن هذا الكوكب.. عن هذه الكرة.. عن هذه الأرض، وعن مَدِّ هذه الأرض وبسطها طولًا وعرضًا، وتهيئتها لحياة الناس: حياة الإنسان والحيوان والنبات فيها، وجعل فيها رواسي، وجعل فيها أنهارًا، وأغشى الليلَ النهار يطلبه حثيثًا، وجعل فيها من كلِّ الثمرات: ﴿مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠].

ثم يحدِّثنا سبحانه عن جانب مهم من هذه الأرض الَّتي نعيش عليها، وهو ما يتعلق بالزرع والغرس، أراد القرآن أن ينبِّه العقول الغافلة، وأن يزيح عنها حجاب الغفلة، فكثيرًا ما تكون الآيات بيِّنة واضحة كالشمس في رابعة النهار، ولكن النَّاس لا ينظرون إليها ولا يعتبرون بها، ومن شدَّة الظهور الخفاءُ، فإلْفُ النِّعم يقلِّل الإحساس بها؛ بل قد يعدم الشعور بها، والنِّعَم ظاهرة، والآيات واضحة لائحة، ومع هذا فإنَّ النَّاس لا يفكِّرون ولا يعقلون ولا يعتبرون، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

QaradawiBooks.com

ومن ذلك: آيات الله في الزرع والغرس، وهنا يلفت القرآن الأنظار إلى هذه الآية البيِّنة.

ومن اللمحات الطيِّبة للشيخ طنطاوي جوهري[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: صاحب تفسير «الجواهر» المعروف، والذي عُنِيَ بما يتعلق بالكائنات والطبيعة، والموجودات والأفلاك، والحيوانات والنباتات، وبالغ في ذلك إلى حدٍّ كاد يُنسى معه التفسير، ويُنسى معه القرآن؛ حتَّى قيل فيه ما قيل في بعض التفاسير قبله: فيه كلُّ شيء إلَّا التفسير!

يقول: عندما كنت أستمع إلى الدروس الدينيَّة في أوَّل حياتي، وكانت كلها تتعلق بالفقه: الوضوء، والطهارة، والعبادات، وغيرها، وبعضها يتعلق بحفظ أشياء تتَّصل بالعقائد، كنت أقول في نفسي ـ وأنا أنظر إلى الحقول في بلدي وإلى الأشجار وإلى الأنهار ـ: كيف لم يهتم الدين بهذا الأمر؟ حتَّى التفَتُّ إلى القرآن، فوجَدْتُهُ يُعنى كلَّ العناية بهذا الأمر، لا في آية ولا في عشر آيات، ولا في عشرين ولا في خمسين؛ بل في مئات الآيات، يتعرَّض القرآن الكريم لهذه الزروع، وهذه الثمار، وهذه الجنَّات، وهذه الأعناب، وهذا النَّخيل، ليلفت أحيانًا إلى ما وراءها من المنفعة، ففيها بقاء الإنسان وحياته، والإنسان خلق جسدًا يأكل الطعام: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨]. ليس كالملائكة وليس كالجمادات؛ بل يحتاج إلى أن يأكلَ ويشرب، فأهمية النباتات أنَّ فيها مأكلُ الإنسان ومشربُه، والقرآن يقول: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣]، ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ [طه: ٥٤]، ﴿تَأْكُلُ

(١) العالم الفيلسوف، صاحب الجواهر في تفسير القرآن الكريم، من العلماء الموسوعيين الذين جمعوا بين علوم كثيرة، وصاحب منهج تفسيري في كتابه الجواهر، حول العلاقة بين آيات القرآن والعلم.

QaradawiBooks.com

مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة: ٢٧]، ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۞ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۞ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥]، وهو مليءٌ بما يلفت الأنظار إلى هذه الزروع، وهذه البساتين الَّتي يأكل منها الإنسان ولولاها ما عاش.

وأحيانًا يلفت القرآن إلى الجانب الجماليِّ فيها، يقول: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩]. انظروا إلى هذه الينابعة وتمتَّعوا: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ ذات حُسْن وجمال تنبهر بها الأنفس وتتمتَّع بها الأعين: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [ق: ٧]، يلفت الأنظار إلى جانب البهجة، ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق: ١٠]، التَّنضيد والتنظيم والتنسيق، والقرآن يلفت الأنظار إلى هذا كله.

ومن ذلك نجده يقول: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ أي: قطع مختلفة من الأرض، متجاورات متلاصقات ومتقاربات، ومع تقاربها وتلاصقها فهي متباينة مختلفة، فهذه أرض طيِّبة، وهذه أرض سبخة، هذه أرض تنبت الماء والكلأ، وهذه لا تنبت ماء ولا كلأً، وهذه تمسك الماء ولا تنبت الكلأ.. طبائع مختلفة في الأرض، هناك الأرض ذات التربة السوداء، والأرض ذات التربة الحمراء، وهكذا قطع متجاورات.

﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾: أنواع ممَّا يخرج من هذه الأرض، منها النوع المتسلِّق: ﴿جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ ﴾ [الأنعام: ١٤١] على عرائش مثل العنب. وخصَّ العنب بالذكر؛ لأنَّ له طبيعة خاصَّة، هذا الكرم المتسلق والذي تصنع له العرائش ليتسلق عليها.

QaradawiBooks.com

وهناك الــزرع الَّذي ينتج الحبــوب الَّتي هي مصــدر الأقوات، من القمح والذرة، والشــعير والأرز، ونحو ذلك كالخضــراوات الَّتي تنبت على سطح الأرض.

وهناك النخيل: هــذا النوع الســامق المرتفع، العالــي الطويل، ذو الجذوع العالية، ومثله من الأشــجار المختلفة، ولكن النَّخيل له أهمية خاصَّة؛ ولا ســيما عند العرب، وهو ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾، والصنوان: هي النخلات أَصلها واحِد، وغير صنْوَان: هِيَ النَّخلَة الوَاحدة بأصلها.

هذه الأنواع المختلفة كلُّها يُسْقَى بماء واحد، ومن القراء السبعة من قرأ بالتاء: ﴿تُسْقَىٰ﴾[1]، وكلها قراءات صحيحة، صَحَّت عن رسول الله ﷺ، و﴿يُسْقَىٰ﴾: يعني ما ذكر، كله بماء واحد، أو ﴿تُسْقَىٰ﴾: أي هذه الأشــياء أيضًا، بماء واحد؛ وإن اختلف مصدر هذا الماء: هل هو من ماء الأمطار، أو من مياه الأنهار، أو من مياه الآبــار، أو من مياه العيون المتفجِّرة، أو في عصرنا ممَّا حُلِّيَ من البحر أي: ماء البحر المُحلَّى!

وإن اختلفــت طريقة رِيِّ هذا الــزرع أو هذا النخــل أو هذا الكرم، كطريقة الغمر، أو طريقة الرش، أو طريقة التنقيط، المهمُّ أنَّه ماء واحد.. طبيعته واحدة، وجوهره واحد، مُكوَّن من الأكسجين والهيدروجين.

ومع أنَّ هذا الماء واحــد، فإنَّ هذه الأنواع يُفضِّــل الله بعضها على بعض في الأُكُل، وفي الثمر والحــب، وفي الطعْم هي مختلفة، كما أنَّها مختلفة الأحجام والأشكال، والألوان والطعوم، والروائح والمذاق، مع

(١) قوله ﷻ: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ قرأه ابن عامر وعاصم بالتذكير (باليــاء)، والباقون بالتأنيث (بالتاء). انظر: السبع في القراءات لابن مجاهد صـ ٣٥٥، ٣٥٦، تحقيق شوقي ضيف، نشر دار المعارف، مصر، ط٢، ١٤٠٠هـ.

QaradawiBooks.com

أنَّ الأرض واحدة، والتربةَ واحدة، والماءَ واحد، والشمس الَّتي تَتسلَّط عليها أضواؤها هي واحدة.

فما الَّذي جعلها تختلف إذن؟ طالما أنَّ هناك وحدة في التربة الَّتي تغرس فيها إن كانت غرسًا، أو تبذر فيها إن كانت بذرًا، والماء الَّذي تُسقى به واحد، وكلُّ ما يؤثِّر في الزرع والغرس واحد، كالهواء والضياء والحرارة؟

إنَّ الله تعالى هو الَّذي يُفضِّل بعضها على بعض في الأكل، سواء كانت القراءة: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ بالنون وبصيغة المتكلم أو كانت: (وَيُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ) عطفًا على قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾، وهو من العطف البعيد، ولكن القراءة المشهورة هي بالنون: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾، فهذا دليلٌ على أنَّ هناك صانعًا مختارًا.. على أنَّ هناك فاعلًا حكيمًا، ليست الطبيعة الصمَّاء هي الَّتي تُدبِّر هذه الأشياء، فلا يمكن لها أنْ تصنع هذا، وتخالف بين الأشياء ذات الطبيعة الواحدة والجوهر الواحد.

مَن الَّذي علَّم البذرة المعيَّنة للنبات المعيَّن أن تمتصَّ من الأملاح مقدارًا مُحدَّدًا، أو تأخذ من الماء مقدارًا مُحدَّدًا، أو تأخذ من الحديد ولا تأخذ من الفسفور مثلًا؟ كلُّ نبتة، وكل بذرة، وكلُّ «شتلة» تأخذ من الأرض ما يناسبها، فمن الَّذي علَّمها هذا؟ وكيف عرفت هذه النِّسب وهذه القوانين المحكَمة؟

قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]، وهو موزون فعلًا مُحدَّد النِّسب، فمن علَّم الفسيلة المغروسة أن تأخذ من الأرض ما يناسبها بمقدار معلوم ونسبة مُحدَّدة لا تزيد ولا تنقص؟ هو الله الَّذي يفضِّل بعضها على بعض في الأكل.

QaradawiBooks.com

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: إنَّ في هذا الَّذي ذُكر ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: علامات دالَّات على قدرة الله تعالى وعلى حكمته، وعلى أنَّه لم يخلق شيئًا عبثًا، ولم يترك شيئًا سُدًى، وإنَّما ينظم كل شيء بحكمته: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وهذا دليلٌ على ما ذكره من قبل: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، ودليلٌ على أنَّه لا بدَّ من حياة بعد هذه الحياة، ولا بدَّ من بعث، ولا بدَّ من حساب، ولا بدَّ من جزاء، والذي صنع هذا كله قادر على أن يعيد النَّاس كما خلقهم أوَّل مرة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

هذا من ناحية القدرة، ومن ناحية الحكمة: الَّذي فعل هذا كله لا يمكن أن يترك هذا الكون ينهدم، ثم يدَع كل شيء دون أن يأخذ المظلومُ حقَّه، ودون أن يأخذ الظالمُ عقوبتَه! نَهَب الناهب، وقَتَل القاتل، وطَغى الطاغي، وظَلَم الظالم، وأفلت هؤلاء من يد العقوبة الأرضيَّة، فهل يُفلتون من العقوبة السماويَّة؟ هل يفلتون من العدالة الإلٰهيَّة؟

والذين عاشوا أعمارهم مضطهدين، يفعلون الخير ويُجْزَوْنَ السُّوءَ من الناس، الَّذين نُكِّل بهم وشُرِّدوا وعُذِّبوا؛ لا لشيء إلَّا أن يقولوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]. الَّذين سقطوا شهداء في معركة الحق ومعركة الإيمان، كيف ينالون جزاءهم إن لم تكن هناك حياة آخرة؟ فهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ هذا الكون لا يمكن أن ينتهي بغير حياة يُجزى النَّاس فيها بما عملوا، إنَّ هذا ممَّا يجب أن يعقله الناس: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

قال العلماء: إنَّ الله تعالى ذكر في ختام هذه الآية: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وفي الآية السابقة: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأنَّ أدنى نظر دون تفكُّر ـ يحتاج إلى إعمال الذهن، وترتيب المقدِّمات للوصول إلى النتائج ـ

QaradawiBooks.com

يوصل إلى إدراك المراد، كأنَّ الأمر هنا أوضح من أن يحتاج إلى إعمال فكر، فالعقل الفطري البسيط بنظرة منه يعرف هذا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

والقرآن ـ كما ذكرنا من قبل ـ يهتم بهذا الجانب العقلي، أن يُعملَ الإنسانُ عقله، وقد نزل القرآن لقوم يعقلون، ولم ينزل لأولئك الَّذي أغلقوا عقولهم، أو عطَّلوا مداركهم، أو جمَّدوا ما وهَب الله لهم من أدوات المعرفة والفهم، فخرَّبوا الأجهزة الَّتي منَحهم الله إيَّاها، وإنَّما نزل القرآن لقوم يعقلون، فيستفيدون من الآيات الكونيَّة، ومن الآيات التَّنزيليَّة.. من الآيات المشهودة، ومن الآيات المقروءة.

وقد جاءت كلمة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ في أربع وعشرين آية من القرآن الكريم بالخطاب هكذا.

وجاءت ﴿يَعْقِلُونَ﴾ في اثنتين وعشرين آية، وهذا كله نداء للعقل أن يتحرَّك.

فإذا نظرنا إلى هذه الآيات الأربع، وجدنا أنَّها اهتمت بأربعة أشياء تعتبر أُسسًا للحياة الإسلاميَّة:

أولها: الإيمان بالله تبارك وتعالى.

وثانيها: اليقين بلقاء الله تبارك وتعالى.

وثالثها: التفكر في مخلوقات الله في كونه.

ورابعها: التعقل لآيات الله ﷻ.

QaradawiBooks.com

فالآية الأولى ختمت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بهذا الحقِّ الَّذي أنزله الله، فدلَّنا على أنَّ الإيمان أساسٌ لا بدّ منه.

وختمت الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾. فاليقين بالآخرة وبالجزاء وبلقاء الله تعالى أساس آخر.

ثم ختمت الآية الثالثة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وختمت الآية الرابعة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ونلاحظ أنَّ الآيتين الأوليين تتحدَّثان عن الإيمان واليقين، وأنَّ الآيتين الأخريين تتحدَّثان عن التفكُّر والعقل، وبهذا تقوم الحياة الإسلاميَّة على الإيمان بالله، واليقين بلقائه، وعلى التفكر والتعقُّل لآيات الله والنظر في كونه، وليس هناك انفصال بين الجانبين، ولا صراع بين المجالين.

احترام العقل واعتباره دليلًا على وجود الله ووحدانيَّته:

عرفت أديانٌ أخرى الصراعَ بين الدين والعلم، أو بين اليقين والفكر، أو بين العقيدة والمعرفة، أو كما عبَّر بعضهم بين الشريعة والحكمة، ولكن الإسلام لم يعرف هذا النزاع ولا هذا الصِّراع؛ لأنَّ الإسلام ـ كما قلنا دائمًا ـ يحترم العقل ويعتبره دليلًا على وجود الله تبارك وتعالى، وعلى وحدانيته، وعلى كمال صفاته، كما يعتبره دليلًا على الآخرة، وهو دليل أيضًا على ثبوت النبوة، لهذا فليس عندنا ـ نحن المسلمين ـ ما عند غيرنا من هذه المعركة التاريخية بين النقل والعقل، أو بين الوحي والحكمة، أو بين الدين والعلم.

QaradawiBooks.com

وهذا ما تدلُّ عليه هذه الآيات الكريمة، والآية الأخيرة: آيةُ الزرع والنخيل والأعناب آية واضحة، ولكن النَّاس غفلوا عنها مع أن بعض الشعراء مثل أبي نُواس على ما اشتهر عنه من مجون له أبيات لطيفة يقول فيها:

تأمَّلْ في نباتِ الأرضِ وانظرْ ... إلى آثارِ ما صَنَعَ المَلِيكُ
عيونٌ من لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بأغصانٍ هي الذَّهَبُ السَّبِيكُ
على قُضُبِ الزَّبَرْجَد شاهداتٌ ... بأنَّ الله لَيْس له شَرِيكُ[1]

وبعض الراجزين له كلمة في المعنى الَّذي ذكرته الآية يقول:

والأرضُ فيها عِبْرَةٌ للمُعْتَبِرْ ... تُخْبِرُ عن صُنْعِ مَلِيكٍ مُقْتَدِرْ
تُسقى بماءٍ واحدٍ أشجارُها ... وبقعة واحدة قرارُها
والشمسُ والهواءُ ليس يختلفْ ... وأُكْلُها مختلِف لا يأتلفْ
لو أنَّ ذا من عمل الطبائعِ ... أو أنَّه صنعةُ غيرِ صانعِ
لم يختلفْ وكان شيئًا واحدًا ... هل يشبه الأولاد إلَّا الوالدَا؟
الشمسُ والهواءُ يا معاندُ ... والماءُ والترابُ شيءٌ واحدُ
فما الَّذي أوجدَ ذا التفاضُلَا ... إلَّا حكيمٌ لم يردْه باطلَا[2]

تعجيب الله تعالى رسوله من الجاحدين للبعث:

هذا هو الله ﷻ، ولذلك بعد أن ذكر هذه الآيات عَجَّب الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ ـ وهو تعجيبٌ لغيره أيضًا من باب أولى ـ من هؤلاء

(١) أحسن ما سمعت للثعالبي صـ ١٠، تحقيق خليل عمران المنصور، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

(٢) الأبيات ذكرها أبو حيان ولم ينسبها في البحر المحيط (٣٥٠/٦)، تحقيق صدقي محمد جميل، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

QaradawiBooks.com

الَّذين يجحــدون البعث والمعاد، مع وضوح هذه الآيــات البيِّنات. قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

ومع وضوح الآيات الَّتي تدلُّ على وحدانية الله، وعلى وجوده، وبالغ حكمته، وعظيم قدرته، وعلى أنَّه لا يمكن أن يترك هذا الكون عبثا: ذكر القــرآن هنا ثلاثة مواقف مــا كان ينبغي أن يقفها هــؤلاء الكافرون بعد وضوح هذه الآيات.

الموقف الأول: إنكار البعث والمعاد، و**الموقف الثاني**: الاســتعجال بالسيئة قبل الحســنة، **والموقف الثالث**: اقتراح آيات غير القرآن: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

فأمَّا الأول: إنكار البعث: فهو اســتبعاد أن يُنشــئَ الله النَّاس مرَّة أخرى بعد أن هلكوا، بعد أن رمّــت العظام وبليت، كما قال أحدهم لرسول الله ﷺ، وجاء له بعظم قد رمّ وبلي، وجعل يذروه في الرياح: أيُحيي اللهُ هــذا يا محمَّــد؟! قال ﷺ: «**نعــم، ويُحْيِيــكَ ويبعثُكَ، ويُدخلُك النَّار**»[1].

وجاء في هذا قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

والقرآن يحكي عن هؤلاء هذا الإنكار وهذا الاستبعاد: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ أبعد أن نموت ونبلى وتُصبح أجسامنا ترابًا:

(١) رواه عبد الرزاق في تفســيره (٢٤٩٨)، عن قتادة. تحقيق د. محمود محمد عبده، نشــر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

QaradawiBooks.com

﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟! وهذا الاستفهام إنكاريٌّ، ينكرون فيه هذا الأمر، أمعقول أن نُخلق خلقًا جديدًا؟ نُبعث ونكون في خلق جديد؟ يخلقنا الله ويعيدنا بعد أنْ أصبحنا ترابًا؟!

وقد ذكر القرآن هذا الإنكار في غير ما موضع: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧]، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦]، وغير ذلك ممَّا حكاه القرآن عن استبْعادهم أن يعيدهم الله بعد أن بلَوا وأصبحوا ترابًا.

معارك القرآن الفكرية والعقدية الكبرى:

وقد خاض القرآن الكريم معارك ممتدة حامية الوطيس، خلال العهد المكّي كله، حفلت بها سور القرآن المكّي، ولم تَخْل منها السور المدنيَّة. ومعركة التوحيد هي أمُّ المعارك الفكريَّة والعقديَّة الكبرى الَّتي خاضها القرآن الكريم، ومنها معركة الآخرة والجزاء، ومعركة النبوَّة والرسالة.

حفل القرآن الكريم بتلك المعارك ليخرج أولئك الَّذين عاشوا في ظلمات الجهالة والتقليد والعبودية للوثنيَّة والجاهلية؛ ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

معركة البعث والجزاء في القرآن:

كانت معركة البعث والجزاء والخلود في الآخرة إحدى هذه المعارك الأساسيَّة، ومن هنا ذكر القرآن الكريم يخاطب النبي ﷺ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

QaradawiBooks.com

هل هذا الخطاب للنبيِّ ﷺ؟ أو لكل من يَصلح له الخطاب، فهو خطاب عام؟

الأصل أنَّه للنبيِّ ﷺ؛ لأنَّ السورة من أولها: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وبعد ذلك: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [الرعد: ٦]، وبعده: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]. فالخطابُ مع النبيِّ ﷺ مستمر، ولكنَّه يصلح أيضًا لكلِّ من يتأتَّى له الخطاب كما يقال: «إيَّاك أعني واسمعي يا جارة».

والمعنى: إنْ تعجب يا محمَّد.. إن يكن منك عجب من شيء، فالعَجَبُ كلُّ العَجَب، وعَجَب أي عَجَب، وعَجَب غريبٌ حقًّا؛ هو قول هؤلاء النَّاس المطموسين المقلِّدين: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟!

وقد تكرَّر هذا الاستفهام الإنكاري مرتين في هذه الفقرة دلالة على تأكيد الاستنكار من هؤلاء.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: القرآن هنا لم يردّ عليهم، لأنَّه اكتفى بما ذكر من الآيات، ففيها غُنْية عن الرد، ولذلك اكتفى بأن دمغهم بالكفر والجحود: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾.

والكفر في لغة العرب معناه: الستر والتغطية، فكأنَّ هؤلاء غطوا الحقائق وغلفوها بغلاف، بحيث لا ينظرون لها، ولا يلتفتون إليها: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ فأعماهم الكفر عن أن يروا قدرة الله تبارك وتعالى، وقد رأوا من آياته ما رأوا.

QaradawiBooks.com

ومن أجل ذلك يُسمَّى الزارع كافرًا؛ حيث يكفر البذرة، ويغطيها في التراب، ولهذا قال بعض المفسِّرين في قوله تعالى: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠] أي: أعْجَبَ الزُّرَّاع.

ويُسمَّى الليل كافرًا؛ لأنَّه يستر ما فيه بالظلمة، وفي بعض اللغات الأجنبية «كفر» (COVER) بمعنى غطَّى أو هو نوع من التغطية، ولعلها أخذت من العربيَّة، فالكافر هو الَّذي يستر الحقيقة بجهله، أو بعناده، أو بتقليده الأعمى، أو بكبريائه وحسده.

إنَّ الحقيقة واضحة ولكنَّه يستُرها: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

الكفر بالبعث كفر بقدرة الله تعالى وعدله وحكمته:

ويبرز هنا سؤال: لقد كفر هؤلاء بالآخرة والبعث وإعادة الأموات، فلماذا اعتبر القرآن هذا كفرًا بالله تبارك وتعالى؟

ذلك، لأنَّ من كفر بالبعث بعد الموت فهو في الحقيقة قد كفر بالله تبارك وتعالى، فالقضيَّة مبْنيَّة على استبْعاد أن يحدث هذا فكأنَّ هذا إنكار لقدرة الله تعالى على الإعادة والإحياء، والقرآن يقول: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]. إنَّ الله لم يعي بالخلق الأول ولم يعي بما هو أكبر من خلقكم، فقد خلق السماوات والأرض: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ

QaradawiBooks.com

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡۦِيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

لذلك كان الكفر بالبعث والمعاد وبالساعة كفرًا بالله تبارك وتعالى، وقد ذكر القرآن لنا في سورة الكهف قصَّة صاحب الجنتين: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ۞ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ۞ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ [الكهف: ٣٥ ـ ٣٧].

لماذا دمغه بالكفر بالله تبارك وتعالى؛ مع أنَّه كفر بالساعة فقط حين قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾؟ لأنَّ من كفر بالساعة وكفر بالمعاد وكفر بالبعث، فقد كفر بالله تبارك وتعالى.. كفر بقدرة الله على الإعادة والبعث والإحياء، وكفر من ناحية أخرى بعدل الله تبارك وتعالى وحكمته؛ لأنَّه نَسَبَ إلى الله تعالى أنَّه خلق هذا الكون عبثًا، وأنَّه خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلًا!

فمعنى أن لا معاد ولا بعث ولا جزاء: أن ينهدم هذا السُّرادق الكبير الَّذي أقامه الله تبارك وتعالى، وقد ظُلِمَ فيه من ظُلِمَ، واضْطُهِدَ فيه من اضْطُهِدَ، وقُتِلَ فيه من قُتِلَ، واستُشْهِدَ فيه من استُشْهِدَ، وفَعَل الطغاة والمستكبرون الأفاعيل، وارتكبوا الموبقات، وعبُّوا من الشهوات عَبًّا، وسفكوا دماء النَّاس سفكًا.. بنوا قصورهم من جماجم البشر، وزخرفوها بدماء الخلق، دون أن يُجْزى هؤلاء، فقد أفلتوا من عدالة الأرض، وأفلتوا من عدالة السماء.. لم يُعاقبوا في الدنيا؛ لأنَّ من السَّهل في الدنيا أن يفلت الإنسان من العقوبات الأرضيَّة ومن العقوبات القانونيَّة، وقد يكون

QaradawiBooks.com

هذا الإنسان نفسه هو واضع القانون وهو ظالم، أو حارس القانون، ولكن «حاميها حراميها» كما يقولون!

وراعي الشَّاةِ يحمي الذئبَ عنها فكيف إذا الرُّعَاةُ لها ذئابُ[1]؟!

هؤلاء الَّذين طَغَوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، وارتكبوا الشرور، وقبائح الأمور، وانتهت الدنيا ولم يأخذوا عقابهم، وأولئك الَّذين عاشوا في الدنيا للخير ولكنهم لم يُكافؤوا عليه، وتنكَّر لهم النَّاس أو اضطهدوهم، أو قُتلوا ظلمًا، كالمؤمنين الَّذين ذكرهم الله تعالى في سورة البروج: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]. وغيرهم من الأنبياء والشُّهداء والصِّدِّيقين والصَّالحين، الَّذين حَفَل بهم تاريخ الدعوة إلى الله ﷻ، إذا انهدم هذا الكون ولم يُجْزَ المحسنُ بإحسانه، ولا المسيءُ بإساءته، فمعنى ذلك أنَّه ليس هناك عدالة، وليس هناك حكمة، كأنَّما اتَّهمنا صانع الكون ومُدبِّره بأنه لم يقمه على الحق والحكمة، وهذا ما نفاه الله تبارك وتعالى، ونزَّه ذاته المقدَّسةَ عنه، يقول الله ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٤٠].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ وَخَلَقَ ٱللَّهُ

(١) ذكره من غير نسبة: الدميري في حياة الحيوان الكبرى (٥٠٤/١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ.

QaradawiBooks.com

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢].

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۞ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

لا يستويان في عدل الله ﷻ، ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، هذا هو الباطل الَّذي يتنزَّه الله تبارك وتعالى عنه، ولذلك كان الَّذين ينكرون البعث والجزاء في دار غير هذه الدار، تُوفَّى فيها كلُّ نفس ما كسبت، وتُخلَّد فيما عملت، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. كان إنكار هذا بمثابة اتِّهام للعدالة الربَّانيَّة وللحكمة الإلٰهيَّة، ومن هنا كان هذا كفرًا بالله تبارك وتعالى.. كفرًا بالقدرة الربَّانيَّة، وكفرًا بالحكمة والعدالة الإلٰهيَّة، ولا عجب أن يقول القرآن: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ جحدوا قدرته، أو عدله وحكمته ﷻ، ولم يقوموا بحقه.

طريقة القرآن في مقابلة الكفر بالشكر وبالإيمان:

والكفر أحيانًا يقابل الشكر، وأحيانًا يقابل الإيمان، فإذا كان كفرًا بالمنعم نفسه قابله الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [النساء: ١٣٧]، وإذا كان كفرًا بالنعمة قابله الشكر كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ﴾ [النمل: ٤٠]. وقوله: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ وَلَئِن

QaradawiBooks.com

﴿كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]. فالذين كفروا بربِّهم، كفروا بالنِّعمة وكفروا بالمنعِم.

هؤلاء الَّذين أنكروا البعث، وعجبوا ممَّا لا يجوز التَّعجُّب منه؛ إذ أصل التعجب أنَّه حالة تعرِض للإنسان إذا رأى ما لا يعهد مثله ولا يعلم سببه، أمَّا الشيء الَّذي يعهد مثله أو يعرف سببه، فلا ينبغي أن يتَعجَّب منه، ولذلك يقول الناس: «إذا عُرِفَ السببُ بطل العَجَب».

فإحياء الله تعالى الموتى أمرٌ يُعهد مثله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]. وهناك إحياء الأرض بعد موتها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]. فهذا أمرٌ يُعهد مثلُه، ويُعرف سببُه، فالله ﷻ هو فاعل هذا، هو صاحب هذا الكون ومنشئه، هو الَّذي لا يُعجز قدرتَه شيء: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فما كان ينبغي العجب إطلاقًا.

معنى الأغلال في أعناق الكفار:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾.

هذه الأغلال: أي السلاسل في الأعناق: أهي أغلال في الدنيا؟ أم هي أغلال في الآخرة؟ أم هي الأمران معًا؟ وهذا معقول، فأغلال الدنيا أغلال معنوية كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۞ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٨، ٩]. هذه القيود والأغلال الفكريَّة، أغلال التقليد

QaradawiBooks.com

الأعمى الَّتي تجعل بعض النَّاس لا ينظرون إلى الحقائق وهي واضحة، ولا إلى الآيات وهـــي بيِّنة، ولا إلى الدلائل وهـــي أظهر ما تكون، إنَّما يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ويقولون: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وكما يقول الشاعر:

أين الرَّشـــادُ وقد خُلِّفْتُ في نَفَرٍ لهم عن الرُّشْـــدِ أغلالٌ وأقيادُ[1]؟

هذه هي الأغلال الَّتي تجعلهم يعيشـــون في داخل الضلال مغلولين مُقيَّدين لا خَلَاص لهـــم، وهذه الأغلال الدنيويَّة تـــؤدِّي في الآخرة إلى أغلال أخرى حيث تغل أعناقهم ويُسْحَبُون إلى النار، والعياذ بالله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢]، ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]. فأغلالُ الدنيا هي الَّتي تُؤدِّي بهم إلى أغلال الآخرة.

أصحاب النار:

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: هم أصحاب النَّار الملازمون لها، وقد أصبحت صحبة بينهم وبينها، وهم الَّذين ألقوا بأنفسهم في هذه النار، فما الَّذي أرْداهم في النار، وما الَّذي ســـلكهم في سقر؟ إنَّه الكفر بربِّهم، وبآيات ربِّهم؛ برُغم ما وضع الله لهم من دلائل، وما وضَّح لهم من آيات.

وأصحاب النَّار تعبيرٌ قرآني تكرَّر كثيرًا، وفي مقابله أصحاب الجنَّة، وإنَّما سُـــمُّوا أصحاب النـــار؛ لأنَّهـــم مصاحِبون لها، طالـــت ملازمتهم

(١) من شـــعر الأفوه الأودي. انظر: ديوانه صـ ٦٧، تحقيق د. محمد التونجي، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

QaradawiBooks.com

ومعاشرتهم لها، ومخالطتهم لأنواع عذابها، فهم معذَّبون فيها، يلازمونها وتلازمهم، وقد جاء التعبير بأصحاب النَّار مرَّة واحدة عن الَّذين يتولَّون خزانتها، ويقومون على التعذيب فيها، وذلك قول الله تعالى في سورة المدَّثر: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر: ٣١]، أمَّا في باقي المواضع فأصحابُ النَّار هم الَّذين دخلوها واستحقُّوا العذاب فيها، فهم أصحابها، وهي صاحبتهم، وبئست الصُّحبة!

الخلود في النار:

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: الخلود في اللغة هو المكث الطويل، وخلود كلِّ شيء بحسبه، فخلود الكفار في النَّار خلود بلا موت؛ كما صحَّ في الحديث: «**يا أهلَ النَّار، خلودٌ فلا موت، ويا أهلَ الجنَّة، خلودٌ فلا موت**»[1] إلى ما شاء الله، وليس الخلود مائة سنة أو مليون سنة أو تريليون سنة؛ ولكنَّه خلود الأبد: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

حكم الله على هؤلاء الَّذين أنكروا البعث، واستبعدوا أنْ يحيي الله النَّاس بعد موتهم فكفروا بربهم، كفروا بقدرته وبشمول قدرته، وكفروا ببالغ حكمته، وكفروا بكمال عدله وملكه وحمده.

* * *

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٣٠)، ومسلم في صفة الجنة (٢٨٤٩)، عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۞ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٦، ٧]

الاستعجال بالسيئة قبل الحسنة:

تكلمنا فيما مضى عن موقف الكافرين الأوَّل، الَّذي سجَّله القرآن الكريم من إنكارهم للبعث والمعاد، وبين أيدينا الآن موقفهم الثاني الَّذي سجَّله القرآن الكريم من الاستعجال بالسيِّئة قبل الحسنة، تلك المقولة من مقولاتهم، وهي من نتائج الكفر الَّذي ينضح بهذه الرذائل والجرائم.. رذيلة تلوَ رذيلة، وجريمة بعدَ جريمة، أنَّهم يستعجلون رسول الله ﷺ بالسيِّئة قبل الحسنة، والمراد بالسيئة هنا: العقوبة تنزل عليهم من السماء.

فكلمة السيئة والحسنة تَردان في القرآن بمعنيين: السيئة بمعنى المعصية، والحسنة بمعنى الطاعة كما في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وتردان بمعنيين آخرين، الحسنة: النعمة تنزل بالإنسان تسرُّه، والسيئة: النقمة والمصيبة والعقوبة تنزل بالإنسان فتسوؤه، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨].

فالحسنة هنا بمعنى النعمة؛ يقولون: من عند الله، والسيِّئة بمعنى المصيبة، يقولون: من شؤم محمد!

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ويقول الله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. وهذا كثير في القرآن: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] أي: بالنِّعم والمصائب، ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ [الأعراف: ٩٥].

جناية الوثنيَّة على عقل الإنسان:

فالمراد هنا ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾: المصيبة والنعمة، وحينما يستعجلون رسول الله ﷺ يستعجلونه العقوبة لتنزل بهم، وهذا للأسف من جناية الجاهلية على عقل الإنسان، فمن جناية الوثنيَّة أن يستعجل الإنسان ما يضره: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤]، ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۞ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۞ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ١ ـ ٣].

وهذا السؤال واستعجال العقاب هو من غبائهم وجهلهم؛ كما حكى عنهم القرآن: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

أرأيتم خَبَلًا أشدَّ من هذا الخبل؟ كان المعقول أن يقولوا: اللهمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك؛ فاهدنا له، ووفقنا إليه، أمَّا أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك؛ فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائْتنا بعذاب أليم؛ فمعناه أنَّهم لا يريدون هذا الحق الَّذي جاء به محمد بن عبد الله؛ حتَّى وإن كان حقًّا واضحًا صُرَاحًا، فهذا هو الغباء، وهذا هو الجهل الَّذي تجْنيه الجاهليَّة الوثنيَّة على الإنسان: أن يستعجل بعذاب الله ﷻ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]،

QaradawiBooks.com

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۞ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الحجر: ٦، ٧] بالملائكة وليس بالعذاب، ولكن الملائكة تنزل في وقت مُعيَّن، والله لا يعجِّل بعجلة الإنسان، فالعقاب ينزل ولكنَّه ينزل في أجل مُسمًّى في وقت معلوم قدَّره الله تعالى بمشيئته المرتبطة بحكمته، وهو لا يعاجل النَّاس بالعقوبة، وإن طلبوا هم هذه العقوبة، وإن سألوها بغفلتهم وجهلهم وضلالهم، بل يقيم عليهم الحُجَّة بعد الحُجَّة، ويقطع عنهم التَّعلَّة والأعذار، ويرخي لهم العنان، ثم بعد ذلك يكون عقابه الشديد الأليم.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾: بالشر قبل الخير، وكان المعقول أن يستعجلوا بالخيرات قبل الشرور، بالنِّعم بدل المصائب، ولكنهم فعلوا غير ذلك!

العقوبات الإلٰهية أصبحت أمثالًا سائرة:

﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُ﴾: قد مضت العقوبات الإلٰهية الواضحة الَّتي نزلت بمن قبلهم من الأقوام الَّذين كذَّبوا بآيات الله وعَصَوا رُسُله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ [هود: ٥٩]. فنزلت بهم العقوبات الإلٰهيَّة الَّتي أصبحت أمثالًا سائرة، وهذا معنى ﴿ٱلۡمَثُلَٰتُ﴾.

ومن هذا ما نزل بقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب.. بالأقوام المشركة الكافرة، نزل بهم عذاب الله؛ ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [هود: ١٠١].

جاء أمر الله ليلًا أو نهارًا فجعل الله تلك القرى: ﴿حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ [يونس: ٢٤].

QaradawiBooks.com

قد خلت من قبلهم الْمَثُلَاتُ؛ ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

ألم تروا مدائن صالح وغيرها في طريقكم إلى الشام وغيرها، تمرُّون عليهم مصبحين وبالليل، ألم تسيروا في الأرض فتنظروا كيف كان عاقبة الَّذين من قبلكم أثاروا الأرض وعمروها أكثر ممَّا عمرتموها، وكانوا أكثر أموالًا وأولادًا، وأشدَّ قوة وأعزَّ نفرًا، وكان هذا مصيرهم، فكان يجب أن تعتبروا بمصاير هؤلاء، وأن تنتفعوا بالتاريخ بدل أن تغمضوا أعينكم عن هذه الصفحات البَيِّنة، من مصاير الأقوام المكذِّبين من قبلكم، وكان ينبغي أن تأخذوا منها دروسًا بليغة، فالتاريخُ واعظٌ ومعلِّمٌ ولكن لمن؟ لأولي الألباب: ﴿كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

ولكن هؤلاء ليسوا من أولي الألباب، أفقدهم لبَّهم وأفقدهم عقلَهم هذا الشِّركُ، الَّذي هو وكر للضلالات والخرافات، يقول الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾: مصاير الأقوام الَّذين كانوا قبلهم: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. وكلُّ واحد من هؤلاء الأقوام، كانوا أشدَّ من هؤلاء!

ليست قريش، وليس عرب مكة، ولا عرب الحجاز أشدّ ممَّا كانت عليه عاد، الَّذين استكبروا في الأرض: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصِّلت: ١٥]. وليسوا مثل: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٧، ٨]، وليسوا كمثلِ ثمودَ: ﴿ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٩].

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

وليسوا كفرعونَ ذي الأوتاد وصاحب الأهرام. لن يكونوا مثل هؤلاء الأقوام، لقد أُوتوا أكثرَ ممَّا أوتوا من وسائل القوة، وأسباب الحضارة والعمران والمَنَعَة والعزَّة، ولكن هذا كله لم يُغْنِ عنهم من الله شيئًا، حينما جاء أمر الله لم يُغْنِ عنهم العدد ولا العُدد: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

مجامع الحمد والكمال لله ﷻ:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]. هذا هو شأنُ الربوبيَّة: مغفرةٌ من ناحية، وعقابٌ شديد من ناحية أخرى، ومن أجل هذه المغفرة أمهلهم وتركهم. كان يقدر أن يعجلهم بعقوبته، ولكنَّه أمهلهم وأعطاهم فرصة بعد فرصة، عسى أن يهتدي الضَّال، وعسى أن يرشد الغاوي، وعسى أن يستقيم المعوج.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾: مع ظلمهم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ في الوقت نفسه، وهذا هو شأن الربوبيَّة في القرآن الكريم، ومن قرأ الإنجيل وجد فيه جانب المغفرة والرحمة غالبًا، ومن قرأ التوراة وجد جانب العقوبة والسطوة والانتقام هو الغالب، ولكن القرآن يصف لنا اللهَ ﷻ بمجامع الحمد والكمال: المغفرة من ناحية، والعقاب من ناحية.

﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

QaradawiBooks.com

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [غافر: ٣].

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة: ٩٨].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [فصلت: ٤٣].

هذا هو شأن الربوبيَّة، اللهُ تعالى يتَّصف بالجلال والجمال، ولذلك فبعض الصفات تجلَّى فيها الجلال والرهْبة، وأخرى تجلى فيها الجمال: البسط والقبض، أو كما جاء في القرآن: الجلال والإكرام: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧]. وإن كانت صفة الرحمة أغلب، ولهذا نجد في القرآن أنَّ المغفرة والرحمة من أسمائه وأوصافه، وأنَّ العقاب من أفعاله، ولذلك يقول: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]. ولم يقل: وأني أنا المُعذِّب، فليس من أسمائه الحُسْنى المعذِّب، وإنَّما من أسمائه: الغفور الرحيم، فالرحمة أغلب: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ولكنَّه يذكر لنا الأمرين معًا؛ لأنَّ هذا هو الواقع.. هذه هي صفات الله ﷻ.

بين الرجاء والخوف:

ومن ناحية أخرى، هكذا تكون التربية: ترغيب وترهيب، ترْجيةٌ وتخويف، ينبغي أن يكون الإنسان دائمًا بين الرجاء والخوف، لا يغلب عليه الرجاء حتَّى يبلغ درجة الأمن من مكر الله: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ولا يغلب عليه الخوف حتَّى يبلغ درجة اليأس من رَوْح الله: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا

QaradawiBooks.com

﴿ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، إنَّما يكون دائمًا راجيًا خائفًا: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

الرجاء يقوده، والخوف يسُوقه، كما ذكر الإمام الغزالي: أنَّ النفس الإنسانية أشبه بالدابَّة الحرون، تحرن الدابَّة على الإنسان أحيانًا فتحتاج إلى شيء من الشعير أو غيره يلوح لها به، وأحيانًا تحتاج إلى سوْط فيضربها، وهكذا الإنسان يحتاج أيضًا إلى هذا الرجاء وإلى ذلك الخوف[1].

ومن هنا جاء الأمران معًا في القرآن الكريم، وجاءت صفات الله تعالى تمثِّل الأمرين، وجاء ذكر الوعد والوعيد، والجنَّة والنَّار: ﴿وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، وهكذا ينبغي أن يفهم القرآن الكريم.

لا يؤاخذ الله النَّاس بكل سيئاتهم:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾: مع ظلمهم إنَّ ربَّك لذو مغفرة لهم، ولهذا لا يعاجلهم بعقوباته: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١]. لا يُؤاخذ الله النَّاس بظلمهم بِكلِّ سيِّئاتهم، قد يؤاخذهم ببعض ذنوبهم، ببعض ما عملوا: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: واسم الربِّ من التربية، وهذا من تربيته ﷻ.. يُرَبِّي الناسَ بإظهار المغفرة الواسعة، وبإظهار العقاب الشَّديد.

---

(١) إحياء علوم الدين (١٥٧/٤).

QaradawiBooks.com

وقد جاء وصف الله تعالى بشـدَّة العقاب في القرآن في أربعة عشر موضعًا، وذلك أنَّ العقاب الهيِّن لا يؤثِّر فـي المجرمين، وخصوصًا إذا أصرُّوا على إجرامهم، وَلَجُّوا في طغيانهم؛ فلا بدّ حينئذ أن تكون العقوبة شديدة، أمَّا العقوبة الشكليَّة أو السطحيَّة فهي لا تنفع مع هؤلاء الناس.

سُنَّة الله في الثواب والعقاب:

سُـنَّة الله في الدنيا والآخرة هي إثابة المحسـن وعقوبة المسـيء، الثواب والعقاب. على هـذا قامت هذه الحياة الدنيـا، وعلى هذا تقوم الحياة الأخرى، لا تستقيم الحياة بغير هذا. كما قال ذو القرنين من قديم: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۞ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨].

أمَّا أن يُحْسِـنَ المحسـنُ ولا يكافَأ على إحسـانه، ويسيء المسيء ولا يُعاقَب على إسـاءته، فهذا مصدر من مصادر الشرور والآثام، ولهذا إذا فعل الإنسان الخير وأحسـن، ولم يقل له أحد كلمة شكر، ولم يُثَبْ ماديًّا ولا أدبيًّا، مع أنَّ المثوبـة الأدبيَّة تكون مجزية أحيانًا، أن تقول له: أحسـنت.. أن تعترف له بالفضل؛ إذا لـم يحدث هذا وقُوبِـلَ بالتنكُّر والإساءة، فقد يؤدِّي هذا إلى أن يتَنكّب الإنسان عن فعل الخيرات، وعن أداء الحسنات، كذلك إذا ظلَّ المسيء يسيء، ويبالغ في الإساءة، ويستمر فيها، وينتقل من سـيئ إلى أسـوأ، ومن الأسـوأ إلى الأشـد سـوءًا، ولا يعاقب على ذلك فمعنى هذا أننا نفتح الطريق للشر ليتمادَى ويتفاقم، ولهذا يقول النَّاس: «مَنْ أَمِنَ العقوبة أساء الأدب».

سُنَّةُ الله أن يثيب المحسنين، ويعاقبَ المسيئين، وخصوصًا إذا كانت الإساءة بالغة، وكانت بعد إبلاغ الحجَّة وقطع العذر، فلا تنزل العقوبة إلَّا

QaradawiBooks.com

بعد أن يتَّضح الأمر تمامًا: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ [الأنفال: ٤٢]. حتَّى وإن طلبوا العقوبة لكنَّهم لا يعاقبون، ولكن عندما تنزل العقوبة الإلٰهيَّة فما أشدَّها وما أوجعها!

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وكما قال ﷻ: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]، وفي هذه السورة يقول: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢]. إنَّه العقاب الشديد الأليم، الَّذي من شدَّته لا يُقاوَم، ولا يفلت أحد منه، حتَّى إذا ظنَّ قومٌ أنَّهم يستطيعون بوسيلة من الوسائل أن ينجوا من عقاب الله، فهيهات هيهات، كما قال الله تعالى في يهود بني النضير: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ [الحشر: ٢]، وكما ظنَّ الابن الكافر لنوح: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

عقابُ الله شديدٌ لا يقاوم، وهذا عقاب الدنيا، وهناك عقاب في الآخرة: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]. عذابُ الآخرة أشدُّ وأخْزى وأنكى، وعذاب الدنيا بالنسبة لعذاب الآخرة لا يكاد يُساوي شيئًا، لأنَّه عذاب ينتهي في لحظات.

اقتراح الآيات الكونيَّة:

ثم يأتي الموقف الثالث للكافرين الَّذي سَجَّله القرآن الكريم في الآية التالية فيقول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٖ﴾ [الرعد: ٧].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقد تكرَّرت عبارة: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ هذه في تلك السورة ثلاث مرات، في هذا الموضع، وفي قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴾ [الرعد: ٢٧].

والآية الثالثة: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣].

وصفهم الله تعالى بهذا الوصف: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾. وهذا يُؤذِن بأنَّ الَّذي أدَّى إلى هذه المقولة إنَّما هو كفرهم، فالكفر شجرة خبيثة لا ينبتُ منها إلَّا خبيث ولا تثمر إلَّا خبيثًا، فالكلمات الخبيثة من نتاج هذا الكفر، فهو ينعى عليهم هذا الكفر الَّذي أدَّى إلى هذه المقولات السخيفة.

يقول الَّذين كفروا من مُشركي مكة ومن مُشركي العرب: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟ و«لولا» هذه تحضيضيَّة؛ كما يقول علماء النحو؛ أي: هلَّا أُنزل عليه آية من ربِّه! يقصدون آية من آيات الخوارق الكونيَّة الحسِّيَّة، كما أُنزل على موسى، وقد جعل الله من آياته: العصا تنقلب حيَّة، واليد يخرجها من جيبه فتصبح بيضاء من غير سُوء، وكان موسى أسمرَ اللون، والآيات التسع الَّتي ذكرها الله تعالى في القرآن[1]، وكما أنزل على عيسى، وقد جعل الله من آياته: إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، ويخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، فهم يريدون أن تكون آيةُ محمَّد ﷺ من هذا النوع من الآيات، ولكنَّ

(١) قال ابن كثير: وهي الدلائل القاطعة على صحَّة نبوته وصدقه فيما أخبر به؛ وهي: يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. انظر: تفسير ابن كثير (٦٦/٣).

QaradawiBooks.com

الله ﷻ أراد أن تكون آية محمد ـ الأولى والعظمى ـ آية من نوع آخر: آية عقليَّة.. وآية أدبيَّة، تلائم ما انتهى إليه هذا الطوْر من أطوار البشريَّة.

فقد نضجت البشريَّة وبلغت أشدَّها ورشـــدها، ولم يعد يناسبها في هذه الرســـالة العامَّة الخالدة الَّتي خُتمت بها الرسالات: آيات من تلك الآيات الماديَّة الحسيَّة الَّتي تنتهي بمجرَّد وقوعها، ونحن الآن لا نعايش آية موســـى، ولولا أنَّ القرآن حدَّثنا عن العصا وعن اليد ما عرفنا عنهما شيئًا، وكذلك آيات عيســـى الَّتي ذكرها القرآن، وفي القرآن بعض آياتٍ لعيســـى ليســـت في الإنجيل.. حتَّى أناجيل النصارى ليســـت فيها هذه الآيات، مثل آية المائدة وغيرها، فهذه الآيـــات انتهت بمجرَّد أن وقعت ورآها الَّذين شاهدوها، أمَّا من بعدهم فلم يروا شيئًا.

معجزة القرآن الكريم:

أمَّا القرآن الكريم الَّذي أنزله الله على محمَّد ﷺ فهو آية عقليَّة معنويَّة أدبيَّة، تبقى ما بقـــي الزمان وما بقي المكان، لذلـــك فهي موجودة إلى الآن، والتَّحدِّي بها مستمر، لأنَّ الأمَّة أمَّة خالدة، والرسالة رسالة خالدة دائمة، فلا يناســـبها الآيات الَّتي تنتهي بانتهاء وقتهـــا، ثم هي تخاطب العقل فهي من جنس نفس الرسالة.

ويضرب ابن رشد لنا المثل فيقول: لو أن إنسانًا جاء فقال: أنا طبيب فسألته: ما دليلك على أنك طبيب؟ فقال لك: دليلي على أنِّي طبيب أنِّي أطير في الهواء، فهذا شيء مدهش فعلًا، لا تستطيع أن تفعل شيئًا أمامه، ولكن لو قال لك: دليلي على أنِّي طبيب: أنِّي أداوي المرضى فيشـــفون بإذن الله، فأيهما أدل على الدعوى؟ لا شك أن مداوةَ المرضى أدل على صدق الدعوى، وهذا هو ما جاء به محمد ﷺ.

QaradawiBooks.com

ما دليلك على أنك رسول؟ هذا القرآن الَّذي تضمَّن هداية الله تبارك وتعالى للبشر، يهدي للتي هي أقوم، وتضمَّن من أنواع الإعجاز ما أعجز العرب أن يأتوا بمثله، أو بعَشر سور من مثله، أو بسورة من مثله، ولا زال يحمل الإعجاز إلى اليوم، فدليله هو هذه الهداية، أنَّه يهدي بالفعل.

القرآن آيةٌ وهدايةٌ معا: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧]. فمن أجل هذا لم يستجب القرآن لمقترحات هؤلاء النَّاس المتعنِّتين الَّذين يطلبون آية كونيَّة خارقة، فلو كانوا يعقلون لكفاهم الآيات الكونيَّة الَّتي عرضها القرآن في أوائل هذه السورة المبثوثة في الأنفس والآفاق، وكانت جديرة أن تقنعهم؛ ولكنهم لا يعقلون!

لم تكفهم هذه الآيات وطلبوا آيةً واحدة من الآيات الخوارق، ألا تدلُّكم هذه الآيات الضخمة على عظيم صنع الله تبارك وتعالى وعلى بديع حكمته؟! ثم ألم يَكْفِكم القرآن الكريم آية؟ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

تركوا هذا كلَّه وطلَبوا مُتعَنِّتين آيات أخرى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ

QaradawiBooks.com

سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ۞ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٤]. وليس من شأن الرسول أن يفجر الأرض ينابيع، أو يقلِب الجبال ذهبًا، إنَّما جاء الرسول ﷺ ليُغيِّر من أنفس الناس، ليحوِّلوا هم الأرضَ إلى مروج وأنهار، وليجعلوا من الجبال ذهبًا لو أرادوا، فهذا شأن الإنسان، وليس من شأن النَّبي ﷺ، وليس من شأن القرآن كما سيأتي في هذه السورة: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ [الرعد: ٣١]. أي: لكان هذا القرآن.

ظهور آيات كونيَّة كثيرة على يد الرسول ﷺ:

وليس معنى هذا أنَّ الله ﷻ لم يظهر آيات كونيَّة خارقة على يد محمد ﷺ؛ بل أظهر آيات وآيات، ومن قرأ السنَّة النبويَّة الصحيحة، والسيرة المحمديَّة الثابتة، وَجَدَ عشرات ومئات من الآيات الكونيَّة لرسول الله ﷺ تضمَّنتها كتب تُسمَّى «دلائل النبوَّة» ألَّف فيها الإمام أبو نُعيم الأصفهاني، والإمام البيهقي، وغيرهما من الأئمة، وذكر منها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح» مجموعة ضخمة، ملأت عشرات الصفحات من كتابه؛ ممَّا ثبت بصحيح السُّنَّة عن النبي ﷺ، من الأشياء الَّتي أعطاها الله تعالى له، والقرآن يحوي من هذه الأشياء.

وللأسف هناك من النَّاس من يكذب بهذه الأشياء، لكنهم إذا كذَّبوا بالحديث كلِّه فما بالهم بالقرآن؟ وفي القرآن الإسراء أليس آية كونيَّة خارقة؟ وهو ثابت بالقرآن، وسُمِّيت باسمه سورة من كتاب الله بدأت بقول الله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى

QaradawiBooks.com

ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

وفي القرآن أيضًا المعراج كما أشارت إليه سورة النَّجم: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۞ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٦].

وإنزال الملائكة في بدر والخندق وحُنين، وإنزال جنود غير مرئيَّة في رحلة الهجرة: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]. إلى آخر هذه الآيات المذكورة في القرآن الكريم.

من رحمة الله ﷻ عدم الاستجابة لمطالب الكفار التَّعنتيَّة:

فالآياتُ أُعطيت للنَّبيِّ ﷺ؛ ولكنَّها لم تكن إجابة لهؤلاء، فالله قد عَرَج بمحمد في السماء، ولكن هذا لم يكن إجابة لطلب المتعنِّتين: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ [الإسراء: ٩٣]، وكان هذا لطفًا من الله ﷻ بهذه الأمة أيضًا، لأنَّ من سننِ الله تبارك وتعالى أنَّه إذا طلب قومٌ آية من الآيات، ثم أنزلها الله ﷻ وَفْقَ ما طلبوا، ثم قابلوها بالتكذيب والجحود، فإنَّ الله ﷻ يعاجلهم بالعقوبة، ويأخذهم أخذًا أليما شديدًا.. يستأصل شأفتهم، وهذا ما فعله الله تعالى بالأقوام الَّذين طلبوا الآيات، ثم كذَّبوا مثل قوم صالح، قالوا: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، فآتاه الله الناقة آية فعقروها.. انْبعث أشقاهم فعقر الناقة، فأمهلهم الله، قال: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]، ثم أخذتهم الصيحة: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ۞ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٧، ٦٨].

QaradawiBooks.com

الرد على مقترحي الآيات:

لم يُرد اللهُ ﷻ أن يعامل هذه الأمة بتلك المعاملة، فلم يستجب لهؤلاء القوم؛ لأنَّ الدين الجديد والرسالة الجديدة تريد أن ترقى بالناس، لا تريد أن تأتيَ لهم بالآيات الخارقة الَّتي تجبرهم جبرًا على الإيمان: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، بل يريد أن يأتيهم بآية عقليَّة أدبيَّة معنويَّة، يتأملون فيها ويتدبرونها، ليصلوا إلى الهداية بعقولهم لا بإخضاع أعناقهم من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإنَّ الله تعالى لم يرد أن يعاملهم معاملة الأمم الأخرى، فقد أنزل الله الآيات على الأمم الأخرى ومع هذا لم يُصدِّقوا ولم يؤمنوا؛ بل جحدوا وظلموا: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وظيفة الرسول الإبلاغ والإنذار:

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]: أنت لا تملك إلَّا الإنذار والإبلاغ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [الرعد: ٤٠]. عليك الدعوة، وأنت لا تملك أن تأتيَ بآية من الآيات، فالكون ليس في قبضتك؛ بل في قبضة صاحبه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٧٨].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾: مبلغ ومُعلِّم بالإنذار، وهو الإعلام بما يسوء ومقابله: التبشير وهو الإعلام بما يسر، فيظهر أثره في البَشَرة.

والرسول ﷺ بشير ونذير، والرسل كلهم مُبشِّرون ومُنذرون: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]،

QaradawiBooks.com

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، ولكنَّ السياق يقتضي أحيانًا أن يُوصَفَ الرسول ﷺ بصفة الإنذار فقط إذا كان المقام مقام تخويف، وإذا كنا في مواجهة قوم مكذِّبين معاندين مُصِرِّين، يستهزئون ويطلبون العقوبات: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ [الرعد: ٦]. وقبل ذلك أنكروا البعث وقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، ثم هم يقولون الآن: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ [الرعد: ٧] فالمقام هنا يقتضي أن يُذكر الرسول بصفة الإنذار، لا بصفة التبشير، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞ﴾ [الرعد: ٧]، وفي آيات كثيرة: ﴿نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ١٨٤، وهود: ٢٥، والحج: ٤٩، والشعراء: ١١٥، وغيرها]، وكثيرًا ما يوصف الرسل بأنَّهم نُذُر: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ [سبأ: ٤٤]، ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤]، وذلك أنَّ التكذيب غلب على التَّصديق، وهذا ممَّا يُؤسف له، والجحود والإصرار عليه غلب على الاهتداء، والمعصية لرسل الله ﷻ واتِّباع الجبابرة غلب على الأقوام، فلهذا كان الوصف المناسب أن يوصفَ الرسل بأنَّهم مُنذِرون، وأن يخاطب ﷺ في آيات شتّى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦]، ولذلك قال هنا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞ﴾ [الرعد: ٧]. فالمناسب لهؤلاء القوم أن يُوصَف الرسول ﷺ بصفة الإنذار، ولذلك جاء في الحديث: «**وإنِّي أنا النذير العُريان**»[(١)].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞ﴾: لا تملك أن تأتيَ بآية من آيات الله، بحسبك أن تبلِّغ.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٨٢)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٣)، عن أبي موسى الأشعري.

QaradawiBooks.com

لكل قوم هاد:

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، كلمة ﴿هَادٍ﴾ هل يفيد التنكير فيها تعظيمُ الشأن؟ أي: هادٍ عظيمُ الشأن، وهو الله ﷻ، فما عليك إلَّا أن تُبلِّغ وتُنذر، وأمَّا الهداية فهي على الله، فعليك الدعوة، وعلى الله الهداية، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. هذا احتمال وارد رجَّحه الشيخ القاسمي وغيره[١].

أم أنَّ المعنى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبيٌّ يهديهم بما يناسبهم، ويأتي لهم من الآيات بما يلائمهم؟ وأنت قد جئتَ لهؤلاء القوم بما يلائمهم، جئتَ لهم بالآية الكبرى والمعجزة العظمى، وهي القرآن الكريم، فهذا واردٌ أيضًا، فكلُّ قوم لهم هادٍ يناسب زمانهم، فموسى جاء بآية تلائم السحر الَّذي كان فاشيًا في أهل مصر، وعيسى جاء بآية تلائم الطبَّ الَّذي كان فاشيًا عند الرومان، وأنت جئت بالآية الَّتي تناسب العرب أهل البيان والفصاحة، وتناسب الزمن الأخير الَّذي بلغته البشريَّة في هذا الطور.

واحتمال ثالث معناه ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: كتاب يهديهم، كما جاء في سورة البقرة: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ٢١٣]. هذا الكتاب يهدي النَّاس وخصوصًا فيما اختلفوا فيه، ويكون على ذلك معنى هاد أي: كتاب يقودهم ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم، وأيًّا كان هذا الأمر، فالمعنى: أنَّ هؤلاء لن يجابوا إلى طلبهم، واقتراحهم المتعنِّت بإنزال آية من الآيات الكونيَّة الحسيَّة، وبحسْبِك أنت أن تنذرهم فهذه هي مهمتك ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يهديهم إلى الصراط المستقيم.

* * *

(١) محاسن التأويل (٢٦١/٦).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

شمول العلم الإلٰهي لكل شيء

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۞ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۞ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۞ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ﴾ **[الرعد: ٨ ـ ١١]**

هذه جوْلة من جولات السورة الكريمة في حديثها عن رَبِّ العزَّة تبارك وتعالى وعن آياته في هذا الكون الَّتي تغني عن كل آية يطلبها المشركون تعنُّتًا، فهذا الكون مليءٌ بآيات الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس.

وهنا تتحدَّث السورة عن العلم الإلٰهي، وحديث القرآن عن الله تبارك وتعالى ـ كما ذكرنا وأكَّدنا ـ عن جلاله وجماله وكماله، عن صفات المُلْك، وعن صفات الحمد، حديثٌ لا نظير له، ولا يوجد في أيِّ كتاب من كتب السماء، وقد عشنا مع الجولة الأولى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا ﴾ إلى آخرها [الرعد: ٢ ـ ٧].

وهذه الجولة: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨]، تتحدَّث فيها الآيات عن العلم الإلٰهيِّ، عن علم الله تبارك وتعالى بكلِّ ما في هذا الكون ومن في هذا الكون، من الذرَّة إلى المجرَّة، فإن علم الله تعالى محيط بكل شيء في هذا الكون: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [يونس: ٦١]، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ

QaradawiBooks.com

﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

علم الله تبارك وتعالى يمتاز عن علم البشر بعدَّة خصائص:

بالسَّعة والشمول، فهو يشمل الظاهر والمستور، والمشهود والغائب، ويشمل العالَمَ العلويّ والعالَمَ السفليّ، ويشمل خفايا الضمائر وطوايا السرائر، وحركات الخواطر، ومكنونات الصُّدور، ويشمل ما يمكن أن نعرِفه نحن وما لا يمكن أن نعرِفَه بحال من الأحوال، ما نستطيع بأداة من الأدوات أو وسيلة من الوسائل أن نصل إليه، وما لا يمكن أن نصل إليه قط، فهو علمٌ شاملٌ واسع: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩]، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وسع علمه ـ من حيث السَّعة ـ كلَّ شيء، ورحمته وسعت كلَّ حيّ.

ويمتاز علم الله أيضًا بالدقة؛ فهو علم التفاصيل والجزئيات، الَّذي لا يغيب معه شيء عن الله تبارك وتعالى.

ويمتاز كذلك بالثبات، فعلمنا قد يتغيَّر، وقد ينقلب علمنا جهلًا، فما كنا نظنُّه صوابًا يتبيَّن أنَّه خطأ، وما كنا نعتقده مادَّة يتبيَّن أنَّه طاقة، وقديمًا اعتبر الفلاسفة الأرض مركز الكون، ثم تبيَّن أنَّ الأرض هباءة صغيرة في هذا الكون، أو هي جزء صغير من المجموعة الشمسيَّة، والمجموعة الشمسيَّة جزء صغير من مجرَّة ضخمة، والمجرَّة واحدة من ملايين المجرَّات. وكانوا يعتقدون أنَّ العناصر الَّتي يقوم عليها الكون أربعة: الماء والهواء والتراب والنار، ثم تبيَّن أنَّ هذه ليست عناصر وإنَّما هي مركَّبات، وأنَّ العناصر زادت عن المائة، وهكذا تبيَّن أنَّ علم هؤلاء

QaradawiBooks.com

الفلاسفة الكبار أصبح جهلًا، ولكن علم الله لا يتغيَّر، فهو يعلم الأشياء بعلم أزليٍّ ثابت، لا يطرأ عليه ما يغيره، فالأشياء تنكشف له على حقيقتها، لأنَّه هو خالقها، وهو الَّذي يريدها قبل أن تخلق على نمط معيَّن ومقدار معيَّن ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلك: ١٤]. ومن هنا يحدِّثنا القرآن عن هذا العلم الإلٰهيِّ الشامل الدقيق العميق، الثابت الَّذي لا يتغير.

علم الله لما تحمله كل أنثى:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ في الحضر أو في البادية، أو في القرى أو في أيِّ مكان، يعلم الله ما تحمل كل أنثى: أهو ذكر أم أنثى؟ تامٌّ أم خديج؟ يبقى إلى أن يولد أم ينزل سقطا؟ وإذا ولد أيكون صحيحًا أم سقيمًا؟ ضعيفًا أم قويًّا؟ ذكيًّا أم غبيًّا؟ سعيدًا أم شقيًّا؟ يعلم حاضرَهُ ومستقبله.

غيض الأرحام وازديادها:

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، وتغيض الأرحام أي: تنقص، و﴿مَا﴾ ـ كما يقول علماء النحو ـ: مصدريَّة أو موصولة، أي: يعلم حمْلَ كلِّ أنثى وغَيْضَ الأرحام وازديادها، أو يعلم الشيء الَّذي تحمله كل أنثى، ولو أخذنا عبارة: ﴿كُلُّ أُنثَىٰ﴾ على عمومها لشملت الإنسان والحيوان، والطيور والحشرات.

يعلم الله ﷻ نوعَ الحَمْل والمرحلة الَّتي هو فيها؛ إن كان نطفة أو علقة أو مضغة، مُخَلَّقة أو استوى عظمًا، أو كُسِيَ العظْم لحمًا، ويعلم أيكون طويلًا أو قصيرًا، سمينًا أو هزيلًا.

QaradawiBooks.com

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ هي المدة؛ فيعلم كم يبقى في بطن أمِّه، ومتى ينزل؟ أينزل بعد سبعة أشهر أم يبقى إلى التسعة؟ أو يزيد عن ذلك أيامًا أو أكثر؟

وبعض المفسِّرين والفقهاء يقولون: إنَّ الحمْل قد يبقى سنتين في بطن أمه، وهو مذهب أبي حنيفة، وبعضهم قال: يبقى ثلاث سنوات أو أربع سنوات أو خمس سنوات؛ كما في مذهب الشافعية والحنابلة والمالكيَّة؛ حتَّى قيل: إلى سبع سنوات! وهذا أمر يمكن أن يناقش، ويُردَّ عليه.

والازدياد قد يعني أنَّ البطن فيها واحد أو اثنان أو ثلاثة، أو أربعة أو خمسة؛ والله يعلم ذلك كله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾.

كُلُّ شَيْءٍ عِندَ الله سبحانه بِمِقْدَار:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾: له مقدار مُعيَّن في كميَّته وكيفيَّته. قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، فهذا الكون لا يسير جزافًا، ولا يمضي اعتباطًا، وإنَّما يجري بمقادير قدَّرها الله ﷻ، فكل شيء مصمَّم بعناية، لهدف وغاية، بمقدار لا يزيد ولا ينقص: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحِجر: ٢١]. كلُّ شيء في هذا الكون محدَّد منظَّم، مقدَّر مصمَّم.

تحديد نوع المولود لا يتعارض مع علم الله تعالى الأزلي:

وبقيت حاشية، فقد أثار بعض العلمانيين تعقيبًا على بعض المفسِّرين الَّذين قالوا: إنَّ الله هو الَّذي يعلم ما في الأرحام إنْ كان ذكرًا أو أنثى،

QaradawiBooks.com

وإنَّ هذا من مفاتح الغيب الَّتي لا يعلمها إلَّا الله، وأنَّ العلم بوسائط وأدوات وأجهزة؛ استطاع الآن أن يعرف ذكورة الجنين من أنوثته في وقت مبكر.

ونقول: إنَّ معرفة الذكورة والأنوثة هي جزء من مضمون العلم الإلٰهي، لما في الأرحام، هذا العلم الَّذي يعلم أيحيا الجنين أم يموت؟ أيبقى إلى أنْ يكتمل أم يولد قبل اكتماله؟ أيكون ضعيفًا أم قويًّا؟ أيكون ذكيًّا أو غبيًّا؟ أيكون سعيدًا أم شقيًّا؟ أيؤمن أم يكفر؟ بماذا يُختم له: أيكون من أهل الجنَّة أم من أهل النار؟ في أيِّ أرض سيعيش؟ وفي أيِّ أرض سيموت؟ فكل هذا يدخل في العلم الإلٰهي، أمَّا الطبيب بأجهزته ومَجَسَّاته وكاميرات تصويره، فلا يعلم إلَّا مُجرَّد الذكورة والأنوثة، ولذلك يبقى مدلول هذه الآية: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ﴾، ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وأن هذا من مفاتح الغيب الَّتي ينفرد الله تعالى بعلمها، وتظل هذه الحقيقة سليمة وصحيحة.

مدّة الحمل عند الفقهاء:

وحاشية أخرى: تكلَّم بعض الفقهاء عن مدَّة الحمل فذكروا في: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ﴾، أنَّ الحمل قد يزداد في بطن أمه إلى سنتين أو ثلاث، أو أربع أو خمس أو ست، أو حتَّى سبع سنوات في بعض روايات المالكيَّة، وهذا الكلام وإن كان موجودًا في بعض كتب التفسير وكتب الفقه؛ فليس عليه دليل صحيحٌ صريحٌ من الشرع، ولا يوجد نصٌّ صحيحُ الثبوت صريحُ الدلالة يدلُّ على هذا، وإنَّما كل ما في الأمر أنَّ هناك أقوالًا نُسِبت إلى بعض النساء الصَّالحات من زوجات بعض السلف: أنَّها حملت وبقيَ الحمل في بطنها مدة كذا وكذا.

QaradawiBooks.com

وقال الإمام مالك: إنَّ امرأة محمد بن عجلان، وهو رجل صدق وامرأته امرأة صدق، كان الحمل يبقى في بطنها ثلاث سنين أو أربع سنين.

وورد عن السيدة عائشة أنَّ الحمل لا يبقى في بطن أمه أكثر من سنتين ولو بفَرْكة مِغْزَل[١].

وكلُّ هذا ليس فيه دليل مرفوع صحيح، ولذا ردَّها الإمام ابن حزم وقال: إنَّ هذه أقوال نساء عجائز لا يُؤْخذ بقولهن، كيف يصير الحمل إلى هذه المدد الطوال والله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]؟! وأكَّد ابن حزم أنَّ الحمل تسعةُ أشهر[٢]، وذهب ابن عبد الحكم من المالكيَّة إلى أنَّ مدة الحمل سنة قمريَّة[٣]، وأخذت بعض أحكام الأحوال الشخصيَّة في بعض البلاد الإسلاميَّة بهذا القول، وإن كانت قد اعتبرته سنة شمسيَّة، واعتبرت السَّنَة أقصى مدَّة للحمل، أمَّا الأقوال الَّتي تذهب إلى إطالة المدَّة فهذه مردودة؛ لأنَّ المرأة ممكن أن تأتيَ بعد موت زوجها بعدَّة سنوات وتقول: إنَّها كانت حاملًا طوال تلك المدَّة!

ولكن حسب الاستقصاء والاستقراء لم يوجد حَمْل يطول إلى هذه المدة، وكل ما في الأمر: أنَّ العلم الحديث اكتشف أنَّ هناك ما يسمَّى الحمل الكاذب، وفيه ترغب المرأة في الحمْل وتحرص عليه، وتتمنَّاه وتعيش في ذلك من الناحية النفسية حتَّى يخيَّل إليها أنَّها حامل،

(١) رواه الدارقطني في النكاح (٣٨٧٧)، والبيهقي في العدد (٤٤٣/٧).
(٢) المحلى لابن حزم (١٣٣/١٠).
(٣) بداية المجتهد (١٤٢/٤)، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وتشعر بأعراض الحمل وتنتفخ بطنها، ويصيبها الوحم والغَثيان، ويرى أهلها وجيرانها ذلك منها وهي صادقة، ولكن حملها هو الكاذب، وإن كانت أعراضه هي أعراض الحمل الصادق، ولكن لا حقيقة له، فإذا حدث هذا في الزمن الماضي، ثم وقع قدَرُ الله وحملت المرأة حملًا صادقًا، ووضعت بعد تسعة أشهر، ظنَّ النَّاس أن حملها استمرَّ سنين طويلة بإضافة مدَّة الحمل الكاذب إلى مدَّة الحمل الصادق، فالمرأة في هذه الحالة صادقة، وزوجها الَّذي رآها صادق، وجيرانها الَّذين رأوها صادقون، ولكنهم لم يكونوا يعلمون بالحمل الكاذب، وهذا ما يجعلنا نؤكِّد تلك القاعدة الذهبيَّة العظيمة الَّتي تقول: «إنَّ الفتوى تتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان والحال والعرف»، فقد عرفنا في عصرنا ما لم يكن يعرفه الإمام مالك ولا الأئمة السابقون، من الحمل الكاذب وأعراضه.

عالم الغيب والشهادة:

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

الغيب: ما غاب عن الحسّ، والشهادة: ما يشهده الحِسّ، فهو مَشهودٌ لنا ومنظور.

هناك عالم منظور وعالم غير منظور، عالم مشهود وعالم غير مشهود، فغير المشهود هو الغائب عنا، وقد يكون غائبًا عنا وهو موجود الآن، مثل العرش والكرسي واللوح، والملائكة والجنّ، وقد يكون غائبًا عنا، لأنَّه لم يحدث بعد كالذي يأتي من الحياة البرزخيَّة في القبر، وما يأتي في يوم القيامة، فكلُّ هذا من الغيب، والله ﷻ يعلم هذا الغيب، ويعلم الشهادة.

QaradawiBooks.com

والغيب بمعنى الغائب مصدر بمعنى اسم الفاعل، والشهادة بمعنى المشهود، وهي بمعنى اسم المفعول، فالغائب والمشهود يعلمه الله تبارك وتعالى.

ونحن لا نعلم الغيب؛ لأنَّ حواسَّنا محدودة وقوانا محدودة، بل إننا لا نعلم كثيرًا من عالمنا المادِّيّ، والعلم الحديث يقول: إننا لا نعلم من أجزاء الكون المادي الَّذي نعيش فيه إلَّا ثلاثة في المائة (٣٪) فقط، وسبعة وتسعون في المائة (٩٧٪) تغيب عنا، يسمُّونها الأعماق السوداء في هذا الكون، ولذا فلا نطمع أن نعلمَ الأشياء الغائبة عنا من العالم والكون غير المنظور وغير المُحَسّ وغير المشهود، إنَّما الَّذي يعلم ذلك هو: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

الكبير المتعال:

﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾: العظيم الشأن، المتعالي على خلقه، والمُنزَّه عن كل نقص، المستعلي على جميع خلقه بكمال ذاته وصفاته.

والكبير بإطلاق هو الله ﷻ، قد يوجد في الكون من نقول عنه: إنَّه كبير، لكن كبره هذا نسبيّ، إنَّما الكبير الَّذي ليس هناك أكبر منه هو الله تبارك وتعالى، فهو الكبير بإطلاق، وهو المتعالي بإطلاق، ومن أسمائه «المتعال» وليس من أسمائه «العال» الَّذي يتسمَّى به بعض الناس: «عبد العال»، والصواب أن يسمَّى «عبد المتعال» أو يسمَّى «عبد العَلِيِّ» أو «عبد الأعلى»، فالله ﷻ موصوف بالعلوِّ، ولكنَّ من أسمائه العليَّ والمتعالي.

وقد ورد اسم «الكبير» كاسم من أسماء الله تعالى في القرآن كله ثماني مرات، وورد اسم «العَلِيِّ» معرفًا بالألف واللام ست مرات، وورد اسم «المتعال» في القرآن كله مرَّة واحدة؛ هي هذه الَّتي في الرعد.

QaradawiBooks.com

يستوي في علم الله السِّر والجهر والاستخفاء والظهور:

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]: يستوي في علم الله تبارك وتعالى من أسرَّ القول مع صاحبه وصديقه لا يريد أن يسمعه أحد، ومن جهر به، فالأمران سواء: ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾: اجهَرْ بالقول أو اهمسْ به، تكلَّم في أذن صاحبك بصوت خافت، أو أضْمره في نفسك، فالله يسمع ويعلم هذا كله.

كان بعض المشركين يقول لبعض؛ خوفا أن يكشف القرآن عن مؤامراتهم، ويفضح أسرارهم، ويهتك أستارهم: لا تتحدَّثوا بصوت جهير؛ حتَّى لا يسمعكم إلٰه محمد، ولكن تحدَّثوا بصوت خافت هامس، فنزل القرآن الكريم يقول: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المُلك: ١٣]. إذا كان يعلم ما بداخل الصَّدر، وما هو مكنون بالسرائر، أفلا يعلم إذا خرج ما بالداخل، هذا بالصوت حتَّى وإن كان مهموسًا أو خافتًا؟ لا شك أنَّه سبحانه يعلم؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلك: ١٤].

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾: المستخفي بالليل: الَّذي يريد أن يخفيَ نفسه، ويطلب الخفَاء من النَّاس أو من الشرطة، أو من طلاب الديون، وقد يُفلح في هذا فيختفي عن أعين العباد، ولكنَّه أبدًا لن يستخفي عن عين الله ﷻ، فإنه بالمرصاد لكلِّ أحد حيث كان: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾: مَنْ يَسْتتر بظلمة الليل، ويستتر بستر البيت الَّذي يكون فيه وجدرانه، ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ظاهر بالنهار، سائر

QaradawiBooks.com

في سربه وفي طريقته، يستويان في علم الله؛ فعلمه ﷻ مستوعب شامل، يلاحق الإنسان في كل مكان: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] لا تخفى عنه خافية، ولا يغيب عنه سر ولا علانية، كما قال سيِّدنا إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨]. هذا ما يقرِّره القرآن الكريم ولا يوجد تقرير للعلم الإلٰهيِّ بهذه الصيغة، وبهذه الصورة الواضحة الدقيقة العميقة إلَّا في القرآن الكريم.

خطأ الفلاسفة المُؤلِّهين:

ومن أسف أنَّ هناك من الفلاسفة المؤلِّهين الَّذين اعترفوا بأن هناك ألوهيَّة: من لم يستطيعوا أن يَصلوا إلى إدراك هذه العظمة الإلٰهيَّة، وأشهر الفلسفات في ذلك هي فلسفة اليونان القديمة الَّتي ترجمها المسلمون في أوائل العصر العباسيّ.. تلك الفلسفة لم تستطع أن تدرك المجْد الإلٰهي.

وأشهرُ الفلاسفة اليونانيين على الإطلاق الفيلسوف المعروف «أرسطو» الَّذي قال عنه العرب الَّذين ترجموا كتب الفلسفة إلى العربيَّة: إنَّه المعلِّم الأول! والحق أنَّ المعلم الأول هو محمد ﷺ.

يقول هذا الفيلسوف عن الله ـ الَّذي يُسمِّيه العلَّة الأولى أو المُحرِّك الأول ـ: إنَّه لا يعلم عن الكون شيئًا، ويرى أنَّ ممَّا يعيب هذا الإلٰه أن يعلم ما في هذا الكون، وما في هذا العالم: عالم الكون والفساد، ولذا فهو لا يعلم عنه شيئًا، ولا يعلم إلَّا ذاته الكاملة، أمَّا هذا الكون الناقص فهو لا يُدبِّر فيه أمرًا، ولا يحرِّك فيه ساكنًا، وهذا هو شأن الإلٰه عند هذا الفيلسوف الكبير «أرسطو»!

QaradawiBooks.com

ولذلك فإنَّ بعض مؤرِّخي الفلسفة في العصر الحديث ـ وهو الأمريكي ول ديورانت ـ يقول في كتابه «مباهج الفلسفة»: يا لإلٰه أرسطو من إلٰهٍ مسكين! إنَّه أشبه بملك الإنجليز يملك ولا يحكم[1]! فأين هذا من الإلٰه في القرآن الكريم؟

خطأ الفلاسفة الإسلاميين:

وللأسف إنَّ هذه الفكرة عن العلم الإلٰهي، تسرَّبت أيضًا إلى الفلاسفة الإسلاميين ـ كما يُسمُّونهم ـ الَّذين تأثَّروا بفلسفة أرسطو مثل الكندي والفارابي وابن سينا؛ فقالوا: إنَّ الله لا يعلم الجزئيَّات في هذا العالم، وبذلك لم يأخذوا بكلام «أرسطو» كله، ولم يرفضوه كله؛ حيث أثبتوا العلم لله ﷻ بما في الكون، ولكنهم نفوا عنه علم الجزئيَّات الَّتي تحدث في هذا الكون، وهذا مناقض لما صرَّح به القرآن في عشرات الآيات أنَّ كل ما في الكون يعلمه الله ﷻ، حتَّى ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ولأنَّ قولهم هذا مناقض لما في القرآن عَدَّ فقهاء المسلمين هذا القولَ كفرًا.

والأعجب من ذلك ما زاده بعض الفلاسفة عن «أرسطو»، فقد قال أفلوطين ـ الَّذي تُنسب إليه المدرسة الفلسفيَّة المسمَّاة الأفلاطونيَّة الحديثة ـ: إنَّ الله لا يعلم حتَّى ذاته! كما نقل ذلك الأستاذ العقاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «الله»، فيا عجبًا أن تكون هذه هي منزلة الإلٰه عندهم.

أمَّا في الإسلام وفي القرآن، فالله هو المحيط بكلِّ ما في هذا الكون، وهو المُدبِّر لكل ما فيه، ولهذا يسأله النَّاس ويدعونه، فإذا لم يكن يعلم

(١) مباهج الفلسفة صـ ١٦١، ١٦٢، ترجمة د. أحمد فؤاد الأهواني، نشر مكتبة الأنجلو فرنكلين.

QaradawiBooks.com

شيئًا؛ فلماذا تلجأ إليه الفطر البشـــريَّة من قديم إذا نزلت بهم شدَّة، وهو الَّذي ـ تبعًا لهذا الرأي ـ لا يعلم عن البشـــر إن كانوا في ســـرَّاء أو في ضرَّاء؟ وما معنى أن يدعو الإنسان من لا يعلم عنه ـ أي الإنسان ـ شيئًا؟ لا معنى لذلك إلَّا أن يكون جهلًا بالعلم الإلٰهي.

الملائكة الحفظة الكاتبين:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾: الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ يعود على الإنســـان المذكور في قوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، هـــذا المُسِـــرّ أو الجاهر، المســـتخفي أو السَّـــارب الظاهـــر: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾، أي: ملائكة تتعاقب وتتوارد وتتناوب عليه، وَكَّلَها الله به، فهي من جنود الله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

والملائكة مخلوقاتٌ نُورانيَّـــة من جملة عالم الغيب، بثَّها الله في هذا الكـــون، وجعل لها وظائف منهـــا: الحفظ لهذا الإنســـان، وكتابة أعماله خيرِها وشرِّها، حَسَنها وقبيحها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطـــار: ١٠ ـ ١٢]، وكمـــا قـــال أيضًا: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ [الزُّخـــرُف: ٨٠]. هؤلاء الحفَظَة الَّذين يسجِّلون على الإنسان أعماله كلها: حسناته، وسيئاته.

وللتسجيل الإلٰهي قلم يُسجِّل بوســـاطة هؤلاء الحَفَظة الكاتبين كل شيء في صحائف لا تَبْلى: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٧، ١٨]. وهؤلاء الحَفَظة يتعاقبون.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ عقّب الشـــيء أي: أتى عقبه بلا مهلة ولا فاصل، وأصل العقب مؤخَّر الرِّجْل. وعقبه أي: جاء في عقبه كأنه يكاد يلمس عقبه ويطؤه.

QaradawiBooks.com

وفي علم النحو يقولون: الفاء للتعقيب والترتيب بلا مهلة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣]. ويقال: جاء فلان ففلان، أمَّا إذا كان هناك مهلة فالمستعمل «ثُمَّ»، فيقال: فلان ثم فلان.

فهؤلاء الحَفَظة يتعاقبون بحيث لا توجد فترة بلا حرَّاس ولا حَفَظة، وقد جاء في الحديث الصحيح: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنَّهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الَّذين باتوا فيكم فيسألهم ربُّهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلُّون، وأتيناهم وهم يصلُّون**»[1]. أي أن مناوباتهم تتغَيَّر عند صلاتَي الفجر والعصر، فيشهدون بذلك للأُمَّة: «**تركناهم وهم يصلُّون، وأتيناهم وهم يُصَلُّون**».

تكريم الله سبحانه للإنسان وتسجيل أعمالِه عليه:

الله تعالى جعَل هؤلاء الحفظة ـ من ملائكته الكرام المقرَّبين ـ على الإنسان، تكريمًا للإنسان من ناحية، حيث جعلهم وهم الَّذين فطرهم الله تعالى على طاعته: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. جعلهم في خدمة الإنسان وفي حفظه وحراسته، فأيُّ تكريم للإنسان أعظم من هذا؟!

ومن ناحية أخرى: إشعار الإنسان أنَّه ليس سائبًا: يفعل ما يشاء، ويترك ما يشاء، وأن أعماله لا تنتهي بمُجرَّد عملها، ولكنَّها محفوظة مُسجَّلة له أو عليه، فلْيحذر أن يرى في صحيفته غدًا ما يسوؤه.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٥)، ومسلم في المساجد (٦٣٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

حينما يكون الإنسان في مكان يعلم أنَّ فيه أجهزة تنَصُّت عليه، فإنه يحترسُ من الكلمة يقولها، أو إن كان هناك «كاميرا» خفيَّة تصوِّر حركاته، فماذا يصنع؟ لا شك أنَّه يتَحرَّى أن يكون حريصًا، وكفى بهذا رادعًا للإنسان: أن يقترف المنكرات أو يعبَّ من الشهوات، أو يسير في ركاب الشيطان؛ بل لا بدَّ أنْ يحاسب نفسه، وأنْ يقف مع نفسه يراقبها ويُؤدِّبها، ويقول لها: كيف تفعلين كذا، وكيف تتركين كذا؟ ولماذا؟ وهذا شأن صاحب «النفس اللوَّامة» أو ما يُسمُّونه في عصرنا صاحب «الضمير الحي» فهؤلاء الحفَظة وَكَّلَهم اللهُ لمثل هذه المعاني.

ولهذا نرى سيِّدنا عمر بن الخطاب حينما بعث سعدَ بن أبي وقَّاص قائده على جند المسلمين في معركة القادسية وأوصاه بتقوى الله ﷻ، وقال له: «إنَّ تقوى الله أفضل العُدَّة على العدوِّ، وأقوى المكيدة في الحرب».

وأوصاه بوصية بليغة عظيمة، وكان ممَّا قال: «واعلموا أنَّ عليكم حَفَظة في سيركم، يكتبون كل ما لكم أو عليكم، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله، وأنتم في سبيل الله»[1].

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾: ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ يقولون عنها في علم النحو: لابتداء الغاية، أي: مُعقِّبات من أمر الله، ومن قدر الله، واللهُ هو الَّذي قدَّر هذا، فليست خارجة

(١) ذكرها ابن عبد ربه في العقد الفريد (١١٧/١) بدون سند، عن عمر بن الخطاب. ورواه أبو نُعيم في حلية الأولياء (٣٠٢/٥)، وذكرها ابن عبد الحكم في سيرة عمر بن عبد العزيز صـ ٧٦ وبعدها، بوصفها رسالة منه إلى أحد قوَّاده منصور بن غالب، وجهها إليه حين بعثه لقتال أهل الحرب. وتكاد تكون بنفس الألفاظ عدا اختلاف يسير. ولا يضيرنا أن تكون من أحد العمرين، المهم هو مضمون الوصية.

QaradawiBooks.com

عن أمر الله ولا عن قدره، إنَّما هي حسب النظام الَّذي أودعه الله تعالى في هذا الكون: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ هذه إشارة إلى أنَّها تحيط بهم من كل الجوانب.

ويقول بعضهم: إن ﴿مِنۡ﴾ هنا للتعليل؛ لأنَّ «مِنْ» تأتي أحيانًا في القرآن وفي اللغة العربيَّة للتعليل كما في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح: ٢٥]. أي: بسبب خطيئاتهم فـ ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ ـ على هذا التفسير ـ أي: بسبب أمر الله ﷻ، وليس المعنى: يحفظونه من قدَر الله، فلا يستطيع أحدٌ أن يحفظ أحدًا من قدر الله؛ لأنَّ قَدَر الله جارٍ على النَّاس مهما كان حالهم، ولا رادَّ لقدره ﷻ.

والتأنيث في «المُعَقِّبات» ليس لفظيًّا، وإنَّما هو يعني: جماعات مُعقِّبات، فالملائكة لا توصف بأنوثة ولا بذكورة، ولكن من ناحية الضمائر وغيرها تجري مجرى الذكور، فيقال: فعلوا كذا وكذا، ولكنهم ليسوا إناثًا كما قال المشركون الَّذين جعلوا ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩].

بماذا يغير الله ما بالأقوام والأمم؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

هذه المعقِّبات وهؤلاء الحفّاظ والحراس، لا يُغْنون عن الإنسان من أمر الله شيئًا إذا صنع ما يقتضي عقوبته؛ بل تنزل به العقوبة الإلٰهيَّة، لأنَّ هؤلاء لا يرُدُّون سنَن الله؛ بل هم يمضون مع سنن الله، ويعملون في دائرتها، فإذا غيَّر قوم ما بأنفسهم من الطاعة إلى المعصية، ومن الاستقامة إلى الانحراف، ومن الهُدى إلى الضلال، ومن الرُّشد إلى الغيّ، ومن

QaradawiBooks.com

العدل إلى الظلم، ومن الإيمان إلى الكفر، ومن التوحيد إلى الشرك، فإنَّ الله يغيِّر ما بهم.

وهذه سُنَّة من سنن الله تبارك وتعالى، فإذا غيَّر النَّاس ما بأنفسهم غيَّر الله تعالى ما بهم، كما ذكر الله هنا، وفي سورة الأنفال أيضًا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٣، ٥٤]. فبالذنوب وبالظلم وبالانحراف وتغيير ما بالأنفس، ينـزل الله نقمه، ويُبدِّل النعمة إلى نقمة، ويُبدِّل العافية إلى بلاء، ويُحوِّل السرَّاء إلى ضرَّاء، والنَّعماء إلى بأساء، والغنى إلى فقر، واليُسْر إلى عسر، والوحدة إلى تفرق، والنصر إلى هزيمة، وهكذا.

هل تشمل الآية التغيير من الشرِّ إلى الخير؟

ويبرز هنا سؤال: هل التغيير في الآية مقصورٌ على التغيير من الحَسَن إلى السيئ، ومن الطاعة إلى المعصية، ومن الخير إلى الشر، أم أنَّه يشمل العكس؟

نقول: إنَّ السياق الَّذي وردت فيه الآية يدلُّ على أنَّهم تحوَّلوا من الخير إلى الشر، ومن الحسن إلى القبيح، وهذا صريح آية الأنفال الَّتي سبقت: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣]. إذا غيَّروا حالَ الخير إلى شرّ، أو الحسن إلى قبيح، أو الهدى إلى ضلال، غيَّر الله ما بهم، وأنزل بهم عقوبته، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

QaradawiBooks.com

وكما ذكر لنا القرآن أحوال أمم كثيرة من الأمم السابقة، أخذهم الله بذنوبهم وبتكذيبهم وبعصيانهم، جزاء ما صنعوا مثل سبأ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

وبعض العلماء يقول: إنَّ الآية لا تفيد إلَّا هذا، وقالوا: إنَّ الأصل فيما هو بالأنفس «الخير» فالله قد فطر الأنفس على الخير، وذلك قول رسول الله ﷺ: «**كلُّ مولودٍ يُوْلَد على الفطرة**»[1]، فإذا غيَّر النَّاس ما بأنفسهم أي: غيَّروا الفطرة ومسخوها، فتحوَّلوا من الخير إلى الشر، ومن الهداية إلى الضلال، غيَّر الله ما بهم، وهذا واضحٌ في آية سورة الأنفال.

أمَّا هذه الآية فالواقع أنَّها تشمل هذا، وهو ما يَدُلُّ عليه السياق، ولكن لفظ الآية عام: يشمل التَّحوُّل من الخير إلى الشر، أو من الشر إلى الخير، ومن الحَسن إلى القبيح، أو من القبيح إلى الحسن، ومن الاستقامة إلى الاعوجاج، أو من الاعوجاج إلى الاستقامة.

فالله يقول: ﴿مَا بِقَوْمٍ﴾، وكلمة ﴿مَا﴾ لفظ من ألفاظ العموم، كما يقول علماء الأصول، فهو يشمل ما بأنفسهم سواء كان من الخير أم من الشر، ﴿مَا بِقَوْمٍ﴾: سواء كانوا في حالة النعمة أم في حالة المصيبة.

ومعنى هذا: أنَّ الآية تشمل أيضًا أنَّه إذا كان هناك قوم في حالة من الانحراف والتظالم والوقوع في المنكرات، ونزلت بهم المصائب، وأحاطت بهم الكروب والخطوب، وسُلِّط عليهم أعداؤهم، وجرى عليهم ما جرى من الهزائم والنَّكسات، ثم غيَّر هؤلاء القوم ما بأنفسهم، فتَحوَّلوا من المعصية إلى الطاعة، ومن الظلم إلى العدل، ومن الانحراف

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٥٨)، ومسلم في القدر (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

إلى الاستقامة، ومن الغيِّ إلى الرُّشد، ومن الشرِّ إلى الخير، فإنَّ الله يُغيِّر ما بهم ويُصلح حالهم، ويُحوِّل حالهم إلى أحسن حال، فالآية إذن تشمل الجانبين معًا: التحوُّل إلى الحسن، والتحوُّل إلى السيئ، وهذا ما يفيده العموم في هذه الآية من هذه السورة.

وأمَّا ما جاء في الحديث من أنَّ «**كلُّ مولودٍ يُوْلَد على الفطرة**»[1]، وهو يؤيِّد ما جاء في القرآن: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]. فالذي يبدو لنا: أنَّ هذا في التوحيد والاعتقاد والإيمان بالله تعالى، ففطرة الله في الأنفس: التَّوجُّه إلى الإيمان والتوحيد، لا إلى الإلحاد والشرك.

استعداد النفوس للفجور والتقوى:

أمَّا ما يتعلق بالسلوك، فالذي يظهر لنا من القرآن: أنَّ الله سبحانه فطر الأنفس على الاستعداد للخير وللشر، أو للتقوى والفجور، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

وربما كان استعداد النفس للفجور أسبق من استعدادها للتقوى، بدليل تقديم «فجورها» على «تقواها». وقد يؤيِّد هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ٦]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء: ١١] إلى آخر هذه الآيات الَّتي تشير إلى ما جُبِلَ عليه الإنسان، إذا تُرك لنفسه من ظلم وجهل وكنود وكفران بنعمة ربِّه، وعَجَلة في أمره. لهذا كان عليه أن يبذل جهدَه حتَّى يُزكِّي نفسه ويرتقي بها،

(١) سبق تخريجه قريبًا.

QaradawiBooks.com

ولا يعمل على تدْسيتها وتدنيسها، فهو الَّذي حُمِّل مسؤولية نفسه، فإما أن يعلوَ بها إلى أُفق الملائكة، وإمَّا أن يهبط بها إلى حضيض الأنعام.

غير مرخصة للطباعة

مسؤولية الأفراد والجماعات على تغيير ما بالأنفس:

وهذه مسؤوليةُ الأفراد، كلُّ فرد على حدة، وهي مسؤولية الأقوام والجماعات كذلك، مسؤولية تضامنيَّة، فلا تظنّ جماعة ما أنَّ الله ينزِّل عليها التَّغيير لحالها من السماء، كما أنزل المنَّ والسَّلوى؛ بل إنَّ التغيير الإلٰهيّ لحال البشر، لا بدّ أن يسبقه تغيير داخلي من جانب البشر أنفسهم، أي: أنَّ التغيير الإلٰهيّ مُرتَّب على التغيير البشري ترتُّب المُسبَّبات على أسبابها الَّتي وضعها الله، والتي شرعها الله تعالى.

وهذا تكريمٌ من الله تعالى للإنسان: أن جعل أمره بيده، وأنَّ قدره الأعلى يعمل من خلال حركة الإنسان وحركة المجتمعات، فإذا تحرَّكت المجتمعات من داخلها، وغَيَّرت ما بأنفسها فإنَّ القدر الإلٰهي يغيِّر ما بها، ويُحوِّلها من حال إلى حال.

ولهذا نرى محاولات التغيير من السطح ومن الظاهر، مثل مجرَّد تغيير القوانين واللوائح والأشكال، لا تجْدي كثيرًا إذا لم يتغيَّر ما بأنفس الناس.

قاعدة اجتماعية مهمة:

وهنا نجد أنَّ القرآن الكريم وضع قاعدة من القواعد الاجتماعية المهمة، وسنَّة من سنن التغيير الاجتماعي، وقانونًا من القوانين الَّتي وضعها الله في هذا الكون؛ لأنَّ القرآن جاء يغرس في عقول المسلمين وفي أنفسهم: أن هذا الكون يسير على سُنن ثابتة، سُنن كونيَّة، وسُنن

QaradawiBooks.com

اجتماعيَّة لا تتبدَّل: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ [فاطر: ٤٣]. فلا بدَّ أن تُراعى هذه السنن، فهي سنن لا تُحابي أحدًا، ولا تتحيَّز إلى أحد، أو ضدَّ أحد، تعمل مع المسلمين كما تعمل مع الكافرين، مع أهل التوحيد ومع أهل الشِّرك، من جدَّ وَجَدَ، ومن زَرَعَ حصد، من أيِّ ملة كان، فالكافر الَّذي يزرع يحصد، والمسلم الَّذي يتكاسل ولا يزرع لا يحصد، والذي يتزوَّج امرأة ولودًا ويأخذ بأسباب الإنجاب يُولَد له، والذي لا يتزوَّج ولا يأخذ بأسباب الولادة، ويدعو الله أن يرزقه الذريَّة، فأنَّى يستجاب لهذا؟!

الماركسيون والتغيير:

ومن هذه السنن: تلك السُّنَّة الاجتماعيَّة الَّتي تنصُّ على أن تغيير المجتمعات والأقوام لا يكون إلَّا بعد هذا التَّغيير النفسي العميق، الَّذي يسبق أيَّ ثورة اجتماعيَّة، ويسبق أيَّ تغيير سياسيّ أو اقتصاديّ، على خلاف ما قاله الماركسيُّون الشيوعيون الَّذين كانوا يقولون: إنَّ التَّغيُّر الاجتماعي هو وليد التغيُّر الاقتصادي، يقولون: غيِّر الاقتصاد وعلاقات الإنتاج يتغيَّر التاريخ.

ونحن المسلمين ـ حسب النظرية القرآنيَّة، أو الفكرة القرآنيَّة، أو السُّنَّة القرآنيَّة هذه ـ نخالف هؤلاء ونقول: غيِّر نفسك يتغيَّر التاريخ، وبالتعبير القرآني: غَيِّر ما بنفسك أو غيِّر ما بأنفس الناس، يتغيَّر التاريخ.

ولهذا نرى كيف فعل النبيُّ ﷺ حينما بعثه الله تعالى في الأمِّيين رسولًا، وكانوا في ضلال مبين، وكانوا على شَفَا حفرة من النار؛ فَسَدَت عقائدهم، وفَسَدَت أخلاقهم، وفَسَدَت أنظمتهم، وفَسَدَت تقاليدهم، وهنا بدأ ﷺ بتغيير الأنفس؛ ليَصُبَّ في عروق القوم دمًا جديدًا، تتغيَّر به

QaradawiBooks.com

أنفسهم وعقولهم من الوثنيَّة إلى التَّوحيد، وتتغيَّر نظرتهم إلى الله تعالى، وإلى الكون، وإلى الحياة، وإلى الإنسان، وإلى الدين، وإلى الدنيا، فصنعهم صناعة جديدة، وأنشأهم خلقًا آخر حتَّى رأينا عمر بن الخطاب الجاهلي يختلف تمامًا عن عمر بن الخطاب الإسلامي، ورأينا خنساء الجاهلية غير خنساء الإسلام!

ولذلك فأصعب التغييرات هو تغيير الإنسان، فأنت تستطيع أن تُغيِّر البيئة الماديَّة؛ كأن تنشئ بحيرة صناعيَّة، وتُحوِّل الصحراء إلى أرض خضراء، وتعلي البنيان حتَّى يناطح السحاب، لكنك مع هذا لا تستطيع أن تُغيِّر الإنسان، لأنَّ الإنسان لا يُقاد من أذنه كما تقاد البهيمة العجماء، ولكنَّه يُقاد من داخله، ويُقاد من نفسه الَّتي بين جنْبيه، وأيُّ تغيير اجتماعي لا بدّ أن يبدأ بتغيير ما بالأنفس.. تغيير العقائد والأفكار والمفاهيم، والأخلاق والقيم؛ فهذا هو الَّذي يُغيِّر المجتمعات والأمم، وهذا ما صنعه الرسول الكريم ﷺ بالعرب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

متى تنزل العقوبة؟

وقد ذكر بعض المفسِّرين بعض الاعتراضات، فقالوا: إنَّ العقوبة تنزل أحيانًا بالناس، ومنهم من لم يصنع شيئًا ولم يرتكب ذنبًا، والقرآن يقول: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]، والحديث يقول: «**إنَّ النَّاس إذا رأوُا الظالمَ فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمَّهم اللهُ بعقابٍ منه**»[1]، وهذا الاعتراض ليس في محله؛ لأنَّ العبرة بمجموع

(١) رواه أحمد (١)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الملاحم (٤٣٣٨)، والترمذي (٣٠٥٧)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٤٠٠٥)، كلاهما في الفتن، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٥٦٤)، عن أبي بكر الصديق.

QaradawiBooks.com

القوم، هل يغلب عليهم الخير أو يغلب عليهم الشـر؟ هل يغلب عليهم المعروف أو يغلـب عليهم المنكر؟ فـإذا كان المعروفُ هـو الغالب؛ والمنكر موجود ولكنَّه ضعيف، لا يستطيع أن يستعلن، ولا يستطيع أن يتَمطَّى برقبته، ولا يسـتطيع أن يرفَع رأسـه، فلا يوجد إشكال، ولكن المشكلة حينما يوجد المنكر ويستعلي، ويستعلن ويتَبجَّح، ولا يُوجد من يوقفه عند حده، فهنا تنـزل العقوبة؛ لأنَّ النَّاس رأوا المنكر فلم يغيِّروه، ورأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، ولم يقولوا للظالم: يا ظالم؛ بل أنَّهم في بعض الأحيان يقولون للظالم: ما أعظمك فأنت المنقذ، وأنت البطل العظيم، وأنت المُحرِّر! وهذه هي المصيبة، والحديث يقول: «**إذا رأيتَ أُمَّتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تُوُدِّع منها**»[(١)].

فحينما تنزل العقوبة؛ فإنها لم تنزل جزافًا ولا ظلمًا، إنَّما نزلت، لأنَّ المجتمع يسـتحق هذا في مجموعه، وإن كان فيه الخيِّرون، ولكنهم هنا يُؤخَذون فيمن يُؤْخَذ، ثم يُبعثون على نيَّاتهـم يوم القيامة، ولذلك نرى الرسـول ﷺ حينما سُـئل: أتهلك القرية وفيها الصَّالحون؟ قال: «**نعم**»، قالوا: لِمَ؟ قال: «**بتهاونهم وسكوتهم على معاصي الله**»[(٢)].

وفي حديث زينب بنت جحـش رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ، دخل عليها فزعًا يقول: «**لا إله إلَّا الله، ويلٌ للعرب من شـرٍّ قد اقترب، فُتح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هـذه**» وحلَّق بإصبعه الإبهام والتـي تليها، قالت

(١) رواه أحمـد (٦٧٧٦)، وقال مخرِّجوه: إسـناده ضعيف لانقطاعه. والبـزار (٢٣٧٤، ٢٣٧٥)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٥٧٧)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه البزار (٤٧٤٣)، والطبراني (٢٧٠/١١)، وضعف إسناده البزار في تخريج الإحياء صـ ٧٨٥، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١٤٤): رواه الطبراني، وفيه يحيى بن يعلى الأسلمي وهو ضعيف. وكذلك رواه البزار بنحوه، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

زينب بنت جحش: فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كَثُر الخَبَث**»[١]. فعندما يكثر الخبث على الطيب تنزل النقمة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾: كتب أحد العلماء، وهو الأستاذ جودت سعيد من علماء الشام ـ كتب كتابًا تحت هذا العنوان: «حتى يغيِّروا ما بأنفسهم» تكلَّم فيه عن هذه السُّنَّة، وهو كتاب جيد ينبغي أن يُقرأ، وقد نقلت عنه في كتابي: «الصحوة الإسلاميَّة بين الجحود والتطرُّف»[٢]، وقد جَعَل علَّامة الجزائر، المصلح الإسلامي المعروف: الشيخ عبد الحميد بن باديس، شعار جمعية العلماء في الجزائر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. ولا زالت ملتقيات الفكر الإسلامي في الجزائر تلتقي تحت هذا الشِّعار؛ فهو شعارٌ في غاية الأهمية.

والنِّقَم حينما تنزل، تنزل على «القوم» لا على أفراد، والفرد يمكن أن يُبتلى فينزل به العقاب، وإن لم يفعل شيئًا، كما ذكر الله تعالى في سورة البروج، أولئك المؤمنين الَّذين خُدَّتْ لهم الأخاديد، وشُقَّت لهم الشُّقوق، وَوُضِعت فيها النار، وأُلقُوا فيها ولا ذنب لهم: ﴿**وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ**﴾ [البروج: ٨]. فالفرد قد يُبتلى ويمرض دون ذنْب منه، ولكن الجماعة والقوم والأمة والمجتمع، هؤلاء لا تنزل بهم العقوبة إلَّا بمعصيةٍ وذنوب، وهذا ما قرَّره الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فأحسن التقرير.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٦)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٠).

(٢) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف صـ ١٥٠ وما بعدها، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٣، ٢٠١٢م.

QaradawiBooks.com

سـنَّة الله في المجتمعات أنَّها تنمو وتزدهر وتتقـدَّم وتقوى وتنتصر بالمعاني الإيمانيَّة والأخلاقيَّة، وبالعلم وبالعمل حسـب السنن الإلٰهيَّة، وتذبل المجتمعات وتذوي وتمرض، وقد تموت نهائيًّا، وتسقط وتزول، كما زالت أمم كثيـرة، وانتهت من خريطة العالـم، بذنوبهم وعصيانهم وكفرهم بأنعم الله ﷻ. ومن هذه الذنوب: غفلتهم عن سُـنن الله تعالى، واطِّراحهم لشبكة الأسباب والمسبَّبات.

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾: لا يغني عنهـم الحَفَظة الَّذين يحرسـونهم في هذه الحالة، ولا يغني عنهم أحد: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾: يلي أمورهم، ويدفع عنهم وينصرهـم، كما قال الله تعالى حينما أخذ قارون وخسف به وبداره الأرض: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]. وهكـذا حينمـا يأخذ الله الظَّلمة أخذه الأليم الشديد كما قال الرسـول ﷺ: «**إنَّ الله ليُمْلي للظالم حتَّى إذا أخذَه لم يُفْلِتْه**»[1]. ثم تلا الآية الكريمة من سورة هود: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾: إذا أراد بهم ما يسـوؤهم أو يُحزِنهم من فقر أو مـرض، أو مجاعة أو بلاء، أو تسـليط عـدوّ، أو إنزال كوارث دنيويَّة؛ كالزلازل والبراكين المتفجِّـرة، والفيضانات المغْرقة، والجدب والقحط، فلا يردُّه أحد، وهؤلاء هم الَّذين جنَوا على أنفسهم: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]. فاللهُ لا يعاقب النَّاس بشيء لم يفعلوه؛ إذ إنَّ سنة الله تعالى أن ينزل بهم العقاب بما كسـبت أيديهم: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ [الروم: ٤١].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٦) ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٣)، عن أبي موسى.

QaradawiBooks.com

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]. وهذا ما قدَّره الله في الكون أن يرسم الإنسانُ مصيرَه بيديه وبأعماله، فَيُجْري عليه أقداره من خلال أعماله وتصرُّفاته الَّتي يستحقُّ بها النعمة أو العقوبة: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧]. فالإنسان يستطيع أن يجلب على نفسه النعمة، ويستطيع أن يجلب على نفسه النقمة.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

آيات الله في الآفاق وفي الأنفس

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۞ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۞ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۞ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ۞ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٢ ـ ١٦]

ظاهرة البرق آية من آيات الله:

هذه الآيات تتمَّة للشوط الَّذي يعرض لنا آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، وإن كان الَّذين كفروا قد طلبوا آيةً واحدة من النبيِّ ﷺ وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾. فإنهم بذلك قد دَلَّلُوا على عَمَاهم، فأين هم من آيات الله تعالى المبثوثة من فوقهم ومن تحتهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ومن بين أيديهم ومن خلفهم؟ وهم في هذا العراء المكشوف ـ خصوصًا في بلاد مثل بلاد العرب ـ يتعايشون مع الطبيعة؛ لا يعيشون في بيوت مغلقة، كما نعيش نحن الآن!

إنَّهم يتعاملون مع الطبيعة العارية: يرون الظواهر الكونيَّة بأعينهم، ويسمعونها بآذانهم، ويتجاوبون معها بفطرهم وقلوبهم، ولذلك يعرض الله تعالى عليهم هذه الظواهر الطبيعيَّة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۞ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

QaradawiBooks.com

مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

هو الَّذي يريكم هذه الظواهر.. تَرونها بأعينكم مثل ظاهرة البرق، وتسمعونها بآذانكم مثل ظاهرة الرعد، فالبرق يريكمُوه؛ ليخيفكم ويطمعكم، هذا الضوء اللامع الساطع الخاطف، الَّذي يبلغ من شدَّته أحيانًا أن يكاد يذهب الأبصار كما قال الله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣]، وكما قال: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠].

هذه الظواهر يُريكموها الله تعالى خوفًا وطمعًا؛ لتخافوا وتطمعوا، لتنقادوا إليه بالرغب والرهب، إذا رأيتم البرقَ خفتم من سطْوته ونقْمته، وطمعتم في فضله ورحمته، خفتم من الصواعق تنزل عليكم، وطمعتم في المطر يغيثكم الله به، أو خفتم أن ينزل الماء مدْرارًا فيَّاضًا أكثر ممَّا تبتغون فيهلككم ويغرقكم، كما في السيول المدمِّرة والفيضانات الهائلة، فالشيء إذا زاد عن حدِّه انقلب إلى ضده، ولذا كان من دعاء النبي ﷺ في الاستسقاء: «**اللهمَّ حوالينا ولا علينا**»[1].

﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: خوفًا أن يزداد الأمر فيكون من ورائه الهلاك، وطمعًا أن ينزل بالقدر الَّذي يصلح ولا يفسد، وينفع ولا يضر، ويُحيي ولا يميت.

والإنسان يقابل بين هاتين النزعتين: الخوف والطمع، أو الرَّغَب والرَّهَب، حتَّى يظل مع الله تعالى راغبًا راهبًا، خائفًا طامعًا: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]،

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٩٣٣)، ومسلم في صلاة (٨٩٧)، عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦] خوفًا من عذابه، وطمعًا في ثوابه، خوفًا من عقابه وعدله، وطمعًا في رحمته وفضله، وهنا في هذه السورة كما في سورة الروم حينما سَرَدَ الله علينا مجموعةً من آياته في الكون: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ [الروم: ٢١]. ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢]. إلى أن قال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الروم: ٢٤]. فآية البرق إنَّما هي للخوف والطمع.

السحاب وممَّ يتكون؟

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾: أي: المُحمَّلة بالماء، تنزل منها الأمطار، تحيي الأرض بعد موتها، وتروي الظمأ، وتؤدِّي للناس حاجاتهم من الحياة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، والله ﷻ يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [الأعراف: ٥٧]، فالله هو الَّذي ينشئ هذه السحاب الثِّقَال، الَّتي تحملت بأبخرة الماء وتصاعدت، ثم تنزل مطرًا إذا أذِن الله لها.

ذكر بعض المفسِّرين أنَّ السَّحاب عبارة عن أبْخرة صعدت من الأرض وتَكَوَّنت في الجو، حتَّى إذا وصلت إلى درجة برودة معينة نزلت، وأنكر هذا عليهم مفسِّرون آخرون وقالوا: إنَّ هذا من كلام الفلاسفة، والله ﷻ هو الَّذي ينشئ السحاب الثقال!

QaradawiBooks.com

ونقول: ليس كل كلام الفلاسفة باطلًا؛ بل فيه الحق والباطل، فيُؤْخذ منه الحق ويترك الباطل، وما قاله هؤلاء المفسِّرون قد أثبته العلم الحديث، ويدْرُسه التلاميذ في المدارس، وقد أصبحنا نركب الطائرات وتعلو بنا حتَّى نرى السحاب من تحتنا، وفوقه الشمس ساطعة.

وليس معنى أنَّ الله ينشئ السَّحاب أنَّه لا ينشئه بأسباب، فالله ينشئ الأشياء ويخلقها وَفْقَ سنن معيَّنة، وبأسبابٍ ربط بها هذا الكون كله، فهذا الكون مرتبط بشبكة من الأسباب والمُسبَّبات، وليس هناك أي نزاع بين ما يُقرِّره العلم وما جاء به الدين في هذه الناحية، والعرب قديمًا أشاروا إلى أنَّ السحاب أصله من الماء:

كالْبَحْرِ يُمْطِرُه السَّحابُ وما له فَضْلٌ عَلَيْهِ لأنَّه مِنْ مَائِهِ[1]

تسبيح الرعد بحمد الله وكيف يكون؟

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾، الرَّعد مُسَبِّح بحمد الله، يُنزِّه الله تعالى عن كلِّ نقص، وعن كلِّ ما لا يليق بذاته، كما أنَّه يحمده ﷻ ويصفه بالكمال، فكيف يُسبِّح الرعد؟ هل له عقل حتَّى يُسبِّح؟

قال بعض المُفَسِّرين: المراد سامعو الرَّعد، فهناك مضاف محذوف[2]، وهذا تأوُّل وتكلُّف، فالقرآن يؤكِّد أنَّ الكون كلَّه يسبح بحمد الله تبارك وتعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١، الصف: ١]. ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ﴾ [التغابن: ١]. ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) معجم الأدباء (٢٧٧١/٦).

(٢) الكشاف للزمخشري (٥١٨/٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ [النور: ٤١].

فما في السماوات وما في الأرض يُسبِّح بحمد الله، و«ما» لغير العقلاء، كما أنَّ من في السماوات والأرض يُسبِّح بحمد الله، و«مَنْ» للعقلاء، أي: أنَّ الكون كله، عقلاءه وغير عقلائه، يُسبِّح بحمد الله تبارك وتعالى، فهي ظاهرة عامَّةٌ، ولذا فالله تعالى يقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. فالتَّسبيح عامٌّ، ولا يصحُّ أن يقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: من في السماوات السبع والأرض، وإلا فلم يجز أن يأتي بعدها ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾، وهذا يعني أنَّ السماوات ذاتها تسبِّح، والأرض تسبِّح بحمد الله، ومَنْ فيهنَّ مِن العقلاء، الملائكة في السماوات، والإنس والجن في الأرض يسبِّحون، وكل ما في الكون مسبح بحمد الله.

والتسبيح الَّذي تسبحه هذه المخلوقات غير العاقلة غير معروف لنا، ولا ندري أي نوع من التَّسبيح هو؟ فالبعض يقول: لعلَّ التَّسبيح بلسان الحال، والعرب تقول: لسان الحال أفصح من لسان المقال، فهناك كلام بلسان الحال وهناك كلام بلسان المقال، فهذه المخلوقات تُسبِّح، أي: تدلُّ على الله ﷻ، وهذه الظواهر دالَّةٌ على خالقها ومنشئها ومبدعها، وهذا هو تسبيحها، وإن لم تتكلَّم بلسانٍ ذَلْق[1].

والبعض الآخر يقول: إنَّها تسبِّح ولكن نحن لا نعرف كيفية ذلك التسبيح، والله تعالى يقول: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لا ندري كُنْه هذا التسبيح.

(١) تفسير الرازي (٢٣/١٩).

QaradawiBooks.com

والحقيقة الَّتي نؤمن بها أن هذا الكون كله مسبِّح بحمد ربِّه سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١]، وهذا الرعد يسبِّح بحمد الله.

وهناك بعض الروايات تقول: إنَّ الرعد ملك من الملائكة[1]، ولكن ليس في الصحيحين شيء من هذا، والسِّياق القرآنيّ يدلُّ على غير هذا، وفي هذه السورة: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾، والأصل في العطف أن يقتضي المغايرة، فالملائكة إذن شيء غير الرعد، وليس الرعد ملَكًا كما يُقال، والقرآن يدلُّنا على أنَّ الظواهر والقوى غير العاقلة في هذا الكون تُسبِّح بحمد الله، والقوى العاقلة الملائكة والجن والإنس تُسبِّح، فالجميع يُسبِّح، وهذا دليلٌ على أنَّ الرعد هو هذه الظاهرة الَّتي نسمع صوتها عند احتكاك السُّحب بعضها ببعض على حسب ما يفسِّر الفيزيائيون والطبيعيون هذه الظاهرة.

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾: والملائكة تُسبِّحه أيضًا ﷻ خشيةً له وإجلالًا له، فهُمْ كما قال الله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، فهم يُسبِّحون دائمًا.

معنى إرسال الصواعق:

﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾: هذه النيران النازلة من السماء؛ لتحرق وتدمِّر وتهلك، يرسلها الله ﷻ على مَنْ يشاء، ويصيب بها مَنْ يشاء، كما أصاب بها قوم عاد وثمود، أخذتهم الصّاعقة:

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣٨٢/١).

QaradawiBooks.com

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فُصِّلَت: ١٣]، ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فُصِّلَت: ١٧]، وكما حدَث لقومِ موسى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣]. فهذه الصَّواعقُ يُرسلها الله ﷻ على مَنْ يشاء مِنْ عباده؛ عقابًا لهم وانتقامًا منهم، وهو صاحب هذا الكون يُسيِّره كما يشاء، قد يخرق الأسباب الَّتي يسير عليها هذا الكون، ويخرق السُّنن؛ لأنَّه هو المسيطر على ذلك كله، وقد يُسيِّر الأشياء في وقت معيَّن، وفي زمان معيَّن، لحكمة معيَّنة، هو الَّذي يزلزل الأرض زلزالها، وهو الَّذي يوقد الزلازل الخامدة، وينشطها بعد خمول، ويحرِّكها بعد سكون، فهذا أمره وهذه إراداته في وقت معيَّن، وفي مكان معيَّن، ولقوم مُعيَّنين، فهذه الظواهر الكونيَّة في قبضة الله تعالى يستخدمها كما يشاء لما يشاء مع مَنْ يشاء ولذلك قال هنا: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾.

جدال الكفار في وحدانيَّة الله وقدرته:

﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾: ومع هذا فهؤلاء النَّاس يجادلون في الله: يجادلون في وحدانيَّة الله، ويجادلون في قدرة الله، يقولون كما حكت عنهم السورة: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، ويماحكون في طلب الآيات، ويقولون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ [الرعد: ٧]، والآيات من حولهم تسدُّ عين الشمس، وكم رأوا من الآيات فأعرضوا، فهؤلاء رغم هذه الظواهر الناطقة من حولهم يُجادلون في الله، كالذين حكى الله عنهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۞ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٨، ٩] من المتكبِّرين والمختالين والفخورين بأنفسهم.

QaradawiBooks.com

وقد وَرَدَت روايات: أنَّ رسول الله ﷺ بعث رجلًا مرَّة إلى رجلٍ من فراعنة العرب فقال: «**اذهبْ فادعُه لي**». فقال: يا رسول الله، إنَّه أعتى من ذلك. قال: «**اذهبْ فادعُه لي**». قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسولُ الله ﷺ. فقال لرسولِ رسولِ الله: وما الله؟ أمِنْ ذهبٍ هو؟ أمِنْ فضَّة هو؟ أمن نُحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنَّه أعتى من ذلك، قال لي كذا وكذا. فقال: «**ارجعْ إليه الثانية**». فقال له مثلها، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، قد أخبرتك أنَّه أعتى من ذلك، قال: «**ارجعْ إليه فادعُه**». فرجع إليه الثالثة، قال: فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينما هو يُكَلِّمه؛ إذ بعث الله سحابة حيال رأسه، فرُعِدْتُ، فوقعت منها صاعقة، فذهبت بقَحْف رأسه، فأنزل الله تعالى: ﴿**وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ**﴾[1]. ولكنَّ العبرة بعموم الآية، فالآية تُعجِّب من شأن هؤلاء الناس، يجادلون في الله برغم ما رأوا من الآيات الناصعة الساطعة القاطعة.

﴿**وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ**﴾: الله أشدُّ مكرًا وأسرع مكرًا من هؤلاء، يمكر بهم من حيث لا يشعرون، فهو شديد العقوبة والمحال، والتدبير الَّذي يوصل إليهم ما يكرهون من حيث لا يشعرون، وقد وَرَدَ على لسان عبد المطَّلب حينما جاء أبرهة الأشرم إلى مكة، وأراد أن يهدم البيت الحرام قال:

(١) رواه النسائي في الكبرى في التفسير (١١١٩٥)، وأبو يعلى (٣٤٦٨)، والطبراني في الأوسط (٢٦٠٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٠٩١): رواه الطبراني وأبو يعلى والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح، غير ديلم بن غزوان، وهو ثقة، وفي رجال أبي يعلى والطبراني علي بن أبي سارة وهو ضعيف. عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

لاهُـــمَّ إنَّ الـعـبـدَ يمـ ـنـعُ رَحْلَـهُ فامنـعْ رِحالَكْ
وانْصُـرْ علـى آل الصَّليـ ـبِ وعابديـه اليـومَ آلَكْ
لا يـغـلـبـنَّ مِـحَـالُـهـم وعديدُهـم يومًـا مِحَالَكْ[1]

أي: لا يغلبنَّ مكرُهم مكرَك، ولا كيدُهم كيدَك، ولا قوَّتُهم قُوَّتك.

الله وحده له دعوة الحق:

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾: الله ﷻ صاحب هذه الآيات الَّذي يُري الناسَ البرقَ خوفًا وطمعًا، ويُنشئ السَّحاب الثقال، والذي يُسبِّح الرعد بحمده والملائكة من خِيفَتِه، والذي يُرسِل الصواعق فيصيب بها من يشاء، تبارك وتعالى الشديد المحال، له دعوة الحق، له وحده لا لغيره.

وهذا التقديم في ﴿لَهُۥ﴾ أفاد انفرادَه سبحانه بدعوة الحق، فليست لغيره، هو وحده الَّذي يُدعى بحق، وهذا من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، فهو الَّذي يُدعى بحقّ فيجيب من دعاه، لأنَّه وحده القادر على إجابة الداعي، يستطيعُ أن يعطيَ كل من دَعا سؤاله ويحقِّق طلبه، لأنَّ الخزائن كلها بيده.

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ أمَّا غيره فدعوته باطلة، إذا دُعِي إنَّما يُدعَى بباطل، والَّذين يدعون من دون الله يدعون من لا يملك شيئًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. يدعون من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا.

وكلمة الدعاء في القرآن الكريم تحمل معنى العبادة، فكثيرًا ما يُعبِّر عن العبادة بالدعاء، وقد يقصد منها السؤال والطلب، إنَّما عبَّر عن العبادة

(١) تاريخ الطبري (٢/١٣٣، ١٣٤).

QaradawiBooks.com

بالدعاء؛ لأنَّ الدعاء مـخُّ العبادة، ورُوح العبادة هـي التَّضرُّع والابتهال، والشـعور بالحاجة إلى المدعوِّ، والتعبير عن ذلك، وبسط أكفِّ الضراعة والذلِّ إليه، وليسـت رُوح العبادة هي هذه الرسوم والأشـكال، فالعبادة الحقيقية يحياها الإنسـان حينما يدعو دعاء المضطر، ومن هنا يجيب الله تعالى المشركين إذا دَعَوا في سـاعة العُسرة والشدَّة؛ حينما تحيط براكبي السفينة الأمواج من كل مكان، ويظنُّون أنَّهم قد أُحيط بهم، وتَضْطرب بهم السـفينة وتتأرجح، ويصبح الموت حولهم، هنالك يُخلصون الدعاء كما حكى القرآن: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ [يونس: ٢٢، والعنكبـوت: ٦٥، ولقمان: ٣٢]. ففي هذه الحالة رجعوا إلى الفطرة وذاب الطلاء الكاذب الَّذي غشَّى فطرتهم، ولم يذكروا هُبَل ولا اللات والعُزَّى؛ بل قالوا: يا رب! وهنا يستجيب الله لهم، فحقيقـة العبادة وروحهـا ومخها كما ورَد فـي حديث ضعيف هو الدعاء[١]، وجاء في الحديث الَّذي صحَّحَه الترمذي: «**الدعاءُ هو العبادة**»[٢]. ثـمَّ تـلا قـول الله تعالـى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافـر: ٦٠]. ومعنى ﴿عَنۡ عِبَادَتِي﴾ هنا: أي عن دعائي، فالسِّياق يقتضي هذا، فالدعاء هو العبادة.

الذين يدعون غير الله:

ومن هنـا فالذين يدْعون من دون الله، أي: يعبـدون من دون الله، أو يدعون آلهتهم المزعومة ـ بالفعل ـ أن تجلبَ لهم النفع، أو تدفع عنهم

(١) رواه الترمذي في الدعوات (٣٣٧١) وقال: غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. والطبراني في الأوسط (٣١٩٦)، وضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٠٠٣)، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (١٨٣٥٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الصلاة (١٤٨١)، والترمذي في تفسـير القرآن (٢٩٦٩) وقال: حديث صحيح. وابن ماجه في الدعاء (٣٨٢٨)، وصحَّحه الألباني، في صحيح أبي داود (١٣٢٩)، عن النعمان بن بشير.

QaradawiBooks.com

السُّوء والضُّرَّ، أو تحقِّق لهم الخيرات، وتدرأ عنهم الشرور، أو تنصرهم على عدوِّهم، أو تشفيهم من أمراضهم.

هـــؤلاء: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾: لا تستجيبُ هذه الآلهة، وهذه الأصنام، وهذه الأوثان المعبودة لمن يدعوها ويعبُدها بشـــيء، إلَّا كاستجابةِ مَنْ يبســـطُ كفَّيه لِيصِلَ إلى الماء؛ ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾: إمَّا لأنَّ الماء بعيدٌ كأنْ يكون في بئر، وهو يبسط كفَّيه إلى الماء، ولكنَّ القاع بعيد، فلا يستطيع أن يصل إلى الماء، ولا يستطيع أن يصل إلى فيه، وإمَّا لأنَّه يدعو الماء فيبسط كفيه ويقول: أيها الماء تعال إلى فـــيّ، فكأنَّه ينادي الماء ويخاطبـــه ليبلغ فاه، والماء جماد لا يعقل ولا يسمع، فلن يتحرَّك إليه، ولن يصل إلى فمه، وهذا هو شـــأن الَّذين يدعون آلهتهم من دون الله، سواء كانت هذه الآلهة أوثانًا أم أحجارًا، أم أشجارًا أم أبقارًا، أم أنهارًا أم جِبالًا.

﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ فادْعوا ما شـــئتم هذه الآلهة المزعومـــة، فلن تُلبِّي طلَبَكم؛ لأنَّها عاجزة كمـــا قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۞ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤]. فهذا هو شأن تلك الآلهة المزعومة وشأنُ من يدْعونها.

دعاء الكافرين في ضلال:

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾: في ضَيَاع وفي ذهاب؛ لأنَّه دعاء باطل، يدعو مَنْ لا يستجيب له إلى يوم القيامة: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقـــاف: ٥]. من

QaradawiBooks.com

أضلُّ من هذا؟! إنَّه دعاءٌ ضائعٌ هباء: أن يدعوَ الإنسانُ من لا يستجيب له في الدنيا والآخرة!

وقد ذكر لنا القرآن من أحوال أهل النار: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠]، وهذه حقيقةٌ؛ فدعاء الكافرين ضائعٌ ضالٌّ ذاهبٌ، لا جدوى منه؛ لأنَّه دعاءُ من لا يستجيب له.

علاقة الكون بالله:

ثمَّ قرَّر القرآن حقيقة أخرى مُكمِّلة لحقيقة التَّسبيح، تُظهر لنا أيضًا صفحة من صفحات هذا الكون، وتَصوُّر الإسلام لهذا الكون، فهذا الكون في التصوُّر الإسلامي كوْنٌ مُسبِّح بحمد الله، ساجدٌ لله ﷻ، ولذا قال: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾.

فكلُّ منْ في السماوات والأرض يسجد لله طائعًا كأهل الإيمان، أو كارهًا كغير المؤمنين، وهناك من يسجد سجود اختيار، شأن المؤمنين من بني آدم ومن الجنّ ومن الملائكة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

فالملائكة يسجدون، والمؤمنون من بني آدم يسجدون، والمؤمنون من الجنِّ يسجدون، وهناك المخلوقات الأخرى الساجدة لله سجودَ تسخير، فالله هو الَّذي يسخِّرها، فهي منقادة مذْعنة لله ﷻ، ماضيةٌ في رحاب سُننه لا تَتمرَّد عليه، ولهذا فالكون كلُّه ساجدٌ لله، مَنْ في السماوات ومَنْ في الأرض وما في السماوات وما في الأرض: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٩].

QaradawiBooks.com

فهذه علاقة الكون بالله؛ علاقة التَّسبيح والتَّنزيه، وعلاقة السجود والانقياد. ليس هناك في هذا الكون ذرَّة خارجة عن قبضة الله ﷻ أو متمرِّدة عليه، يوجد التَّمرُّد فقط بالنسبة لهذا النوع المكلَّف المختار، ولذلك نرى القرآن الكريم قد ذكر في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

فحينما ذكر المخلوقات غير العاقلة وغير المختارة ذكرها بالعموم والإطلاق: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾، وحينما جاء إلى النوع الَّذي أعطاه الله حرية الإرادة وحرية الاختيار قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ أناسًا آخرين لا يسجدون لله ﷻ، قد يسجدون لأصنام، وقد يسجدون للشمس، كما حكى الهدهد لسليمان فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤]. وقد يسجدون لبشرٍ من دون الله كما قال فرعون وملؤه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] إلى آخر هذا السجود لغير الله من البشر، أمَّا المخلوقات الأخرى فهي لا تسجد إلَّا لله.

فهذه الآية الكريمة تُقرِّرُ هذه الحقيقة.. حقيقة الكون الساجد لربه، كما قرَّرت حقيقة الكون المُسبِّح بحمد ربِّه، فالكونُ طَوْعُ أمر الله ﷻ، وبتعبير آخر: مسلم لله؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]. فيسجد هؤلاء المخلوقون؛ بل وتسجد ظلالهم الملتصقة بهم: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ من ذوي الأجسام الكثيفة من الإنسان وغيره، فهؤلاء ظلالهم أيضًا تسجد لله كما تسجد شخوصهم، وذلك ـ على وجه الخصوص ـ إنَّما يكون ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ أي: في البُكور:

QaradawiBooks.com

أوائل النهار، وفي الآصال: أواخر النهار، ولعل ذكر هذين الوقتين بالذات؛ لأنَّ الظلال أي: الخيالات الَّتي تظهر في الضوء، تكون ممتدة فيهما أكثر من غيرهما.

وقد يكون المقصود بالغدوِّ والآصال: الأوقات كلها، كما نقول: هو يفعل كذا صباح مساء، أي: في كلِّ الأوقات، أي أنَّ هذا السجود مستمرٌّ بكرةً وعشيًّا، غدوًّا وأصيلًا، فهو سجودٌ دائمٌ ومستمر، على خلاف سجود الإنسان الَّذي قد يحدث في بعض الأحيان دون بعضها الآخر.

ضرورة تجاوب الإنسان مع الكون في السجود والتسبيح:

هذه بعض آيات الله تبارك وتعالى في هذا الكون الَّذي تتَحكَّم فيه إرادة الله ﷻ، ذكرها الله للناس؛ ليتعايشوا مع الكون بقلوب مفتوحة، ويعلموا أنَّ هذا الكون ساجدٌ مُسَبِّح، فليكونوا ساجدينَ مسبِّحين، وقد ورد في الحديث أنَّ المؤذِّن حين يُؤذِّن يتجاوب معه الشجرُ والمَدَرُ وكلُّ شيء[1]، وكذلك المُلَبِّي في الحجِّ حينما يُلبِّي، يلبِّي معه الشجَر والمدَر والحجر[2]، فكلُّ ما حول الإنسان يتجاوب معه في التَّسبيح بحمد الله، والتلبية لله ﷻ، كما ذكر القرآن عن سيِّدنا داود: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۞ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨، ١٩]، ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

(٢) إشارة إلى حديث: «ما من ملبٍّ يُلَبِّي، إلَّا لبَّى ما عن يمينه وشماله، من حجرٍ أو شجرٍ أو مدرٍ، حتى تنقطع الأرض، من هاهنا وهاهنا». رواه الترمذي (٨٢٨)، وابن ماجه (٢٩٢١)، وابن خزيمة (٢٦٣٤)، ثلاثتهم في الحج، والحاكم في الصوم (٤٥١/١)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحح الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١٣٤)، عن سهل بن سعد.

QaradawiBooks.com

الكونُ متجاوبٌ مع الله ﷻ تسبيحًا وتحميدًا وسجودًا، فينبغي أن نكون كذلك، وينبغي ألا نتعامل مع هذه الظواهر بقلوب جامدة، وقد روي أنَّ الرسول ﷺ كان إذا رأى البرق أو سمع الرعد يقول: «**اللهمَّ لا تقتُلْنا بغَضَبِك، ولا تُهْلِكْنا بعذابك**»[١]. ويقول: «**سبحانَ من يُسبِّح الرَّعْد بحمده**»[٢].

وكان طاوس رضي الله عنه إذا سمع الرعد ينظر إلى السماء، ويقول: «سبحان مَنْ سبَّحْتَ له»[٣]، وكذلك كان عبد الله بن الزُّبَيْر رضي الله عنهما يقول: «سبحان من يُسبِّح الرعد بحمده، والملائكة من خِيفَته! هذا وعيد للنَّاس»[٤]، وهكذا ينبغي أن يكون تجاوب النَّاس مع هذه الظواهر، ومع هذا الكون الساجد المنقاد المؤمن المُسبِّح بحمد الله تبارك وتعالى.

كلمة «قُلْ» في القرآن:

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾:

يخاطبُ الله رسوله محمدًا ﷺ بقوله: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾، ومما يلفت العقل والقلب في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿قُلْ﴾، وهي كلمة تتكرَّر كثيرًا في القرآن الكريم[٥]: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١]،

(١) رواه أحمد (٥٧٦٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في الدعوات (٣٤٥٠) وقال: غريب. والحاكم في الأدب (٢٨٦/٤) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن ابن عمر.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٣٨٩/١٦)، عن أبي هريرة رفعه أنَّه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يُسبِّح الرعدَ بحمده».

(٣) رواه عبد الرزاق في جامع معمر (٢٠٠٠٥).

(٤) رواه أبو داود في الزهد (٣٧١).

(٥) ورد فعل الأمر (قُلْ) المخاطب به الرسول ﷺ في القرآن الكريم ثلاثمائة واثنتين وثلاثين مرة (٣٣٢). انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي مادة (ق. و. ل).

QaradawiBooks.com

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفَلَق: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١، ٢]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]. فهي أمرٌ إلٰهيٌّ من الله تعالى لرسوله، وهذا الأمر يدلُّ على أنَّ محمدًا ﷺ في هذا القرآن يتلقَّى ويتعلَّم، فهو مُعَلَّمٌ، ليس القرآن من صنعه ولا من عمل يده، ولكن هناك سلطة أعلى منه تأمره وتنهاه، وتقول له: قل كذا وقل كذا، هذه السلطة هي صاحبة القرآن، وصدق الله العظيم الَّذي يقول: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]. ولذلك فمُحمَّد يتلقَّى من ربِّه، حين يقول الله له: ﴿قُلْ﴾.

توحيد الربوبيَّة والإلٰهيَّة:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾، يريد أن يُقرِّر حقيقة التوحيد: توحيد الربوبيَّة، وتوحيد الإلٰهيَّة.

وتوحيد الربوبيَّة لا إشكال فيه، فقد كان العربُ يقرُّون بتوحيد الربوبيَّة، ومن هنا قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ من الَّذي خلق هذه الأجرام في العالم العلويّ والعالم السفليّ؟ السماوات الَّتي ترونها سقفًا محفوظًا فوقكم، ولا تعرفون عنها شيئًا يُذكر، والأرض الَّتي تقلُّكُم وتعيشون فوقها، وجعلها الله لكم ذلولًا، مَنْ خالقها؟ مَنْ مُسيِّر أمرها؟ اسأل هؤلاء المشركين: مَنْ رب السماوات والأرض؟ الَّذين جعلوا مع الله آلهة أخرى يدعونها من دون الله، دعوى لا جدوى من ورائها، ولا تنتظر الجواب منهم، فالجواب معروف ومقرَّر، نطقوا به من قبل: نطقت به ألسنتهم، ونطقت به آيات الله في الكون من فوقهم ومن

QaradawiBooks.com

حولهم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أَجِبْ أنت يا محمد؛ فهذا هو الجواب المتعيّن ولا جواب غيره، وطالما أجابوا به: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: ٣١].

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥، والزمر: ٣٨].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزُّخرُف: ٩].

فتوحيد الربوبيَّة إذن معترَف به: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾، لا ربَّ إلَّا الله. وادِّعاء الربوبيَّة لغير الله تزويرٌ للحقيقة، لا يقبله عقل، ولا يقبله دين، ولا يقبله منطق، ومن هنا فقد أبطل الإسلام كل الرُّبُوبيَّات المُدَّعَاة من دون الله أيًّا كانت عناوينها، فلا ربَّ من الحجر، ولا ربَّ من البشر، ولا ربَّ من رجال الدنيا، ولا ربَّ من رجال الدين.

ودمغ القرآن بالشِّرك أهل الكتاب؛ لأنَّهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١]، وكانت دعوة محمد ﷺ إلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى المقوقس، وإلى أمراء أهل الكتاب، دعوة إلى التَّحرُّر من هؤلاء الأرباب

QaradawiBooks.com

المزعومين، ولهذا كان يختم دعوتَه إليهم بالآية الكريمة من سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ماذا عبدوا من دون الله؟

﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾: إذا كان رب السماوات والأرض هو الله كما أقررتم بذلك في مواطن شتّى، وكما تدلُّ على ذلك دلائل الكون، ودلائل الفطرة، ودلائل العقل، فلماذا تتَّخذون مع الله أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا؟!

وهذه الآلهة الَّتي اتَّخذوها أولياء من دون الله لتُواليهم وتنصرهم، لا تملك هذه الموالاة، ولا تقدر على هذا النصر، فهذا سَفَهٌ منهم، إذ المفروض أنَّ الإنسان إذا اتَّخذ وليًّا يتَّخذه قادرًا على أن ينصره، وأن يدفع عنه، وأن يجلبَ له النفع، وأن يدفعَ عنه الضُّر، أمَّا أن يتَّخذ وليًّا عاجزًا، فاتِّخاذه في هذه الحالة نوع من السَّفه والحمق والجهل والغباء! وهذا للأسف هو ما يصنعه المشركون فقد اتَّخذوا آلهة من دون الله أولياء لهم؛ بزعم أنَّها تُقرِّبهم إلى الله زُلفى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣]. والله ﷻ ليس في حاجة إلى وسائط، كما يفعل النَّاس إلى ملوكهم وأمرائهم وسلاطينهم، فبابُ الله مفتوحٌ لعباده ليس عليه حاجب ولا بوَّاب، ومن ثمَّ فليس في حاجة إلى وسطاء وشفعاء.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. فهؤلاء الشفعاء والأولياء لا معنى

QaradawiBooks.com

لاتِّخاذهم ولا جدْوى من ذلك؛ لأنَّ الله هو الولي: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الشورى: ٩]، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، وبالتالي فهم لا يملكون ذلك لغيرهم، وهذا هو الواقع، فهذه الآلهة أعجزُ ما تكون، والله تعالى يقول عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]. فما الَّذي جعَل الإنسانَ يتَّخذُ هؤلاء الأولياء؟ إنَّه العقل الوثنيُّ والشِّرك الَّذي ينحَطُّ بالإنسان إلى الدَّرك الأسفل، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١]. فحينما يشرك الإنسانُ بالله يصبح عقله مباءةً للخُرافات والأباطيل والأساطير والضلالات، ويُصدِّق ما لا يُصدَّق، ويَقْبل ما لا يُقْبل، ومن أجل ذلك خاطبهم الله بهذا الاستفهام الإنكاري: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾؟!

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾: لا يستوي الأعمى والبصير، ولا تستوي الظلمات والنور، فكيف سَوَّيتم بين الكافر والمؤمن، وبين المشرك والموحِّد، وبين المُبْطِل والمُحق؟ وكيف سوَّيتم بين الشِّرك والتوحيد، وبين الكفر والإيمان، وبين الباطل والحق؟

يستحيل أن يستوي الأضداد، ولكن هؤلاء سَوُّوا بين الشيء وضده، وبين الشيء ونقيضه، وهما لا يستويان لا في المجال الحسِّي ولا في المجال المعنوي، والمجالُ المعنوي أخطر وأشد كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وذلك لأنَّ العَمَى الحسِّي مثلًا قد يوقع الإنسان في حفرة ثم ينجو منها،

QaradawiBooks.com

حتَّى لو أصابته جراحة عُولِج منها، فإن مات فالموتُ ليس نهاية المطاف، ولكن المشكل هو العَمَى المعنوي، وكذلك الظلمات الحسِّيَّة والمعنويَّة، فظلمات العقول والقلوب بالكفر والشِّرك والباطل هي الأخطر!

غير مرخصة للطباعة

الله وحده خالق كل شيء:

﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾: يُعجِّب القرآنُ من فعلهم بهذا الاستفهام الإنكاري؛ فهل التبس عليهم الأمر واشتبه الطريق، لأنَّهم وجدوا هؤلاء الأولياء، وهؤلاء الآلهة خلقوا كخلق الله ﷻ؟ فتشابهَ الخلق عليهم، فهذه مخلوقاتٌ لله، وتلك مخلوقاتٌ للشركاء، وهذه تشبه تلك، فالتبس الأمر واشتبه، فهم معذورون في ذلك؟!

لا.. ليس هناك شيءٌ من هذا.. فهؤلاء لم ولن يخلقوا ذبابًا ولا ذَرَّة ولا شيئًا، والقرآنُ يُؤكِّد هذا بإقرار هؤلاء أنَّ الَّذي خلق السماوات والأرض هو الله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١]. والَّذين من دونِه ما خلقوا شيئًا، ما خلقوا شبرًا ولا فترًا، ولا سنتيمترًا ولا مليمترًا واحدًا في هذا الكون؛ بل لم يخلقوا ذرَّة، تلك الهباءة الدقيقة، ولم يخلقوا نواة في الذرَّة ولا جزءًا منها، فكيف جعلوهم شركاء وليس لهم خلق؟!

إنَّ الإلٰه الَّذي يستحقُّ العبادة هو الخالق الَّذي خلق هؤلاء، وخلق الشركاء أيضًا فهم مخلوقون، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]. ففضلًا عن أنَّهم لا يخلقون شيئًا هم مخلوقون: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

QaradawiBooks.com

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: هذا التَّلقين من الله للرسول ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾.

غير مرخصة للطباعة

الله وحده هو خالق كل شيء في هذا الكون، من فوق أو من تحت، عن يمين وعن شمال، وهو خالق الإنسان، وخالق الحيوان، وخالق النبات، وخالق الجماد، وخالق الأفلاك، وخالق الأشياء من الذرَّة إلى المجرَّة، الصغير والكبير من خلق الله، وتلك الخالقيَّة معنى يؤكِّده القرآن: أنَّ الله هو الخالق، وهو خالق كل شيء، وهي من أوَّل ما نزل من القرآن، والفوج الأول من الآيات الَّتي أنزلها الله على رسوله ﷺ يؤكِّد هذا المعنى: معنى الخالقيَّة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [العلق: ١ ـ ٤].

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾. وهذا ما أقرَّته الفطرة وأقرَّته الدلائل، ولم نجد أحدًا ممَّن ادَّعوا الألوهيَّة يومًا مثل النمرود في عهد إبراهيم، أو فرعون في عهد موسى، أو ممن قبلهم أو بعدهم ادَّعى لنفسه أنَّه الخالق أو أنَّه خلق شيئًا في هذا الكون، فلم يقل نمرود أنا خلقت، بل قال: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وفرعون لم يقل إنَّه خلق شيئًا، وكيف يقولون: خلقنا السماء والأرض، وهما مخلوقتان قبلهم؟ إنَّ أحدًا لا يستطيع أن يدَّعي هذا؛ لأنَّ الله خالق كل شيء.

الواحد القهار:

﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾: الواحد المنفرد بالخلق والإيجاد، الواحد في ذاته وصفاته وأسمائه. والقهَّار: الغالب الَّذي لا يغلبه أحد، ولا يعجزه شيء، ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨ و٦١]. يَقْهَر ولا يُقْهَر، يَغْلِب ولا يُغْلَب، ولذلك جاءت هذه الصيغة: ﴿ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ صيغة المبالغة، فقد يوجد من

QaradawiBooks.com

النَّاس من يقهر غيره: يستضعف إنسانًا فيقهره، أو يستضعف يتيمًا فيقهره: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضُّحى: ٩]، ولكن لا يوجد إلَّا الله ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾.

والواحديَّة والقهَّاريَّة صفتان من صفاتِ الله ﷻ، لا يشاركُه أحدٌ فيهما، ولذلك نراهما في القرآن متلازمتَيْن[1] فهذا يوسف عليه السلام يقول: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

ومن لم يعرف هذا في الدنيا يعرفه يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

توحيد الربوبيَّة دليلٌ على توحيد الإلٰهيَّة:

والقرآنُ استدلَّ بتوحيد الربوبيَّة على توحيد الألوهيَّة، فالمشركون يقرُّون بتوحيد الربوبيَّة كما تقدَّم، ومع إقرارهم هذا اتَّخذوا أولياء من دون الله، اتَّخذوا آلهة مع الله ﷻ! ولذا كان الاحتجاج عليهم بتوحيد الربوبيَّة حتَّى يُوَحِّدوا الله توحيد الألوهيَّة، توحيد العبادة، حتَّى لا يعبدوا إلَّا الله، ولا يرجوا إلَّا الله، ولا يخافوا إلَّا الله، ولا يركعوا ولا يسجدوا إلَّا لله، ولا يجعلوا ولايتهم إلَّا لله.

فالتوحيدُ الحقُّ ألا تتَّخِذ غير الله وليًّا، وألا تبتغي غير الله حكمًا، وألا تبغي غير الله ربًّا، وهي عناصر التوحيد الَّتي دلَّت عليها سورة التوحيد (سورة الأنعام).

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

---

(١) وردت هاتان الصفتان متلازمتين هكذا: «الواحد القهَّار» في القرآن الكريم ست مرات في سور يوسف (٣٩)، والرعد (١٦)، وإبراهيم (٤٨)، وص (٦٥)، والزمر (٤)، وغافر (١٦).

QaradawiBooks.com

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وهذه الآيــة الَّتي معنــا أرادت أن تجرّ هؤلاء إلى عقيــدة التوحيد، توحيد الإلٰهيَّة، وأن تُلزمهــم إلزامًا ـ ما داموا يعترفون بتوحيد الربوبيَّة ـ ألا يتَّخذوا أولياء مع الله ولا شــفعاء مع الله، فهؤلاء الأولياء والشــفعاء لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ـ فضلًا عن غيرهم ـ ضرًّا ولا نفعًا، والله وحده خالق كل شيء، وهو الواحد القهار.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مثل الحق والباطل

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧]

في هذه الآية ضَـرَبَ اللهُ ﷻ مثـلًا للحق وللباطل، للحـقِّ وأهله، وللباطل وحزبه، ممَّا يراه النَّاس ويشهدونه مِنْ حولهم: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ وهو المطر الَّذي ينزل من السماء، سواء كانت السـماء بمعنى السَّـحاب؛ لأنَّ السـماء فـي اللغة هـي كل ما علاك، والسَّحاب يعلونا فيمكن أن يطلق عليه سماء، والسقف كذلك يمكن أن يطلق عليه سماء، أو كانت السماء بمعنى الجهة: جهة السماء، لأنَّ المطر ينزل من فوق، وهذا الماء النازل من السـماء تسيل به الأودية وتجري. والأودية هي المنخفضات بين الجبال الَّتي يجري فيها الماء.

وقوله تعالى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي: على قدر سَعة تلك الأودية، وعلى قدر عُمقها، فهناك وادٍ يتَّسع للقليل، وهناك وادٍ يتَّسع للكثير.

﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ هذا المـاء النازل من السـماء تجري به الوديان، وتسيل به يمينًا وشمالًا، فيحتمل سيله زبدًا رابيًا. والزبد الرابي: هو تلك الرغاوى المنتفخة.

وهذه الرغاوى أو الزبد الَّذي يحمله السـيل ذكر له القرآن نوعًا آخر في قولـه تعالـى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾، فهناك زَبَدٌ يحمله السـيل، وهناك زَبَدٌ آخر ينتج من المعادن إذا صُهِرت

QaradawiBooks.com

في النار، فيبقى المعدن المنصهر في القاع، ويطفو على سطحه الخبث، والأشياء الَّتي خُلِطت بهذا المعدن وليست منه، وهو ما سمَّاه القرآن زَبَدًا، وقد جاء في الحديث: «**مَثَلُ المؤمنِ كَمَثَل الحديدةِ تدخل النَّار فيظهر خَبَثُها ويبقى طيِّبها**»[1]، والصائغ يوقد النَّار على الذهب والفضة، ابتغاء حلية يتزيَّن النَّاس بها، وخاصَّة النِّساء، أو أنَّ ما يُوقَد عليه في النَّار يكون للمتاع يتمتَّعون به وينتفعون به كما في الحديد والنحاس، وغير ذلك من المعادن.

وكلا الزَّبَدين: زَبَد السَّيل وزَبَد، المعادن المختلفة، لا قيمة له ولا نفع فيه ولا جدوى؛ لأنَّه شيءٌ لا بقاء له، فهو غير متماسك، وسرعان ما يتطاير، وهو فقاعة ورغوة طافية عالية منتفخة كبيرة الحجم، تذوب في لحظة ولا تبقى.

هذه الفقاقيع أو الرَّغاوى الَّتي نراها فوق السيول لها صفات ثلاث:

الخفَّة، فهي خفيفة تطفو وتعلو لخفَّتها، وليست لها قيمة. وسرعة التطاير والذوبان والزوال، لذلك فهي تزول ويبقى الماء الحقيقي في الأعماق ثابتًا مستقرًّا، يشرب منه النَّاس فيرتوون، وتشرب منه الأنعام فترتوي، ويتطهَّر منه الناس، وتستفيد منه الأرض، فيُحييها الله به بعد موتها، وهذا هو شأن الماء، وفرق بين الماء والزَّبد، فالزَّبد ليس له بقاء ولا تماسك؛ وإن كان ظاهرًا منتفخًا طافيًا عاليًا، أمَّا الماء فإنه مستقرٌّ ثابت راسخ في الأعماق، وهو الَّذي ينفع الله به الناس.

(١) رواه البزار (٣٤٥٦)، والحاكم في الإيمان (٧٣/١)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن عبد الرحمن بن أزهر.

QaradawiBooks.com

ومثل ما سبق يقال أيضًا عن زبَد الذهب والفضة والنحاس والحديد، فالفائدة في تلك المعادن، ولا فائدة في زبدها أو خبثها؛ إذ المعادن هي الباقية وهي الأصيلة، سواء منها ما كان يُتحلَّى به ويُتزيَّن أم يُنتفع به ويُستمتع.

وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للحقِّ والباطل، فالحقُّ هو الَّذي يستقرُّ في القلوب، والله تعالى الَّذي أنزل من السماء ماءً هو الَّذي أنزل من السماء قرآنًا، فكلاهما نازلٌ من السماء، والقرآن الَّذي أنزله الله من السماء، تلقَّته القلوب والعقول كلٌّ على قدَرِه: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾، فالناس تأخذ من القرآن على قدر سَعَة أوديتهم، فهذا يأخذ بمقدار، وذلك يأخذ بمقدار، وهذا ابن عبَّاس رضي الله عنهما فقَّهَه الله في الدين، وعلَّمه التأويل، واستجاب دعاء الرسول ﷺ له[1] فسال واديه بالكثير على خلاف غيره.

والقرآنُ الَّذي شبَّهه الله بالماء النازل من السماء فاستقرَّ وثَبَتَ في القلوب بالحق: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، تأتي في بعض الأحيان شُبُهات تدور في ذهن الإنسان، وشكوك أو وقفات مُعيَّنة حول القرآن، وهذه أشبه بالزَّبَد الَّذي يذهب ويبقى الحق.

وإذا نظرنا إلى الإسلام والجاهلية، أو إلى الإيمان والكفر، أو إلى الحق الَّذي بعث الله تعالى به محمدًا، وكلِّ ما عداه من ديانات وفلسفات ونِحَل ودعاوى، وجدنا أنَّ الحق الَّذي بعث الله به محمدًا ﷺ هو أشبه شيء بالماء المستقر الَّذي يحيي الله به ويروي، وأنَّ الأشياء الأخرى هي أشبه شيء بالزَّبد الطافي، وإن ارتفَعَت وعَلَت وظهَرت وطَفَت وانتفخت وكبرت، فشأنها ألا تبقى وأن تزول؛ لأنَّها باطل، والباطل عمرُه قصير،

(١) سبق تخريجه صـ٢٢.

QaradawiBooks.com

وإن جَلْجَل ووجد له أبواقًا، فسرعان ما تنكشف عوراته، وسرعان ما يَتَزَلزل ويزول، ولذلك قالوا: دولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وعلى ذلك فلا ينبغي لأهل الإيمان ولحَمَلَة رسالة الحق أن ييأسوا، إذا وجدوا يومًا أنَّ الباطل قد شمخ بأنفه أو ارتفع برأسه، فإنَّ الباطل لا يُعمَّر ولا يستمرُّ طويلًا، فسنَّة الله ﷻ: أنَّ الزبد يذهب جُفاء وأن ما ينفع النَّاس يمكث في الأرض.

الحق ينفع الناس:

وقد عبَّر القرآن عن الحق بما ينفع الناس، فالحقُّ دائمًا هو الَّذي ينفع النَّاس وإن ضِيرَ أهلُهُ فترة من الزمن، وإنْ أُوذوا في أنفسهم، أو ابْتُلوا في أهليهم وأموالهم، أو صُودِرَت أموالهم، أو عُطِّلَت مصالحُهم، أو رُمِيَ بهم في السجون والمعتقلات، فليس معنى هذا أنَّ الباطل انتصر، لا بل الحق هو الَّذي ينتصر ويبقى، فهو الَّذي ينفعهم، والباطلُ أبدًا لا ينفعهم في الدنيا ولا ينفعهم في الآخرة. بل إنَّ الحقَّ ينفع كلَّ الناس: المؤمن منهم وغير المؤمن، فحينما نَصَر اللهُ الإسلام كان ذلك خيرًا للبشَريَّة كلِّها، وكان رحمةً للعالمين، والعدلُ يعمُّ وينفع المسلمَ وغيرَ المسلم، والرحمةُ تشملهما.

وقد ألَّفتُ كتابًا اسمه «الإيمان والحياة»، انطلقت فيه من أنَّ الإيمان بالحق، والإيمان بالله ورسالاته والدارِ الآخرة حقٌّ ونافع، ينفع الفرد وينفع المجتمع، وهو ضرورة للفرد؛ ليطمئنَّ ويسعد، وهو ضرورةٌ للمجتمع؛ ليبقى وليتماسك، فالحقُّ نافع في الدنيا قبل الآخرة ونفعه في الآخرة عظيم.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

هكذا ضَـــرَبَ الله مثلًا للحق والباطـــل بالماء والزَّبَـــد، أو بالمعدن وزبـــده: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾ أي: مثل الحـــق ومثل الباطل: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾.

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

عاقبة المستجيبين لله

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨]

ثم بيَّن الله تبارك وتعالى عاقبةَ كلٍّ من الفريقين: أهل الحق وأهل الباطل، الَّذين استجابوا لدعوة الحق، والَّذين أعرضوا عن دعوته:

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الَّذين لبُّوا نداء الحق، ودعوة الحق ودعوة الله ﷻ على ألسنة رسله، وعلى لسان خاتمهم محمد ﷺ، وفي كتابه الخالد الخاتم، أولئك لهم الحسنى.

و«الحُسْنى»: مؤنث أحسن، وفي القرآن: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل: ٣٠]، وفي الآخرة لهم الحُسنى، أي: المثوبة الحُسنى، والحياة الحسنى العليا.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: أي الجنَّة بما فيها ممَّا لا عينٌ رأتْ ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهذا لا ينافي أنَّ لهم في الدنيا حَسنة، فطبيعةُ الاستجابة والإيمان أنَّ له أجرًا في الدنيا وجزاء مُعجَّلًا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

عاقبة الَّذين لم يستجيبوا لربِّهم:

وأمَّا الَّذين لم يستجيبوا لربِّهم، وقابلوا هذه الدعوة بآذانٍ صُمّ، وأعينٍ عُمْي، وقلوبٍ غُلْف، من الَّذين قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ

QaradawiBooks.com

﴿إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فُصِّلَت: ٥]. فهؤلاء ـ يوم القيامة ـ لو كانوا يملكون كلَّ ما في الأرض من أموال وفضَّة وذهب، ومن متاع وحَرْث، ومن زروع وثمار، ومن كلِّ ما يحرص النَّاس عليه ويتهافتون عليه في كل الأرض، مشرقِها ومغرِبها، وشمالها وجنوبها، لو أنَّهم يملكون هذا كله ومثله معه ﴿لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ﴾، أي: لفَدَوا به أنفسهم من عذاب الله ﷻ مِن سُوء ما ينتظرهم؛ كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١]، وفي سورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]، وهم لا يملكون شيئًا ففي يوم القيامة يأتون كما صوَّرهم القرآن: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ويأتونَ حفاةً عُراة غرْلًا كما ولدتهم أمَّهاتهم[(١)]، ولو فُرِضَ أنَّهم يملكون ملء الأرض ذهبًا ومثله معه لافتدى أحدهم به نفسه من العذاب، ولماذا يفعلون هذا؟ لأنَّ عذاب الله شديد، وما ينتظرهم شيءٌ عظيم، ولذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

فهناك حساب يسير، وهناك حساب عسير، وقد عبَّر عنه بـ «سوء الحساب»، وهو كما عبَّر عنه إبراهيم النَّخَعي وبعض السلف أن يُحاسبوا على جميع ذنوبهم؛ فلا يغفر لهم شيء، ولا يتجاوز لهم عن شيء[(٢)]، أمَّا

(١) إشارة إلى الحديث المتَّفق عليه: «تُحْشَرون حفاةً عُراةً غُرْلًا» قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «الأمر أشدُّ من أن يهمهم ذاك». رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٩)، عن عائشة.

(٢) تفسير الآلوسي (١٢٦/٧).

QaradawiBooks.com

الحساب اليسير؛ ففيه يتجاوز عن بعض الأشياء، ويترك بعضها، ويستر في بعضها.

والهلاك بعينه أن يحاسب على كلِّ شيء، فهذا سوء الحساب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾، وهذا إذا قُبِلت حسناتهم وهي لا تُقبل؛ لأنَّ الكفر يُحبط الحسنات: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨].

فتلك الأعمال حطَّمها الكفر والشِّرك والعياذ بالله: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]، وأيُّ حِسابٍ أسوأ وأعسر من ذلك ألَّا يَجِدَ حسنةً له، وألا يتجاوزَ عن سيِّئاته؟!

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، المأوى: هو ما يأوي إليه الإنسان؛ ليَقِيَه من شدَّة الحَرّ، ومن شدة القَرّ، من البرد القارس الزمهرير، ومن الحر اللافح الَّذي يشوي الوجوه، ومن عَوَادي الجوِّ والطبيعة، فإذا كان مأوى الإنسان جهنَّم والعياذ بالله؛ فأيُّ مأوى هذا؟! أبدل أن يأويَ الإنسان إلى ظلٍّ ظليل أو مسكنٍ مريحٍ يأوي إلى جهنَّم؟! إنَّه لبئس المأوى.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ المهاد: هو ما يُفترش، ليجلس عليه الإنسان ويستريح مثل: مِهَاد الطفل الَّذي يُفرش له؛ لينام عليه ولا يشعر بما يقلقه، فإذا كان هذا المهَاد هو الأرض نفسها ـ كما يحدث في الأماكن المبتلاة بالحروب والمجاعات مثل: البوسنة والهرسك والصومال وغيرها ـ فيقال: افترشوا الأرض، والتحفوا السماء، أي:

QaradawiBooks.com

صارت الأرض لهم فراشًا، فهذا أمر شديد وغير مريح، وأشدّ منه أن يقال: افترشوا الحصباء، وأشدّ منهما أن يقال: افترشوا الشوك فهم يتقلَّبون عليه، وإذا كان الفراش هو النَّار والجمر ـ والعياذ بالله ـ فبئس الفراش، أعاذنا الله منه، قال الشاعر[1]:

جسمي على الشَّمْس ليس يقوى ولا على أهونِ الحرارةْ
فكيف يقْوى على جحيمٍ وَقودها النَّاس والحجارةْ

التقابل في الأساليب في سورة الرعد:

وصاحب الظلال الشهيد سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ له لفتات طيِّبة في تفسير القرآن الكريم، وخصوصًا في الجانب البلاغي والبياني للقرآن الكريم، فهو رجل ذوَّاق؛ قلّ أن يوجد له نظير في التَّذوُّق البلاغي للعربيَّة بصفة عامة، وللقرآن بصفة خاصَّة، وله كتابا: «التصوير الفَنِّي في القرآن»، و«مشاهد القيامة في القرآن»، وقد طبَّق رَحِمَهُ اللَّهُ قواعده في التصوير الفني في القرآن، على كتابه الشهير «في ظلال القرآن»، وأشار إلى ميزةٍ من مزايا سورة الرعد وهي ميزة التقابل في الأساليب؛ إذ يعرض سبحانه الأشياء متقابلة.

يقول صاحب الظلال: «إنَّه جَوُّ المشاهد الطبيعيَّة المتقابلة: من سماء وأرض، وشمس وقمر، وليل ونهار، وشخوص وظلال، وجبال راسية، وأنهار جارية، وزَبَد ذاهب، وماءٍ باق، وقطع من الأرض مُتجاورات مختلفات، ونخيل صنْوان وغير صنْوان.. ومن ثمَّ تطّرد هذه التقابلات في كلِّ المعاني، وكل الحركات، وكل المصاير في السورة، فيتناسق

(١) ذكره بلفظ مقارب من غير نسبة: الشارعي في مرشد الزوار إلى قبور الأبرار (٤٣٨/١)، نشر الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ.

QaradawiBooks.com

التقابل المعنوي في السورة مع التقابلات الحسيَّة، وتتَّسق في الجوِّ العام.. ومن ثمَّ يتقابل الاستعلاء في الاستواء على العرش مع تسخير الشمس والقمر، ويتقابل ما تغيض الأرحام مع ما تزداد، ويتقابل من أسرَّ القول مع من جهر به، ومَنْ هو مُسْتَخْفٍ بالليل مع مَنْ هو سارب بالنهار، ويتقابل الخوفُ مع الطمع تجاه البرق، ويتقابل تسبيحُ الرعدِ حمْدًا مع تسبيح الملائكة خوفًا، وتتقابل دعوة الحق لله مع دعوة الباطل للشركاء، ويتقابل من يعلم مع مَنْ هو أعمى، ويتقابل الَّذين يفرحون من أهل الكتاب بالقرآن مع من ينكر بعضه، ويتقابل المحو مع الإثبات في الكتاب.. وبالإجمال تتقابل المعاني، وتتقابل الحركات، وتتقابل الاتجاهات.. تنسيقًا للجو العام في الأداء»[1].

ويمضي هذا التقابل في السورة، فتتحدَّث عن السماوات والأرض، وتتحدَّث عن مغفرة الله وشدَّة عقابه، وعن الغيب والشهادة، وعن ربِّ السماوات وربِّ الأرض، وعن الأعمى والبصير، وعن الظلمات والنور، وعن الَّذين استجابوا لربِّهم، وعن الَّذين لم يستجيبوا له، وعن الحسنى وعن سوء الحساب.

ونعلم أنَّ الأشياء تتميز بضدِّها، وهذا التقابل أسلوب سارٍ في السورة كلها، يرينا إلى أيِّ مدى جاء القرآن الكريم ليأخذ بمجامع القلوب، ويضيءَ العقول، بالمعاني من ناحية، وبهذا الأسلوب الَّذي أعجز العرب أن يأتوا بمثله، منذ نزل القرآن وقبل أن يكون هناك تشريع، فهو البيان القرآني العظيم.

* * *

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/٢٠٤٠، ٢٠٤١)، نشر دار العلم للطباعة والنشر، جدة.

QaradawiBooks.com

إنكار يتكرَّر في القرآن

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ **[الرعد: ١٩ ـ ٢٤]**

ذكرت السورة الكريمة هنا هذا التَّعجيب أو الإنكار: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾؟! أيستوي من عرف الحق واستنارت بصيرته بمعرفته وإدراكه واتِّباعه ومن ضلَّ عن هذا الحق وجهله؟ وهذا الإنكار يتكرَّر في القرآن الكريم فلا يستوي أهل الحق وأهل الباطل.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؟

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤]؟

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المُلك: ٢٢]؟

أو كما جاء في هذه السورة: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]؟ لا يستويان.

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]؟

QaradawiBooks.com

لا يستوي من عرف الحق بما نَصَبَ الله له من الشواهد، وما أقام عليه من البراهين في الفطرة وفي الكون، بالإضافة إلى ما أنزل من الوحي المبين، ومن عميَ عنه. والمراد هنا: عَمَى البصيرة، الَّذي لا يدرك الشيء رُغم وضوحه ونصوعه، ولكنَّ العيب لا يكمن بالحقِّ الواضح إنَّما يكمن بداخله هو، فلمْ يحاول أن يتعرَّف على هذا الحق فعمي عنه.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾؟ وهذا إشارة أيضًا إلى ما بدأت به السورة، فالسورة بدأت بقول الله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ثم أقام الله تعالى الأدلة من الكون على صدق ذلك.

أولو الألباب:

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أُولو الألباب: هم أصحابُ العقول، ومن النَّاس من يقول: إنَّ القرآن لم يذكر العقل باعتباره شيئًا أو مَلَكة أو قدرة، ولكنَّه ذكر مادة عقل يعقل، وصحيحٌ أنَّ القرآن لم يذكر العقل بلفظه هذا، ولكنَّه ذكره بلفظ الألباب والنُّهى، وقد تكرَّرت لفظة الألباب في القرآن ست عشرة مرَّة.

الألباب جمع لبّ؛ وقد عبَّر القرآن عن العقل باللب لحكمة، ولإيحاء هذا التعبير ودلالته، فلبُّ الشيء هو حقيقتُه وجوهرُه، والأصل فيه أن بعض الثمار كالجوز واللوز لها لبٌّ وقشرٌ، فاللبُّ: هو الخلاصة الَّتي يُنتفع بها من هذه الثمار، والقشر: هو الغلاف والحماية، وكأنَّ القرآن يشير بهذا إلى أن جوهر الإنسان هو عقله، هو هذا الكائن الداخلي الَّذي مُيِّز به الإنسان وكُرِّم، ولذلك كان مناطَ التكليف، وأساسَ الثواب والعقاب، فالعقل لبُّ الإنسان، وجسمه هو القشر، وفي

غير مرخصة للطباعة
نسخة ميزان
QaradawiBooks.com

ذلك يقول الإمام الراغب الأصفهاني: «اللُّبُّ: العقل الخالص من الشّوائب، وسمّي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه، كَاللُّبَابِ واللُّبِّ من الشيء، وقيل: هو ما زكى من العقل، فكلُّ لبٍّ عقل، وليس كلُّ عقل لُبًّا»[١].

تنويه الإسلام بالعقل:

وعلى ذلك فالذي يتذكّر ويتنبّه هم أولو الألباب، أصحاب العقول الخالصة المصفَّاة. ولا يوجد دين نوَّه بالعقل وأصحابِه مثل دين الإسلام[٢]، وبعض الأديان تخاف من العقل أو ما يتعلق به، وفي الإسلام والقرآن اعتبر أنَّ أولي الألباب هم الجديرون بمعرفة أسرار الله تعالى في حكمه وشرائعه؛ فهم الَّذين يدركون حكمة شرعية القصاص كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وهم الَّذين يدركون أيضًا حكمة الله وأسراره في خلقه وكونه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]. فهم يؤمنون أنَّ الله لا يشرع شيئًا عبثًا، ولا يخلق شيئًا باطلًا.

من أوصاف أولي الألباب في القرآن:

وأُولو الألباب: هم الَّذين يعتبرون بالتاريخ وقصص القرآن؛ فلا تمر على أسماعهم وحسب، ولكنَّها تمر على قلوبهم، ولذلك نجد في

(١) المفردات في غريب القرآن صـ ٧٣٣، تحقيق صفوان عدنان الداودي، نشر دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ.

(٢) راجع كتابنا: العقل والعلم في القرآن.

QaradawiBooks.com

القرآن: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٢١].

وهم الَّذين ينتفعون بآيات الله الكونيَّة والتَّنزيليَّة، يقول الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وهم الَّذين يعرفون قيمة العلم ويتميَّزون عن الجهلاء: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزُّمَر: ٩].

وهم الَّذين يستمعون المواعظ والأقوال فَيتَّبعون أحسنَها، ويميِّزون بين الحسن والأحسن، ولأنَّهم أصحاب عقول فهم ينظرون دائمًا إلى ما هو أحسن: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزُّمَر: ١٨].

وهم الَّذين يؤمنون بالمُحكَمات ويُصدِّقون بالمتشابهات، ولا يهلكون عندها، بل لرسوخهِم يقولون عند المتَشابه: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧].

فهؤلاء هم أُولو الألباب؛ أصحاب العقول الَّذين وصفهم القرآن بأنَّهم يتذكرون، ولذلك يتكرَّر: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد: ١٩، والزمر: ٩]، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩، وآل عمران: ٧]، وفي سورة البقرة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

QaradawiBooks.com

وهكذا تأتي بصيغة الحصر: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩] بـ «ما» و«إلَّا».

و«إنَّما» فهي تفيد الحصر أيضًا: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. أي: لا يتذكر إلَّا هم.

لماذا وُصف أُولو الألباب بالتَّذكُّر؟

وهذا يدلُّنا على أنَّ الأصل في الحقائق أنَّها معروفة؛ ولكنَّها تُنسى، مع أنَّ المُذكِّرات بها كثيرة، مُذكِّرات من داخل الفطرة الإنسانيَّة، ومُذكِّرات من خارج الفطرة ممَّا بثَّ الله في الكون من آيات، ومُذكِّرات ممَّا أنزل الله تعالى من وحيٍ. كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

فالمذكِّرات كثيرة، وما على الإنسان إلَّا أن يزيح غبار الغفلة والنسيان عن فطرته فيتذكَّر إذا كان من أهل العقل: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أمَّا غير هؤلاء فَيَدَعُون الغفلة ويَدَعُون النسيان يغطِّيان على عقولهم، فلا يذَّكَّرون شيئًا، ويعيشون في غفلتهم ونسيانهم: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، و﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

لوحة قرآنيَّة لأولي الألباب:

وأُولوا الألباب أصحاب العقول وصفهم الله بأوصاف عدَّة، إيمانيَّة وأخلاقيَّة وإنسانيَّة، والقرآن يعرض لوحات لبعض النماذج البشريَّة، ليتأسَّى بها النَّاس ومن هذه النماذج: أُولو الألباب، ومنها: نموذج المتقين في أوَّل سورة البقرة، ومنها: نموذج المؤمنين في أوائل سورة الأنفال وأوائل سورة المؤمنون، ومنها: نموذج عباد الرحمن في أواخر سورة الفرقان وغيرها.

QaradawiBooks.com

الوفاء بالعهود والمواثيق:

هذه النماذج لوحاتٌ فيها طاقة من السِّمات والصفات الربَّانيَّة والأخلاقية المتنوِّعة: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾. فأول ما وصفهم الله تعالى به، أنَّهم يُوفون بعهد الله ولا يَنقُضُون المِيثَاق.

وعهد الله: هو ما عهد به إليهم من الإيمان به وتوحيده ﷻ وطاعة رسله، وهو عهد الله الَّذي غرسه في فِطر البشر حين أخذ عليهم العهد، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وسواء كان هذا من باب الحقيقة أنَّه أخذ ـ فعلا ـ من بني آدم من ظهورهم ذُريَّتهم وأشهدهم على أنفسهم، وهو ظاهر النص، أو كان هذا من باب التَّصوير كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فهو عَهدٌ غَرَسَه الله في الفطرة، ثمَّ جاء الوحيُ مُؤكِّدًا له، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة يس: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]. فهو عهدٌ للنـاس كافَّة، ثم جاءت عهود الله المنزَّلة من النَّبيين، والمفصَّلة بالأوامر والنواهي والأحكام والشرائع.

ويمكن أن يكون عهد الله هو ما عاهد الإنسان عليه ربه، مثل: أن ينذر نذرًا لله ﷻ، ومثل: أن يعاهد الله على شيء بينه وبين نفسه، وينفذ هذا العهد ولا يفعل ما فعله بعض المنافقين الَّذين حكى الله عنهم في سورة التوبة: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥، ٧٦].

QaradawiBooks.com

كما يمكن أن يكون عهد الله ﷻ هو كلُّ ما يتعلق بالإنسان مع ربِّه، وكلُّ ما يتعلق بالإنسان مع الناس، فكلُّها عهود أمر الله أن تُوَفَّى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١].

فمن صفات أولي الألباب: الوفاء بعهد الله، وهي من صفات أهل البر كما في الآية الجامعة: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ [البقرة: ١٧٧]، على عكس صفات المنافقين، الَّذين إذا عاهدوا غدروا، وإذا خاصموا فجروا، وإذا اؤتُمِنوا خانوا، وإذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا[1]، فشتَّان بين الفريقين.

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾: تأكيدٌ للوفاء بالعهد، فلا يتركون الوفاء بالعهد لمصلحة تبدو عاجلة، وإن كان بعض النَّاس لا يبالي بما عاهد عليه الله، وما عاهد عليه الناس، فالمسلمُ لا ينقض الميثاق وإن تبدَّت له مصلحة: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤]. حتَّى ولو كان هذا العهد مع كافر، فالقرآن قدَّم رعايةَ المواثيق مع الَّذين بينهم وبين المسلمين مواثيق على نُصرة الَّذين لا يعيشون في دار الإسلام من المسلمين، فقال: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ [الأنفال: ٧٢].

كثرة المواثيق:

فأولو الألباب إذن يحترمون المواثيق أيًّا كان نوع هذا الميثاق، والمواثيق كثيرة مثل: ميثاق الزوجيَّة، فعلى الإنسان أن يحترم هذا

(١) إشارة إلى الحديث المتَّفق عليه: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصْلة منهنَّ كانت فيه خَصْلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، كلاهما في الإيمان، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

الميثاق كما قال الله تعالى للأزواج إذا أراد الرجل أن يتزوَّج بامرأة أخرى، أو يستبدل زوجةً بزوجة: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۞ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠، ٢١]. فهذا هو ميثاق الزواج الَّذي يسمُّونه الرباط المقدَّس، والله ﷻ سمَّاه «ميثاقًا غليظًا» مثل الميثاق الَّذي أخذه الله على الأنبياء. فقد سمَّاه ميثاقًا غليظًا؛ دلالة على قوة هذا العقد.

والعقود الَّتي بين النَّاس بعضهم وبعض، ينبغي أن تُحترم ولا تُنقض.

﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾: الألف واللام في قوله «الميثاق»: إما أن تكون للاستغراق، وإمَّا أن تكون للجنس، والمعنى: لأيِّ ميثاق. وإمَّا أن تكون للعهد، الميثاق القديم؛ ميثاق ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وإمَّا أن تكون خاصًّا بعد عام، أو عامًّا بعد خاص، أو أن تكون تأكيدًا، وهذا كلُّه محتمل.

والخلاصة أنَّ القرآن يركِّز كل التركيز على الوفاء بالعهود والمواثيق؛ فبهذا الوفاء تسير الحياة سَيْرًا حسنًا، ويتبادل النَّاس الثقة فيما بينهم، ما دامت العقود محترمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وما دامت العهود مرعيَّة غير منقوضة ولا منكوثة، وهذا ما يريده الإسلام، كما فعل النَّبِيُّ ﷺ حينما عاهد المشركين فَوفَّى لهم، وحينما جاءه بعض النَّاس يريد أن يساعدَه عليهم بعد أن عقد بينه وبينهم عقد الصلح، قال: «**لا، نفي لهم، ونستعينُ اللهَ عليهم**»[1].

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٧)، وأحمد (٢٣٣٥٤)، عن حذيفة بن اليمان.

QaradawiBooks.com

وَصْل ما أمر الله بوصله:

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

ومن أوصاف أولي الألباب هؤلاء الَّذين عرفوا الحق وأدركوه وآمنوا به واتَّبعوه: أنَّهم يصلون ما أمر الله به أن يُوصل، بهذا التعميم والإجمال الَّذي يعني كلَّ العلائق والصِّلات المتنوِّعة والمختلفة في الحياة، من رَحم وزوجيَّة وجوار، وصُحبة وزَمَالة، فهي ممَّا أمر الله به أن يُوصَل، أي: أن تتَّصل وتلتئم وتتلاحم ولا يحصل بينهما جفوة أو قطيعة.

فالإسلام جاء ليُوثِّق الصِّلة بين الله وعباده، ويوثِّق الصِّلة بين النَّاس بعضهم وبعض، بالأخوة الواشجة، ففضلًا عن الصِّلات الخاصَّة كالرَّحم والزوجية والمصاهرة والجوار، هناك الصِّلات العامَّة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجُرات: ١٠]. فكل المؤمنين ينبغي أن يُوصَلَ، أي: ينبغي أن يُنصر على من يظلمه كما في الحديث: «**المسلمُ أخو المسلم، لا يظلمُه ولا يُسْلِمُه**»[1]، ويكون في حاجته فيسلِّم عليه إذا لقيَه، ويشمته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويتَّبع جنازته إذا مات، ويحفظه إذا غاب، وينصح له، ويذبُّ عنه، ويساعده عند الشدَّة، بمقتضى الأخوة الَّتي جاء بها الإسلام، وهذا كله داخل تحت قوله تعالى: ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾.

وقد ذكر المفسِّرون هنا الأرحام والجيران، والأصحاب والخدم، وكلَّ من له تعلُّق بسبب؛ حتَّى الهرَّة والدجاجة كما ذكر العلَّامة الزمخشري في «الكشَّاف» عن الإمام الزاهد العابد الفقيه، الفُضَيْل بن عِيَاض: أنَّ جماعة دخلوا عليه بمكَّة، فقال لهم: من أيِّ البلاد أنتم؟ قالوا: من خُرَاسان،

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠)، ابن عمر.

QaradawiBooks.com

فقال: اتَّقوا الله وكونوا من حيث شئتم، واعلموا أنَّكم إذا أحسنتم الإحسانَ كلَّه، وأسأتم إلى هِرَّة أو دجاجة لم تكونوا من المُحْسِنِين[١]!

وهذا مأخوذ من الحديث أنَّ امرأةً دخلت النَّار في هرَّة حبستها؛ فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكلُ من خَشَاش الأرض[٢].

فالإحسانُ مطلوبٌ إلى كلِّ ذي كَبِد رَطْبة.. إلى كلِّ كائنٍ حيٍّ، وهذا داخل أيضًا في قوله: ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾.

الخشية من الربِّ سبحانه:

ثم ذكر القرآن دافعهم إلى هذا، ومفتاح هذا الوصْل: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾. فخشية الله ﷻ هي هذا المفتاح، وقد ذكر الخشية مع الله، وذكر الخوف مع سُوء الحساب؛ لأنَّ الخشية خوف مع نوع من التعظيم للمخوف، ومع شيء من العلم بقدَره، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. فهم لكونهم علماء يعرفون مقام الله ﷻ، وبالتالي يخشونه، وبعضهم يقول: إنَّ الخشية تكون إذا كان المخشيُّ عظيمًا، وإن كان الخاشي قويًّا بخلاف الخوف.

وللعلَّامة الألوسي هنا كلام طيب، قال: «معظم الفروق اللغويَّة بين الألفاظ بعضها وبعض هي أغلبيَّة لا كليَّة... فما من فرقٍ لغوي إلَّا وقد يُعَكِّر عليه بمثال معيَّن».

والتعبير: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يُعطي الخشية نَسْجًا من الرجاء، فإنه لم يقل: يَخْشَون الجبَّار القهَّار، ولكنَّه قال: يَخْشَوْن ربَّهم كما في بعض

(١) الكشاف للزمخشري (٢/٥٢٥).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٥)، ومسلم في السلام (٢٢٤٢)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

الآيات: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣] فذكر الرحمن يشعر أنَّها خشية ممزوجة بنوع من الرجاء، فهم يخشونَ الله الَّذي ربَّاهم بنعَمِه ورعاهم بفضله، وغمرهم بإحسانه من قرونهم إلى أقدامهم، فهو ربُّهم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣]، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

الخوف من سوء الحساب:

﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾: وتتمَّة خشيتهم من الله ﷻ، أنَّهم يخافون سوء الحساب، أي: أنَّهم يستحضرون الآخرة، وليست الآخرة غائبةً عنهم، فهي نُصْب أعينهم، وهذا شأنهُم، فإنَّهم لا يعيشون بمعزل عن يوم القيامة، كما هو شأن كثير من الناس، الَّذين لا يرجون لقاء الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧].

فهذا صنفٌ من الناس، أمَّا هؤلاء الَّذين يخشون ربَّهم، فإنهم يستذكرونَ الآخرة ويستحضرونها، وهذا من المعاني الربَّانيَّة الَّتي جاء بها الإسلام.

وسوء الحساب: هو المناقشة فيه، والاستقصاء فيه، فهناك ـ كما تقدَّم ـ الحساب اليسير الَّذي لا مناقشة فيه، والذي يمرُّ سريعًا، ولكن إذا أوقف الإنسان للمساءلة ونُوقش: ماذا فعلت بكذا؟ وكيف فعلت بكذا؟ ولمَ فعلته؟ فهذا هو الحساب العسير، الَّذي يخافه مَنْ يخشى الله ﷻ، والذي يعني أن يُساءلوا ويناقشوا في كلِّ شيء، وهؤلاء لا يزعمون أنَّ صفحتهم بيضاء، وأنَّهم ليس عليهم غبار، فإنهم ليسوا من الملائكة المطهَّرين، وليسوا أنبياء معصومين، أنَّهم يخافون الله دائمًا كما ذكر الله

QaradawiBooks.com

تعالى أيضًا في وصف المتَّقين: ﴿ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

غير مرخصة للطباعة

الصبر ابتغاء وجه الله:

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾: هذه مجموعة جديدة من الصفات بدأها القرآن الكريم بالصبر.

والصبر: هو حبس النفس على ما تكره ممَّا يقتضيه الشرع أو العقل، والصبر ضرورة دينيَّة ودنيويَّة، فلا يستطيع الإنسان أن يفلح، ولا أن يفوز بما يحب، ولا أن يَسْلَم ممَّا يكره إلَّا بالصبر.

وأُولو الألباب هؤلاء من أوصافهم: الصبر بأنواعه المختلفة، فهم يصبرون على بلاء الله ﷻ، كما صبر أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

ويصبرون عمَّا نهى الله ﷻ من المعاصي، مثل صبر يوسف عليه السلام؛ إذ رَاوَدَتْهُ ﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٣]، وتهيَّأتْ له أسباب المعصية، فأبى واستعصم، وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

ويصبرون على طاعة الله ﷻ مهما كان فيها، ولو كان قطع الرقبة، كما كان في صبر إسماعيل الذبيح عليه السلام، الَّذي قال له أبوه الخليل عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

QaradawiBooks.com

ويصبرون على مَشاقِّ الدعوة إلى الله، ومتاعب الطريق إلى الله مهما طال الطريق، مثل صبر نوح عليه السلام الَّذي ظلَّ: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] يدعو قومه إلى الله: ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، وهو صَبْر أولي العزْم من الرُّسُل الَّذي أمر الله به رسوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقد فصَّلتُ هذه الأنواع والمراتب للصبر في كتابي: «الصبر في القرآن الكريم».

فأولو الألباب هؤلاء وصفهم الله تعالى بالصبر، ولم يذكر القرآن هنا على أيِّ شيء صبروا، ولا عن أيِّ شيء صبروا، وإنَّما أطلق وصفهم بالصبر، وغيَّر صيغة الوصف من المضارع «الَّذين يوفون... ولا ينقضون... ويصلون... ويخشون... ويخافون» إلى الماضي: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ ممَّا يدلُّ على تحقق الصبر، ويدلُّ على أهمية الصبر في الدين، ولذلك نجد القرآن في آية البر قد ذكر الصابرين بصيغة متميِّزة، فقال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧] مع أنَّ العطف على ما قبلها كان يقتضي الرفع؛ إذ السياق في الآية: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ولكنَّها نُصِبت على الاختصاص أو المدح، أي: وأخصُّ الصَّابرين وأمدحهم، وما ذلك إلَّا لأهمية الصبر في دين الله، ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾، ولم يقل: (وَالَّذِينَ يَصْبِرُونَ)، وهذا يدلُّ ـ كما تقدَّم ـ على أنَّ الصبر لا بدَّ أن يكون متحقِّقًا واقعًا.

وميزةُ هؤلاء أنَّهم صبروا ابتغاء وجْه ربهم، فقد يوجد من يصبر، مراءاة للناس ومُراعاةً للخلق؛ ليقول الناس: ما أصبره عند النوازل! وما أثبته عند الزلازل! وما أحملَه للمصائب! إنَّه ثابت ثبات الجبال، إلخ.

QaradawiBooks.com

وقد يوجد من يصبر، حتَّى لا يُعاب بأنَّه جَزُوْع هَلُوْع، وحتى لا يشمت به الأعداء. كما قال الشاعر:

وتَجَلُّدي للشامتينَ أُرِيهمو أنِّي لريبِ الدَّهْرِ لا أتضَعْضَعُ[1]

وقد يوجد من يصبر، لأنَّه لا يجد غير أن يصبر، فلا فائدة في الجزع، وإذا جَزَعتُ الآن فسوف أنتهي إلى الصبر، وإذن أصبر الآن، ثم يصبر وهو لا يخطر بباله أن يرضي الله ﷻ.

فمزيَّة هؤلاء العقلاء أُولي الألباب أنَّهم إذا صبروا، فعلوا ذلك ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، وهذا تعبير قرآني: أنَّهم يحتسبون هذا الأمر عند الله ابتغاء مثوبته لا يريدون شيئًا للنفس ولا للغير، إنَّما يريدون وجه الله ﷻ.

مناقشة كانت في الأخلاق القائمة على الواجب:

هناك بعض دعاة الأخلاق يتحدَّثون عن شيء اسمه الواجب (دعاة الواجب)، ومنهم الفيلسوف الألماني الشهير «كانت»، هؤلاء يقولون: إنَّ الدين لا يعرف الأخلاق القائمة على أمر الواجب، إنَّما يقوم فقط على العمل من أجل الجنَّة والنار، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ونسوا أنَّ القرآن يحث ويربط الإنسان أن يفعل ما يفعل لوجه الله ﷻ، وإرضاء له، ولا ينافي ذلك أن يطلب مثوبته، ويهرب من عقوبته؛ لأنَّ المعيب هو أن يطلب المصلحة الماديَّة الآنية الشخصية العاجلة، أمَّا أن يرنُو إلى ما هو أعلى من ذلك، وما هو أبعد من الدنيا، وما هو أوسع من المصلحة الشخصيَّة، وما هو أعمق من الناحية الماديَّة فهذا لا يُعاب.

(١) من شعر أبي ذؤيب الهذلي. انظر: المفضليَّات صـ ٤٢٢، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، نشر دار المعارف، القاهرة، ط ٦، وديوان الهذليين (٣/١)، تحقيق محمّد محمود الشنقيطي، نشر الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

QaradawiBooks.com

فهؤلاء أُولو الألباب وصفهم القرآن بأنَّهم: صبروا ابتغاء وَجْهِ ربِّهم، كما جاء في القرآن: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدَّثر: ٧].

الصبر من الأخلاق الربَّانيَّة:

ولهذا كان صبرهم عبادة لله ﷻ، والعبادات ليست هي الظاهرة فقط من الصَّلاة والزكاة والصيام والحج، والتلاوة والذكر والتَّسبيح، ولكن هناك عبادات باطنة منها الصبر لله ﷻ، وأنا أسمِّيها «الأخلاق الربَّانيَّة»، كما أنَّ هناك أخلاقًا إنسانيَّة: الصدق والأمانة، والتعاون والنظام، والعدل والإحسان والوفاء، وهذه تشترك فيها الأمم: دينيَّة كانت أم غير دينيَّة، وثنيَّة أم غير وثنيَّة. ولكن ما يُميِّز المؤمنين عن غيرهم: أنَّ أخلاقهم فيها هذا العنصر الربَّاني، فهم حينما يوفون بالعهد: ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾، وحينما يصلون الأرحام أو يُحسنون إلى النَّاس يتذكَّرون أنَّهم: ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، وحينما يصبرون، يصبرون ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾.

المزج في القرآن بين العبادة والأخلاق:

ولذلك أنا أقول دائمًا: إنَّ هناك مزْجًا في القرآن وفي الإسلام بين العبادة والأخلاق، فليس هناك انفصال؛ فالعبادة ضربٌ من الأخلاق، والأخلاق ضربٌ من العبادة، والإنسانُ يتعبَّد لله تعالى بالأخلاق، فالأخلاق أوامرُ ونواهٍ، والدينُ نفسُه أخلاق، فالله ﷻ حين وصف المتقين، قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [البقرة: ١٧٧] فوصفهم بوصف أخلاقي، وكما في سورة الحجرات أيضًا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحُجُرات: ١٥]. فهذه أيضًا أوصاف أخلاقيَّة، وكذلك

QaradawiBooks.com

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فهناك ارتباط وتمازج وتلازم بين العبادة والأخلاق.

غير مرخصة للطباعة

الصبر لله والصبر بالله:

وهذا الصبر ابتغاء وجْه الله هو الصبر لله، وقد ذهب بعض المتصوِّفة إلى أنَّه أضعف من الصبر بالله، هكذا ذكر الشيخ الهروي في «المَنَازل»، وردَّ عليه المحقِّق ابن القيِّم في «المَدَارج». قال الهروي في «منازل السائرين»: وأضعف الصبر: الصبرُ لله، وهو صبر العامَّة، وفوقه: الصبر بالله، وهو صبر المريدين، وفوقه: الصبر على الله، وهو صبر السالكين. اهـ.

تحقيق ابن القيِّم في الفرق بين الصبرين:

قال ابن القيِّم شارحًا ومُعَلِّقًا: «معنى كلامه: أنَّ صبرَ العامَّة لله، أي رجاء ثوابه، وخوف عقابه. وصبر المريدين بالله، أي: بقوَّة الله ومعونته، فهم لا يرون لأنفسهم صبرًا، ولا قوة لهم عليه؛ بل حالهم التحقُّق بـ «لا حَوْل ولا قوَّة إلَّا بالله» علمًا ومعرفةً وحالًا.

وفوقهما: الصبر على الله، أي: على أحكامه، إذ صاحبُه يشهد المتصرِّف فيه، فهو يصبر على أحكامه الجارية عليه، جالبةً عليه ما جلبت، من محبوب ومكروه؛ فهذه درجة صبر السالكين.

وهؤلاء الثلاثة عنده من العوام؛ إذ هو في مقام الصبر، وقد ذكر: أنَّه للعامَّة، وأنَّه من أضعف منازلهم! هذا تقريرُ كلامه.

والصواب: أنَّ الصبر لله فوق الصبر بالله، وأعلى درجةً منه وأجل؛ فإنَّ الصبر لله متعلق بإلٰهيَّته، والصبر بالله: متعلق بربوبيَّته، وما تعلَّق بإلٰهيَّته أكمل وأعلى ممَّا تعلق بربوبيَّته.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

ولأنَّ الصبر له عبادة، والصبر به استعانة، والعبادة غاية، والاستعانة وسيلة. والغاية مرادةٌ لنفسها، والوسيلة مرادةٌ لغيرها.

ولأنَّ الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر، والبَرِّ والفاجر، فكلُّ مَنْ شهد الحقيقة الكونيَّة صبر به.

وأمَّا الصبر له: فمنزلةُ الرُّسل والأنبياء والصِّدِّيقين، وأصحاب مشهد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

ولأنَّ الصبر له: صبرٌ فيما هو حقٌّ له، محبوبٌ له، مَرْضيٌّ له.

والصبر به: قد يكون في ذلك، وقد يكون فيما هو مسخوط له، وقد يكون في مكروه أو مباح، فأين هذا من هذا؟

وأمَّا تسمية «الصبر على أحكامه» صبرًا عليه، فلا مُشَاحَّة في العبارة بعد معرفة المعنى، فهذا هو الصبر على أقداره، وقد جعله الشيخ في الدرجة الثالثة، وقد عرفت بما تقدَّم: أنَّ الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على أقداره ـ كما ذكرنا في صبر يوسف عليه السلام ـ فإنَّ الصبر فيها صبرُ اختيارٍ وإيثارٍ ومحبةٍ. والصبر على أحكامه الكونيَّة: صبرُ ضرورة، وبينهما من البَوْن ما قد عرفت.

وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصَّلاة والسلام، على ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم، ومقاومتهم قومَهم: أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبَّبًا عن فعله.

وكذلك كان صبر إسماعيل الذبيح، وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فَقْد يوسف.

QaradawiBooks.com

فعلمتَ بهذا أنَّ الصبر لله أكمل من الصبر بالله، والصبر على طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على قضائه وقدره. والله المستعان. وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

فإن قلت: الصبر بالله أقوى من الصبر لله، فإن ما كان بالله كان بحوله وقوته، وما كان به لم يقاومه شيء، ولم يقم له شيء، وهو صبر أرباب الأحوال والتأثير. والصبر لله: صبر أهل العبادة والزهد. ولهذا هم ـ مع إخلاصهم وزهدهم وصبرهم لله ـ أضعف من الصابرين به، فلهذا قال: «وأضعف الصبر الصبرُ لله»!

قيل: المراتب أربعة:

إحداها: مرتبة الكمال. وهي مرتبةُ أُولي العزائم، وهي الصبر لله وبالله. فيكون في صبره مبتغيًا وجْه الله، صابرًا به، متبرئًا من حوله وقوته. فهذا أقوى المراتب وأرفعها وأفضلها.

الثانية: ألا يكون فيه لا هذا ولا هذا، فهو أخسُّ المراتب، وأردأ الخلق، وهو جدير بكلِّ خذلان، وبكلِّ حرمان.

الثالثة: مرتبة مَنْ فيه صبرٌ بالله، وهو مستعينٌ متوكلٌ على حَوْله وقوَّته، متبرئٌ من حوله هو وقوته، ولكن صبره ليس لله؛ إذ ليس صبره فيما هو مراد الله الديني منه. فهذا ينال مطلوبه، ويظفر به، ولكن لا عاقبة له، وربما كانت عاقبته شر العواقب.

وفي هذا المقام خفراء الكفار وأرباب الأحوال الشيطانيَّة، فإن صبرهم بالله لا لله ولا في الله. ولهم من الكشف والتأثير بحسب قوة

QaradawiBooks.com

أحوالهم، وهم من جنس الملــوك الظلَمة. فإنَّ الحال كالمُلْك يُعطَاهُ البَرُّ والفاجر، والمؤمن والكافر.

الرابع: مَنْ فيه صبر لله، لكنَّه ضعيف النَّصيب من الصبر به، والتوكل عليه، والثقة به، والاعتماد عليه. فهذا له عاقبــةٌ حميدةٌ، ولكنَّه ضعيف عاجز، مخذولٌ في كثير من مطالبه؛ لضعف نصيبه من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فنصيبه من الله أقوى مــن نصيبه بالله، فهذا حال المؤمن الضعيف.

وصابرٌ بالله، لا لله: حالُ الفاجر القوي، وصابر لله وبالله: حال المؤمن القوي، والمؤمنُ القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

فصابر لله وبالله عزيزٌ حميد، ومن ليــس لله ولا بالله مذموم مخذول، ومن هو بالله لا لله قادر مذموم، ومن هو لله لا بالله عاجز محمود.

فبهذا التفصيل يزول الاشــتباه في هذا الباب، ويتبيَّن فيه الخطأ من الصواب، والله ﷻ أعلم»[1].

من صفات أُولي الألباب: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة:

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وهذه عبــادة خالصة مع الجانــب الأخلاقي وهو الصبــر، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدَّوها قائمةً مســتويةً، مســتوفية للأركان والشروط والآداب، والله ﷻ لم يقل: صَلَّوا، وإنَّما قال: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهو تعبير يفيد أنَّهم يُؤدُّونها مستكملة لحقائقها.

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١٦٧/٢ ـ ١٦٩)، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: شأن القرآن دائمًا أن يقرن بين الصلاة والإنفاق، حقِّ الله تعالى وحقِّ الناس، وخصوصًا الضعفاء من عباده، الفقراء والمساكين، فهؤلاء لهم حقٌّ، وقد قَرَن القرآن بين الصلاة وبين الزكاة في ستَّة وعشرين موضعًا، وأحيانًا يقرن بينهما بلون آخر كأن لا يذكر لفظ الزكاة مثل: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ [فاطر: ٢٩]، ومثل: وصف المتقين في أوائل سورة البقرة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وفي أوائل سورة الأنفال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣]، وهنا في سورة الرعد نجد هذا المعنى الربَّاني فيقول الله ﷻ: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، فهم يلحظون أنَّهم حينما يخرجون من أموالهم ما ينبغي أن يخرج؛ فإنَّما يُخرجون ممَّا رزقهم الله، فالمالُ ليس مالهم في الحقيقة، وإنَّما هو مالُ الله عندهم، وهم لا يخرجون هذا المال كلَّه، ولكنَّهم يخرجون بعضه، فالله يطلب البعض لا الكل: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦]. وهو سبحانه لا يسألكم أموالكم كلَّها، بل يسألكم بعضها: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ [محمد: ٣٧]. فلو سألكموها كلَّها، وأحفاكم، أي: لم يُبْقِ لكم شيئًا، هنالك تبخلوا، ولكنَّه يريد البعض.

الإنفاق في السر والعلن:

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: بحسب الأحوال فأحيانًا ينفقون سرًّا إذا كان السرُّ أولى، كأن يكون أبعد عن الرياء، وخصوصًا في صدقة النَّفل، فهم يُخرجونها سرًّا بعيدًا عن التظاهر، وأحيانًا ينفقون علانية إذا كان الإنفاق فريضة، حتَّى لا يتَّهمهم النَّاس بالتفريط في الواجب، وحيث يُتوقَّع أن يقلِّدهم ويقتدي بهم غيرهم، ويأمنون على أنفسهم الرياء، فهنا

QaradawiBooks.com

تكون العلانية أفضل، وهم أصحاب عقول وأُولو ألباب: يُقدِّرون أي المواقع تكون أولى بالسر، وأيها أولى بالعلانية.

وقد وصف الله المؤمنين فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

ووصَفَ الإسرار والإعلان في الصَّدقَات فقال: ﴿ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢٧١].

مقابلة الإساءة بإحسان:

﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾: يدفعون بالحسنةِ السيئةَ، ولا يقابلون الإساءة بالإساءة؛ بل يقابلون الإساءة بالإحسان، أنَّهم أصحاب قلوب كبيرة، فلا يريدون أن يقضوا حياتهم في المخاصمة مع الناس، والشِّجَار مع الخلق، فالعمر أقصر والحياة أثمن، من أن يقضوها في المُشادَّة والمُلاحاة مع الآخرين، إنَّما تتَّسع صدورهم ليقابلوا المسيءَ بالإحسان إليه، فهم يَصِلون من قطع، ويبذلون لمن منع، ويُعطون من حرَم، ويعفونَ عمَّن ظلم، ويُحسنون إلى من أساء إليهم، فهذا هو شأنهم كما وصف الله تعالى عباد الرحمن بقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥]، وإنَّه لشأنٌ عظيم.

يَجْزُونَ من ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السّوءِ إِحْسَانًا[1]

(١) البيت لرجل من بني العنبر، انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (٢٨٥/١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ، والحماسة الكبرى لأبي تمام (٥٨/١)، تحقيق عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨١م.

QaradawiBooks.com

وكما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فُصِّلَت: ٣٤، ٣٥]. لا يستطيع أن يقف هذا الموقف ويقابل السيِّئةَ بالحسنة أو يدفعها بالَّتي هي أحسن إلَّا الَّذين صبروا، وهذا يدلُّ على أهمية الصبر في هذه الأمور كلِّها.

وهناك من يقول: إنَّ معنى ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾: أنَّهم يتبعون السيِّئة بالحسنة؛ كما جاء في حديث معاذٍ الشهير: «**وأَتْبِعْ السيِّئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا**»[1]، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وإن كان الَّذي ينقدح في النفس أنَّ المعنى الأول هو المراد؛ لأنَّه يُبيِّن علائقهم بالخلق جميعًا، فهم أناس كبار ليسوا صغار النفوس، ولا يعيشون في الأمور التافهة الَّتي تستهلك الحياة بالقيل والقال، والمعاداة مع الناس.

معنى عقبى الدار:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ الدَّار: هي الدُّنيا، وعُقْبَى هذه الدار هي الجنَّة، وكما يقول العلَّامة الزمخشري: كأنَّ الجنَّة هي الأصل، وكأنَّ العقاب جاء تبعًا، والثواب هو المراد أصلًا[2]: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]﴾، وكما جاء في سورة يونس: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤]، فكأنَّ جزاء المؤمنين

(١) رواه أحمد (٢١٩٨٨)، وقال مخرِّجوه: حسن. والترمذي في البر والصلة (١٩٨٧) وقال: حسن صحيح. والحاكم في الإيمان (٥٤/١) وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧)، عن معاذ بن جبل.

(٢) الكشاف (٤١١/٣).

QaradawiBooks.com

بالقسط وإثابتهم بالجنة هو الأصل، لأنَّ هذه هي العاقبة، والله ﷻ يريد للناس المثُوبَة، ويريد لهم الحُسنى.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ فعقبى الدار، جنَّات عدن يدخلونها، وهي جنَّات وليست جنَّة واحدة. وقد جاءت أمُّ صحابيٍّ استُشهد في بدرٍ تسأل النَّبِيَّ ﷺ عن ابنها، وتقول: يا نبيَّ الله، ألا تُحَدِّثني عن حارثة، وكان قتل يوم بدر أصابه سهمٌ غَرْب، فإن كان في الجنَّة صبرت، وإن كان غير ذلك، اجتهدت عليه في البكاء، قال: «**يا أمَّ حارثة، إنَّها جِنان في الجنَّة، وإن ابنَكِ أصاب الفردوسَ الأعلى**»[1]. فهي جنَّات، وجنَّات عدن معناها: جنَّات للاستقرار والإقامة والخلود، فعدن تعني إقامة: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾، والله يُكرمهم بأن يُدخِل معهم من يُحبُّون من الآباء. وكلمة الآباء تعني الأبوين من باب التَّغليب، فيقال عن الأب والأم: أبوان، وكلمة أزواج تشمل الذكور والإناث، فالرجل تدخل معه زوجته الجنَّة كرامةً له، والمرأة الصالحة يدخل معها زوجها كرامةً لها، وأحيانًا تكون الزوجة شفيعةً لزوجها.

﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ حتَّى تكمل بهجتهم، ويتمَّ سرورهم حينما يلتئم الشَّمل بالجنة، فالإنسان حينما يكون في سفر ويأتي بعد غيْبة يتمنى أن يلتقي بأولاده وذرِّيته، ويعتبر ذلك يومًا من أيام السرور والسعادة، فما باله بالجنَّة يلقى فيها الأحبة والذريَّة؟ إنَّها نعمةٌ عظيمة، ولكن هذا لا يكون إلَّا بشرط أن يكونوا من الصالحين، ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ وهذا يدلُّ على أن غير الصالحين لا يدخلون الجنَّة معهم، فلو كانوا من أهل الكفر فإنَّ الأنساب

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٩)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

لا تنفعهم: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الممتحنة: ٣]، كما خاطب الله تعالى المشركين: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]. فالكافر لا ينفعه نسب، ولا ينفعه أبٌ ولا زوجٌ ولا ابنٌ، ولكن الأنساب تنفع مع أهل الإيمان، فإذا ماتَ أحدهم على الإيمان فإنَّ الله ﷻ ينفعه بأهله الآخرين، حتَّى لو كان أقلَّ درجة فإنه يُعلي له درجتَه، فيرفعه من جيد أو مقبول إلى ممتاز ببركة صاحب الامتياز من أهله كما قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١] فيلحق بهم ذُرِّيَّتهم دون أن ينقص من أعمالهم، فالأدنى يرتفع إلى الأعلى دون أن ينقص الأعلى شيئًا.

وإذن فأولو الألباب يدخلون الجنَّة، وتدخل عليهم الملائكة من كل باب، وهذا يدلُّ على أنَّ أهل الجنَّة ليسوا هم البُلْه كما يذكر بعض الناس، وكما جاء في بعض الأحاديث الَّتي لم تصحَّ أنَّ أكثر أهل الجنَّة البُلْه[1]، فقد رأينا أنَّ أُولي الألباب العقلاء يدخلون الجنَّة، وليس البلهاء ولا المغفلين ولا المجاذيب، وقد كان الصحابة من العقلاء أُولي الألباب، وكان الرسل كذلك في قمة العقل، حتَّى إنَّ من الصفات الأساسية لهم كما يذكر العلماء: الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة.

صلة الأخلاق بالعقل:

وأريد أن أذكر شيئًا هنا عن العقل والخُلُق، فالقرآن قد ذكر مجموعة من الأخلاق لأُولي الألباب، وهذا يدلُّ على أنَّ هناك علاقة تلازم بين

(١) رواه البزار (٦٣٣٩) وضعفه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٠٥٠): فيه سلامة بن روح؛ وثقه ابن حبان وغيره، وضعَّفه أحمد بن صالح وغيره، وروايته عن عقيل وجادة.

QaradawiBooks.com

العقل والخُلُق، فالعاقل لا بدَّ أن يكون ذا خُلُقٍ حسن، بحيث إذا رأيتَ إنسانًا ذا خلق رديء فاعلم أنَّه ليس بعاقل، أو أنَّه عطَّل عقلَه، فلو كان عاقلًا حقًّا لتجلَّى ذلك في خُلُقه وسلوكه، لأنَّ الإنسان العاقل هو الَّذي يُوازن بين المبنى والمعنى، وبين العاجل والآجل، وبين المصلحة الفرديَّة والمصلحة الجماعيَّة، وبين الشهوة والواجب، فيرجِّح ما ينبغي ترجيحه، ويستعمل عقله.

ولذلك نجد أنَّ الله ﷻ ردَّ على المشركين حينما اتَّهموا رسول الله ﷺ بالجنون، وسرَّى عنه بقوله: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۞ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۞ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ١ ـ ٤]، ويستحيل أن يكون صاحب الخلق العظيم مجنونًا، فالمجنون تصَرُّفاته غير متَّزنة، يعلو ويهبط، ويذهب يَمنةً ويذهب يَسرةً، ويفعل الخير أحيانًا والشر أحيانًا أخرى، ويقول صوابًا أحيانًا، ويقول خطأ أحيانًا أخرى، فلا قرار له، ولا استقامة له على شيء، أمَّا صاحب الخلق العظيم؛ فلا بدَّ أن يكون في قمة العقل.

دخول الملائكة وسلامهم على أُولي الألباب:

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۞ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾:

﴿مِّن كُلِّ بَابٖ﴾: دلَّ على كثرة الأبواب حتَّى لا يتعطَّل داخل أو خارج، إذ لو كان بابًا واحدًا لانتظر بعضهم إلى أن يخرج بعض؛ من كثرة الملائكة الَّذين يُحيُّون هؤلاء العقلاء من المؤمنين، والله قد كثَّر عليهم الأبواب؛ لتتَّسع للداخلين، ويكثُر السلام والتحية لهؤلاء، تُحييهم ملائكة الله ﷻ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.

QaradawiBooks.com

وهنا نجد أهمية الصبر مرَّة أخرى، دليل على أنَّ الصبر له مدخل في كلِّ ما ذُكر، فالإنسانُ لا يستطيع أن يؤدِّي الصلاة إلَّا بالصبر، والعبادة تحتاج إلى صبر، قال تعالى: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥]، ولا يستطيع الإنسان أن يدرأ السَّيِّئة بالحسنة إلَّا بالصبر، ولا يستطيع أن ينفق ممَّا رزقه الله إلَّا بالصبر، ولا يستطيع أن يوفي بعهد الله إلَّا بالصبر، وقد جاء في سورة الإنسان: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١٢].

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾

تسليمات تأتيهم من كلِّ ناحية: ﴿يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۞ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، ولذلك قيل: إنَّ الجنَّة هي دار السلام، لكثرة ما فيها من السلام؛ ولأنَّها دار الأمان، فليس فيها خوف قط، وفيها السلامة من كلِّ شيء، وما ذلك إلَّا لأنَّها دار الله: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، ومن أسمائه ﷻ: السلام، والمسلمون يُسمُّون أبناءهم عبد السلام، وقد روى الإمام أحمد وابن جرير والحاكم وصحَّحه وغيرهم عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «**إنَّ أوَّل زمرةٍ تدخل الجنَّة ثُلَّة من فقراء المهاجرين الَّذين تُسَدُّ بهم الثُّغُور، وتُتَّقى بهم المكارِهُ، ويموت أحدُهم وحاجته في صدره لا يجد لها قضاء**»[(١)]، فليسوا من المشاهير الَّذين يُشار إليهم بالبنان، وتُفتح لهم الأبواب، وتُقضى لهم الحاجات، ولكنهم أناس مغمورون كما في الحديث: «**رُبَّ أَشْعَثَ أغبرَ ذي طِمْرَيْن لا يُؤْبَه له لو أقسم على الله لأبرَّه**»[(٢)] فهؤلاء يأمرُ اللهُ تعالى ملائكتَهُ أن

(١) رواه أحمد (٦٥٧٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده جيد. وابن حبان في مناقب الصحابة (٧٤٢١)، والحاكم في الجهاد (٧١/٢) وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٥٤) وقال: حسن. وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٦٢٤٨)، عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

يذهبوا فيُحيُّوهم فيقولون: يا ربَّنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك، تأمرنا أن نذهب إلى هؤلاء فنُحيِّيهم ونسلِّم عليهم! فيقول: هؤلاء عباد لي، كانوا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا، تُتَّقى بهم المكاره، وتُسدّ بهم الثغور، ويموت أحدهم وحاجته في صدره، اذهبوا إليهم، ائتوهم فحيُّوهم، فتذهب إليهم الملائكة فيقولون لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[1].

* * *

(١) الحديث قبل السابق.

QaradawiBooks.com

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۞ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ۞ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٥ ـ ٢٩]

صورة معتمة مقابل الصورة المشرقة:

أسلوب القرآن أنَّه يذكر الصورة المشرقة الوضيئة لمن يحبُّهم الله تبارك وتعالى من عباده، ثم يذكر بعدها الصورة المعتمة المظلمة لمن يبغضهم الله تبارك وتعالى من خلقه، وهو ما نقول عنه: المقابلة، فهذا أسلوب القرآن الكريم، وخصوصًا في هذه السورة الَّتي يتَّضح فيها التقابل من أولها، كما سبق الكلام عن ذلك، وكما بيَّنَّا من قبل، فلا عجب بعد أن ذكر الله تعالى أُولي الألباب، وأوصاف أُولي الألباب الَّذين يعلمون أنَّما أنزل إلى محمد ﷺ من ربِّه هو الحق، أن يذكر عُميَ البصائر، فقد قال بداية: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾. ولا عجب أن يُحدِّثنا عن هؤلاء العُمْي الَّذين لا ألباب لهم ولا عقول عندهم، ولا يتذكَّرون ولا يعُون.

ثلاثة أوصاف أساسية:

والآية الَّتي معنا تتحَدَّث عن أوصاف هؤلاء، يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

QaradawiBooks.com

فهذه ثلاثة أوصاف أساسية.

نقض العهد والميثاق:

أولها: نقض العهد من بعد توثيقه وقبوله وإظهار الرضى به، فينقضون عهد الله الَّذي يشمل عهده إلى آدم وأبنائه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠]، وما ترتَّب على ذلك من عهود تتمثَّل في الأوامر والنواهي.

وتتمثَّل في عهود النَّاس بعضهم مع بعض، فكلها عهد الله ﷻ، وقد أمر الله تعالى أن تُوفَّى وألّا تُنقَض: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٩١، ٩٢].

والنقض أصله حلُّ الشيء المربوط، وفكُّ الشيء المتماسك، مثل: نقض الغزْل، أو نقض الحبل أو نقض البناء، أي: هدمه بعد تماسكه، فهؤلاء الَّذين تَتحدَّث عنهم الآيات ينقضون العهد بعد توثيقه وتأكيده كما حكى الله تعالى عن اليهود الذين: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٦].

فهؤلاء لا يبالون بعهد، ولا يبالون بميثاق.

فأوَّل أوصاف هؤلاء الَّذين لهم اللعنة ولهم سوء الدار: أنَّهم ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه.

وإذا كان أوَّل أوصاف أولي الألباب أنَّهم ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ فهؤلاء على العكس منهم: لا عهد لهم ولا ميثاق ولا كلمة،

QaradawiBooks.com

ولا يحترمون عهدًا بينهم وبين الله، ولا بينهم وبين أحد، وهذا هو أساس كل سوء، فالإنسان يُؤْخذ من ارتباطه والتزامه، وهؤلاء لا يحترمون التزامًا ولا ارتباطًا، لا بينهم وبين خالقهم ولا بينهم وبين الحق.

قطع ما أمر الله بوصله:

وثاني الأوصاف الَّتي تحدَّثت عنها الآية، هو قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ على عكس ما وصف الله تعالى به أُولي الألباب الذين: ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ بهذا العموم والإجمال والإطلاق، فكل ما أمر الله به أن يُوصَل من علاقات وارتباطات بين النَّاس بعضهم وبعض، من رحِم ومصاهرة ونَسَب وجوار وصُحبة وزمالة، ومن رباط عام، وحتى رباط العبودية: رباط المخلوقيَّة.. أنَّهم مخلوقون، فكل المخلوقات ينبغي أن يُراعُوا حقَّ الله في هذا الرباط والعهد، وهذا الوصْل هو شأن أُولي الألباب.

أمَّا هؤلاء فهم: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، فلا يبرون أبًا ولا أمًّا، ولا يصلون رحِمًا، ولا يُؤتون ذوي القُربى، ولا يرْعَون جوارًا، ولا يؤدُّون للصحبة حقَّها، ولا يرحمون ضعيفًا، ولا يؤدُّون شيئًا لمسكين، وقد قال الله ﷻ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

الإفساد في الأرض:

وثالث الأوصاف هو قول الله تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وكأنَّ القرآن الكريم قد استغنى بهذا الوصف، ليقابل به كل الأوصاف الأخرى

QaradawiBooks.com

عند أولي الألباب الذين: ﴿صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، والذين: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

فالفساد في الأرض يعتبر إفسادًا للحياة يقابل هذا كله.

وقوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذه كلمة عامَّة، وعلى ذلك فترك الصلاة يعتبر إفسادًا في الأرض، وترك الإنفاق ممَّا رزق الله يُعتبر إفسادًا في الأرض، وترك الصبر ابتغاء وَجْه الله يُعتبر إفسادًا في الأرض، وترك خشية الله وعدم الخوف من سوء الحساب يُعتبر إفسادًا في الأرض.

وإذن فالفساد في الأرض هو الابتعاد عن طاعة الله تعالى، واقتراف ما نهى الله عنه، وهذا يَدُلُّنا على أنَّ صلاح الأرض إنَّما يكون بالقيام بحقِّ الله تبارك وتعالى، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وليس صلاح الأرض بالزراعة والصناعة، والاحتراف والعمارة المختلفة، وإن كانت هذه ممَّا تصلح به، ولا بدَّ للأرض منه، ولذلك اعتبرها فقهاء المسلمين من فروض الكفايات، ولكن الأرض لا تصلح به وحده، فإذا زَرع النَّاس وصنعوا وعمَّروا وأنعشوا الحياة، كما نرى في الحضارة المعاصرة، ولم يقيموا الصلاة، ولم يؤتوا الزكاة، ولم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، فإنَّ الأرض لا تصلح.

إصلاح الأرض هدف من أهداف الرسالات كلِّها:

والقرآن أراد من النَّاس أن يُصلحوا في الأرض ولا يفسدوا فيها، ولذلك قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

QaradawiBooks.com

وكم قرأنا لغير نبيٍّ من الأنبياء والرسل السابقين، يدعو قومه ألا يفسدوا في الأرض، كما قال سيِّدنا شعيب: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥، والشعراء: ١٨٣]. وكان قومه قد أفسدوا الحياة الاقتصاديَّة بالبخْس والتَّطفيف وغير ذلك: ﴿وَإِلَىٰ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وسيدنا موسى يقول لبني إسرائيل: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]. فالمطلوبُ إصلاح الأرض وعدم إفسادها.

وإصلاحُ الأرض هدفٌ من أهداف الرسالات كلِّها، أن تُصْلَحَ الأرض ولا تُفْسَد، وأن تُعَمَّر ولا تُخرَّب، ولكن إصلاح الأرض وعمرانها لا يكون فقط بالنواحي الماديَّة، وإنَّما يكون بالنواحي الماديَّة والنواحي المعنويَّة، فتعمر الأرض وتصلح بالأخلاق وبالقيم وبالإيمان، وبالتوحيد وبالعقائد السليمة، وبالعبادات الخالصة لله تبارك وتعالى، ومن أجل ذلك نرى من أوصاف القرآن لهؤلاء العُمي أنَّهم يفسدون في الأرض.

عاقبة المفسدين:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾: وفي سورة البقرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]. عاقبة هؤلاء ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧]، وهذه الخسارة بيَّنتها آية الرعد الَّتي معنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

واللعنة هي الطَّرد والإبْعاد من رحمة الله تبارك وتعالى، وهذه شرُّ عقوبة أن يُطرد الإنسان من رحمة الله الَّتي وَسِعَت كل شيء وألا تَسَعه

QaradawiBooks.com

هذه الرحمة، فهذا يعني أنَّه ارتكب ما يَحجُر عليه هذا الواسع ويضيِّقه؛ فإنه أساء وأفسد، واللعنة إذا أُطلقت فهي تعني لعنة الله ﷻ، ولكن لا مانع أيضًا أن يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون كما قال ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١]، فيصبحوا مَصبًّا للَّعنة، يلعنهم كلُّ لاعنٍ من أهل السماوات ومن أهل الأرض.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾: وكأنَّ القرآن هنا إذ قال: ﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ ولم يقل: «عليهم لعنة» يتهكَّم من هؤلاء، فماذا ينتظرون وماذا يريدون؟ وما حظُّهم وما نصيبهم؟ ليس لهم إلَّا اللعنة. كما قال الله ﷻ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١، والتوبة: ٣٤، والانشقاق: ٢٤] بنوع من السخرية والتَّهكُّم، وإذا كان في أُولي الألباب قد قال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾، وهي الجنَّة، فماذا لهؤلاء؟ ليس لهم إلَّا اللعنة وسوء الدار: ﴿سُوءُ الدَّارِ﴾ هي جهنَّم وعذابها، والعياذ بالله.

سَعَة الرزق ابتلاء من الله ﷻ:

وقد يقال: إنَّ هؤلاء عندهم أموال ولهم ثروات، ويعيشون في بحبوحة من العيش والنعيم والرفاهية، وقد يظنُّ بعض النَّاس أن هذا من دلائل الرضى عنهم، وهذا وهم عَرَض للكثيرين، ولكنَّ القرآن يردُّ هذا الأمر، فمسألة الرزق هذه لا تدلُّ على رضى ولا تدلُّ على سَخَط، وإنَّما الرزق نوع من الابتلاء كما قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وكما قال: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦]. وليس التَّنعيم للأوَّل وإعطاؤه المال تكريمًا، وليس التَّضييق على الآخر وحرمانه إهانة،

QaradawiBooks.com

ومن هنا قال الله تعالى بعد أن ذكر وصف هؤلاء المفسدين الملعونين: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾.

حكمة الله سبحانه في بسط الرزق وتضييقه:

﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾: ﴿يَبۡسُطُ﴾ أي: يوسِّع، ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ أي: يضيِّق، فهو يُوسِّع الرزق لمن يشاء، ويضيِّقه على من يشاء، والتوسيع والتضييق، أو البَسْط والقَدْر خاضع لمشيئة الله تبارك وتعالى، ومشيئته مرتبطة بحكمته، فللَّه تعالى حكمة في أن يُوسِّع على هذا، وأن يضيِّق على هذا، وقد يكون هذا نوعًا من المكافأة في الدنيا، فبعض النَّاس يعطيهم الله ما يستحقونه في الدنيا، نتيجة كدحهم وسعيهم كما قال الله ﷻ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]، فالذي يُحسنُ الزراعة ويأتي بالبذرة الصَّالحة، ويبذرها في الأرض الصَّالحة، ويتعهَّدها بالسَّقْي والرعاية، ويستخدم في ذلك أفضل الوسائل والآلات، لا بدَّ أن تؤتيَه الأرض الثمرة حسب سُنن الله ﷻ وقوانينِه في هذه الحياة الدنيا، ومع ذلك قال ﷻ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

فالتوسعة تكون بناء على هذه السُّنن، وقد تكون ابتلاء لهذا الإنسان من الله واستدراجًا منه: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢، والقلم: ٤٤].

يقول الله ﷻ: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

كما قد تكون ابتلاءً للمؤمنين: ﴿لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ لمن تَغُرُّه مظاهر الدنيا فيضعف ويفتتن، ولمن

QaradawiBooks.com

لا تغرُّه الدنيا فلا ينقلب على عقبيه، ولا يهمُّه إن كان عنده كنوز قارون، أو كان عنده ملك هارون الرشيد؛ فهو لا يبالي بهذا كله.

الفرح المذموم والفرح المحمود:

﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾: وهؤلاء الَّذين بسط الله لهم الرزق فرحوا بالحياة الدنيا، بنصيبهم وما أُتوا من رزق ومن سَعَة في هذه الحياة الدنيا.

والفرحُ في ذاته ليس مذمومًا، وإنَّما يُذمُّ إذا أدَّى إلى الأَشَر والبَطَر، فهذا هو الفرح الَّذي نَهَى قومُ قارون قارونَ عنه: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. فالمقصود بالفرح هنا هو الفرح المُؤدِّي إلى البَطَر والكفر بنعمة الله ﷻ والغرور، وهذا ما لُوحِظَ في قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]، فهو فرَحٌ بغير الحق كما قال القرآن الكريم: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]، أمَّا الفرح بفضل الله تبارك وتعالى فهو مطلوب: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤، ٥].

لا مانع من الفرح بدنيا إذا جاءت للإنسان من حلال، وابتعد فيها عن الحرام، ولا مانع كذلك من الفرح الفطري كما جاء في الحديث بالنسبة لرمضان: «**للصائم فرحتان يفرحهما: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربِّه**»[(١)]، أو «**إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقِيَ ربَّه فرح بصومه**»[(٢)].

(١) رواه مسلم في الصيام (١١٥١) (١٦٤)، عن أبي هريرة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)، كلاهما في الصيام، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

فالفِطْر فرحٌ فطريٌّ بما أحلَّ الله له ممَّا كان مُحرَّمًا عليه، والشيءُ الَّذي كان ممنوعًا أصبح مباحًا له، فهو يفرح، يشرب على الظمأ، ويأكل على الجوع، ويحمد الله ويقول: «**ذهب الظمأ، وابتلت العُروق، وثبت الأجرُ إن شاء الله**»(١).

وليس هذا الفرح الطبيعي مذمومًا، إنَّما المذموم هو الفرح بالدنيا الَّتي تُلهي عن الله ﷻ، وتغرّ الإنسان، وتشغله عمَّا ينبغي.

﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: والحياة الدنيا هي الحياة الَّتي يحياها النَّاس مقابل الحياة الآخرة، والدنيا مُؤنَّث أدنى، والأدنى يقابل بالأعلى، أو يقابل بالخير: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، فالأدنى هو الأحقر والأرذل، والمقابل له هو الأعلى والأفضل.

وأحيانًا يكون الأدنى بمعنى الأقرب، ويقابله الأبعد والأقصى: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فالحياة الدنيا هي الأقرب؛ لأنَّها قبل الآخرة، أو هي الأدنى؛ لأنَّها أقل قيمة من الآخرة، فهي الحياة الدنيا، والآخرة هي الحياة العُليا، كما قال بعض السلف: «لو كانت الدنيا ذهبًا يفنى، والآخرة خزفًا يبقى؛ لفضَّل العاقلُ الخزفَ الباقيَ على الذهب الفاني، فكيف والدنيا لا تساوي خزفًا، والآخرة أكثر من ذهب»(٢).

---

(١) رواه أبو داود (٢٣٥٧)، والنسائي في الكبرى (٣٣١٥)، والدارقطني (٢٢٧٩)، وحسن إسناده، والحاكم (٤٢٢/١)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، جميعهم في الصيام، وحسن إسناده الألباني في صحيح أبي داود (٢٠٤١)، عن ابن عمر.

(٢) من قول الفضيل بن عياض، انظر: المستطرف في كل فن مستظرف لأبي الفتح الأبشيهي صـ ٥١٢، نشر عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

QaradawiBooks.com

وممَّا يُحقِّر هذه الدنيا أنَّها فانية، فكيف وهي نفسها لا تساوي شيئًا، ولهذا فالله تعالى يقول هنا: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾.

قيمة الحياة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة:

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾: المتاعُ هو المنفعة القليلة أو الشيء القليل، وهو عُجَالة الراكب أو زاد المسافر، كما عبَّر بعض المفسِّرين، أو ما يُزوَّد به المسافر وهو على جناح السَّفر حينما يركب دابَّته، فيحمل شيئًا من المتاع: تمرات يأكلها، وأقراص من الخبز، أو شربة من سويق يشربها، فالدنيا بالنسبة للآخرة متاع، وهذا هو المتاع!

ولذا يقول العلماء: إنَّ حرف «في» عند قوله: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هو للمقايسة بين شيئين: مفضول سابق، وفاضل لاحق، كما يقال: ما ذنبك في رحمة الله إلَّا كقطرة في بحر.

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾: كلمة «متاع» هنا نكرة، وعلماء البلاغة يقولون: إنَّ التنكير يفيد التقليل والتحقير، فهو متاع حقيرٌ قليلٌ كما صرَّحت بذلك بعضُ الآيات: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [التوبة: ٣٨]. وهذا التصريح مفهومٌ ضمنًا في آية الرعد الَّتي معنا، وقد جاء في الحديث الصحيح الَّذي رواه مسلم: «**ما الدنيا في الآخرةِ إلَّا كما يجعل أحدُكم إصبعه في اليَمِّ، فَلْينظرْ بِمَ يرجع**»[1].

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٨)، والترمذي (٢٣٢٣)، عن المستورد بن شداد أخي بني فهر.

QaradawiBooks.com

فلا تستحق الدنيا إذن ـ وهذا شأنها ـ أن يحرص الناسُ عليها، ولا أن يتهارشوا من أجلها، ولا أن يعتبروا الَّذين ملكوا الدنيا هم السَّادة والقادة، وأنَّ الآخرين هم الأتباع لهم، ولا ينبغي أن تكون هي الميزان بالنسبة لتقويم النَّاس كما قال القائل:

وقيمةُ ربِّ الألْفِ ألـفٌ وزِدْ تَزِدْ وقيمةُ رَبِّ الدِّرْهَمِ الفَـرْدِ دِرْهَمُ

فقيمة الإنسان ما معه، ولذلك قال مشركو مكة حينما بُعِث إليهم النبيُّ ﷺ، ممّا حكاه القرآن: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزُّخرُف: ٣١] من مكة أو من الطائف، مثل عتبة بن ربيعة، أو الوليد بن المغيرة من مكة، أو عروة بن مسعود الثقفي من الطائف، من أصحاب الأموال وأصحاب الجاه، فهذا مقياسهم، وقد أجابهم الله سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزُّخرُف: ٣٢].

فالله قد فاوَتَ بين النَّاس حتَّى تنتظمَ الحياة، وسخَّر بعضَهم لبعض ليس قهرًا ولا إذلالًا، ولكن تسخير نظام وإدارة: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٣٢].

تكرار اقتراح الآيات الخارقة:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ كأنَّ الَّذين كفروا هنا ـ وهم أنفسهم المذكورون قبل قليل بالأوصاف الشائنة ـ يقترحون الآيات، ويطلبون الخوارق، ولم يكفِهم ما أنزل الله على محمد ﷺ من الحق، فهم العُمْيُ الَّذين لم يعلموا أنَّما أنزل إليه من ربِّه هو الحق، وبدل أن يستجيبوا لأعظم آية وأرفع

QaradawiBooks.com

معجزة، وهي القرآن الكريم ـ الآية الباقية الخالدة ـ طفِقوا يطلبون آياتٍ شتَّى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعٗا ۞ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ۞ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣]، وهذه المطالب لا تدل إلَّا على التَّعنُّت، وتلك الآيات بعضها في الأرض، ولكن لأنَّهم يطلبونها بخارقة سماويَّة، اعتبرت نازلة من السماء.

موضوع سورة الرعد:

والآية: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ تكرار لما ذكر في أوائل السورة: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، والسورة تدور حول هذا المحور: محور الرسالة المحمديَّة، وثبوت هذه الرسالة وحقِّيَّتها، وحقيَّة ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الكتاب، وهذا واضح من أوَّل آية في السورة: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، ولكن هؤلاء لم يقنعهم هذا الكتاب، فهم يطلبون آيات: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾.

مواجهة الباطل بصراحة:

وقد ذكر القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ليُسجِّل عليهم الكفر، ويُبيِّن أنَّ الَّذي دعاهم إلى مثل هذه الطلبات المتعنِّتة إنَّما هو الكفر والجحود، وقد تكرَّرت: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في هذه السورة ثلاث مرات تلك الَّتي معنا، والتي في أوَّل السورة، وفي آخرها:

QaradawiBooks.com

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣].

والقرآن هنا يحكي لنا قول الَّذين كفروا، ولا يتوجَّس من ذلك، ولا يبالي أن يعرض علينا أقوال الكافرين، فهو مملوء بأقوال الكافرين والمعارضين للنبوَّة من المشركين بالله، والجاحدين لرسالة رسول الله ﷺ، وهذا يعلمنا أن نواجِه الباطل بصراحة ولا نخشاه، ولا ندفن رؤوسنا في الرمال، فكم ذكر من أقوال المشركين واليهود والنَّصارى والدهريين والمكذِّبين بالنبوة، وردَّ على هذا كلِّه.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود على محمد ﷺ، وإن لم يُسبَق ذكره، ولكنَّه مفهوم من المقام.

و﴿ءَايَةٌ﴾: خارقة من الخوارق الحسيَّة، كالتي أنزلت على موسى وعيسى وصالح وغيرهم من الأنبياء، نشهدها بأعيننا، ونلمسها بأيدينا، هكذا اقترحوا وهكذا تعنَّتوا وطلَبوا.

ولكن سنَّة الله جَرَت على ألا يُجاب هؤلاء إلى طلبهم، فلو أجابهم ما آمنوا، والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

ويقول: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

ويقول: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحِجر: ١٤، ١٥].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فالآيات لَنْ تُجْدِي مع هؤلاء، وكل ما في الأمر أنَّهم مُتعنِّتون أمام رسول الله ﷺ، ولو أنصفوا لكان القرآن كافيًا لهم، وهو أعظم الآيات، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، والقرآنُ وحدهُ كافٍ في إقناع أهل العقل والبصيرة أُولي الألباب.

مَن الَّذين يُضِلُّهم الله ويهديهم؟

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ هذا الردُّ يعني أنَّ هؤلاء ضُلَّال غلبت عليهم الضلالة، واستحبُّوا العَمَى على الهدى، فلم يرَوا النور أمام أعينِهم، وهو واضح ساطع. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾. وبيان ذلك هناك في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]. فما أضلَّهم إلَّا لأنَّهم فسقُوا عن أمره، والله يضلُّ من يشاء ممن كان على شاكلة هؤلاء؛ الَّذين يَرَون الحق ناصعًا ولا يؤمنون به، تعنُّتًا أو جحودًا أو استحبابًا للدنيا، أو ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، أو بغيًا وعُلُوًّا أو غير ذلك.

مَنْ الَّذي يشاء الضلالة والهداية؟

والضمير في قوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ عائدٌ على الله ﷻ خلافًا لما يقوله بعض المحْدَثِين من أنَّ الضمير في ﴿يَشَآءُ﴾: عائدٌ على «مَن»، والمعنى: أن من يشاء الضلالة يُضلُّه الله، وكذلك مَنْ يشاء الهدى يهديه الله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣، وفاطر: ٨]. فالمشيئة على قولهم تكون هنا للإنسان نفسه، والواقع أنَّ هذا يخالف المتبادر من هذه اللفظة الَّتي ذُكرت في أمور كثيرة كما في قوله في السورة ذاتها: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾. فـ ﴿يَشَآءُ﴾ هنا: هي لله ﷻ، الَّذي يبسط الرزق لمن يشاء،

QaradawiBooks.com

ويضيقه على من يشـــاء، وكما في قولـــه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] أي: لمن يشاء هو سبحانه.

وكما في قوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمـــران: ٢٦]، وهنـــا جاءت بالخطاب، وكمـــا في قولـــه: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعـــراف: ١٥٥]. فهذا كلُّه يدلُّ علـــى أنَّ المقصود بالذي يشاء هو الله ﷻ وليس الإنسان.

وصاحب هذا التفســـير ـ مَنْ يشاء هو الإنســـان ـ يريد أن يرُدَّ على الجبريـــن وغيرهم ليقـــول: إنَّ القرآن يجعل مصير الإنســـان بيده، وأنَّ الإنســـان هو الَّذي يصنع مســـتقبلَه، وهو الَّذي يمكن أن يهدي نفسه أو يضلّها، ولكن تقرير هذه الحقيقة لا يحتاج إلى التَّعسُّف في التأويل، لأنَّ القـــرآن يردُّ علـــى الجبريين في مئـــات الآيات إن لم يكـــن في آلافها، فالإنسان هو المسؤول عن مصيره:

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فُصِّلَت: ٤٦].

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء: ٧].

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وقد تكلمنا قبل قليل عـــن مصير أُولي الألبـــاب الَّذين كانت نتيجة ســـعيهم ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، أمَّا الآخرون فـ ﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، فالنتائج مُرتَّبة على المُقَدِّمات، والثوابُ والعقابُ مترتِّب على الحسنات والسيئات، لذا فلا يحتاج الأمر لأن نتعسَّف في تفسير القرآن.

QaradawiBooks.com

لمن يكون الإضلال والهداية؟

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ وكما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]. قال هنا: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: إنَّ الله يهدي من كان عنده استعداد للهداية وقابليَّة لها، والله قد خلق القلوب مُستعدَّةً للهداية ولم يخلقها غُلفًا، وإنَّما سعيُ الإنسان وعملُه هو الَّذي يودي به، والله تعالى يقول: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥] فالقلوب مُستعدَّة لقَبول الهداية والتوحيد، والإنسان هو الَّذي يُدَسِّي نفسها أو يُزكِّيها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

فالهداية مُتاحةٌ للجميع، وبابُها مفتوح للجميع، ومَنْ يخطو خطوة واحدة فإنَّ الله ﷻ يقابله بأن يفتح له الأبواب، «**من أتاني يمشي أتيتُه هَرْوَلة، ومن تقَرَّب إليَّ شبرًا تقَرَّبت إليه ذراعًا، ومن تَقَرَّب إليَّ ذراعًا تقرَّبت إليه باعًا**»(١).

فعلى قدر الاستعداد تكون الهداية، وهؤلاء عندهم استعداد للإنابة، فهداهم الله ﷻ كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، بل الله أعلم بالشاكرين، ولذا منَّ عليهم.

هناك إذن استعدادات هيَّأ الله الإنسان بها، وفي الحديث: «**كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرة**»(٢).

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم في التوبة (٢٦٧٥)، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه صـ١٩٨.

QaradawiBooks.com

هداية البيان وهداية التوفيق:

والهداية هدايتان:

هدايةٌ البيان والدلالة، وهي مبذولةٌ للجميع، وهي من هَدَيْتُه الطريق: يعني دَلَلْته عليه. والعلماء والدعاة هُداة، يبيِّنون للناس المنهج والطريق المستقيم، ويدلُّونهم عليه.

وهداية موصلة إلى الحق، وإلى اتِّباع طريقه والتوفيق إليه، وهذه الهداية لا تكون إلَّا لله ﷻ.

والأنبياء يهدون بمعنى أنَّهم يدلُّون النَّاس على الطريق، والله يهدي، أي: يدلُّ أيضًا على الطريق كما قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. ولكن بعض النَّاس يدلُّهم الله ويبيِّنُ لهم فلا يستجيبون كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فُصِّلَت: ١٧].

فالهداية هنا بمعنى البيان والدلالة، وقد أرشدهم الله إلى الطريق المستقيم، وعرَّفهم الحق من الباطل، ومع هذا استحَبُّوا العَمى على الهدى.

أمَّا الهداية الأخرى فتعني التوفيق إلى الإيمان والطاعة كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] فهي هنا بمعنى التوفيق.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] أي: ليس عليك توفيقهم إلى الإيمان وإلى الطاعة، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]؛ عليك الدعوة وعلينا التوفيق.

فقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ هو من هذا الباب في الهداية، أي: يوفِّق إليه ﴿مَنْ أَنَابَ﴾.

QaradawiBooks.com

وأناب: أي رجع، فهناك من شَرَد عن الله، وهناك من رجع إلى الله.. مَنْ عَرَف الحق فرجع إليه.

والإنابة مطلوبة من الجميع: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزُّمَر: ٥٤]، وكما قال تعالى على لسان شعيب: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨، والشورى: ١٠]، وكما قال أيضًا: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١].

لمن تكون هداية الله؟

﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴾: من أناب بقلبه إلى الله، ومن تحرَّى الهدى وطلبه، هداه الله ﷻ، فالله قد أتاح فرصة الاهتداء لكل المُكلَّفين، وباب الهداية مفتوح على مصراعيه، فَمَن طلب الهُدى وجده، ومَنْ أعرض عنه فلن يجده، كما تقول: من قبل هديتي أَهديتُ له، ومن رغب عني لم أرغب فيه، ومَنْ أعرض عني لم أُقبل عليه، فاللهُ ﷻ يمنح هدايته لمن تعرَّض لها، أمَّا من أغلق عقله وقلبه وجعل بينه وبين الهداية حجابًا وحجابًا كما قال المعاندون لرسول الله ﷺ: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فُصِّلَت: ٥] فكيف يهتدي هؤلاء؟! لا يمكن أن يهتدوا؛ لأنَّ الله يهدي إليه منْ أناب.

﴿إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴾: بعض المفسرين قالوا: ﴿إِلَيۡهِ ﴾ أي: إلى الحق، وبعضهم قال: إلى الإسلام، ولم يذكر الحق هنا ولا الإسلام، وإنَّما أخذوه من المقام، ولكنّ الظاهر أنَّ ﴿إِلَيۡهِ ﴾ هنا ترجع إلى الله ﷻ، فاللهُ يهدي إليه، أي: إلى صراطه ومنهجه ودينه: من أناب إليه.

QaradawiBooks.com

وفي آيات أخرى: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

والإنابة هي الرجوع مرَّة بعد مرَّة، فمن رجع إلى الله وأناب المرّة بعد المرّة، والكرَّة بعد الكرَّة، ولم يشرد من ربِّه ﷻ، بل يأوي إليه دائمًا، يستحقُّ الهداية. ومن ذلك صفة المنيب: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [سبأ: ٩]، ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [ق: ٨]، ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣] أي: الَّذي يرجع مرَّة بعد مرَّة.

من هم الَّذين أنابوا إلى الله؟

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾: هذا وصف لمن أناب، كأنَّ سائلًا سأل: مَنْ هذا المنيب؟ أو ما هذا الصنف؟ ومن هم أهل الإنابة؟ فكان الجواب: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾. ولم يذكر هنا المؤْمَن به، فبماذا آمنوا؟ لأنَّ هذا الاسم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أصبح عَلَمًا على صنف من النَّاس تميَّز عن غيره، وأصبح معروفًا معلومًا بغاياته الواضحة، ومنهجه المُحدَّد، وطريقه المستقيم، تلك الفئة أصبحت عَلَمًا.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ومقابلهم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وفي الآيات الَّتي مرَّت بنا: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. لم يذكر لنا المكفور به أيضًا: أكفروا بالله؟ أم كفروا بملائكته؟ أم كفروا بكتبه؟ أم برسله؟ أم باليوم الآخر؟ لأنَّ هذه الفئة أصبحت معروفة أيضًا تتميَّز بالكفر والجُحود بغضِّ النظر عن الشيء الَّذي كفروا به، وأصبح الكفر عَلَمًا مميزًا لهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: ظهرت هذه الفئة بظهور الإسلام، وتحقَّق لهم وصف الإيمان بغضِّ النظر عمَّا آمنوا به ما هو؟ ولذا تكرَّرت هذه الكلمة في القرآن الكريم كلِّه نحو مائتين وستين مرَّة، وقد يُعطف عليها أحيانًا:

QaradawiBooks.com

﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وأحيانًا لا يعطف عليها، وهذا في أكثر من مائتي موضع، والإيمان هنا يتضمَّن العمل، ولا داعي لأن ندخل فيما دخل فيه المتكلمون من مجادلات حول الإيمان وعلاقته بالعمل، وهل العمل جزء من الإيمان أو الإيمان شرط للعمل؟ أو العمل مُكمِّل للإيمان؟ لا داعي لذلك، لأنَّ الإيمان القرآني يتضمَّن العمل، فلا إيمان بغير عمل، ومن هنا نجد أنَّ القرآن حينما يتحَدَّث عن المؤمنين يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

ويقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٥].

ويقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحُجرات: ١٥].

وإذن فالإيمان القرآني يتضمَّن العمل، والقرآن يَتجسَّد في أخلاق وأعمال، فإذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني إيمانًا يُثمر عملًا صالحًا، وخُلُقًا فاضلًا، وعِلمًا نافعًا، وينشئ واقعًا في حياةِ صاحبه، فهذا هو الإيمان الحق.

اطمئنان القلوب بذكر الله:

﴿ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: وأبرز ما يميِّز الَّذين آمنوا: أنَّهم تطمئن قلوبهم بذكر الله، ونلاحظ تغيير الصيغة من الماضي في ﴿ءَامَنُواْ﴾

QaradawiBooks.com

إلى المضارع في ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ بدلًا من أن يقول: واطمأنت؛ ليفيد التَّجَدُّد أي: إنَّ هذا الاطمئنان يتجدَّد دائمًا وباستمرار معهم.

والإنسان ليس هو هذا الجسد وهذا الغلاف، وإنَّما حقيقة الإنسان هي تلك الجوهرة الربَّانيَّة واللطيفة الروحانيَّة، الَّتي تسكن بناء الجسد، والتي جاء فيها الحديث: «**ألا إنَّ في الجسد مُضْغة إذا صَلَحت صَلَح الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسد كلُّه، ألا وهي القلب**»[1].

القلب ذلك الكائن الواعي الداخلي. والإنسان يسعد أو يشقى، ويصلح أو يفسد بهذا القلب، ولذلك كان هؤلاء المؤمنون مُطمئنةً قلوبهم بذكر الله، فهي غير مضطربة، ولا قلقة ولا ممزَّقة بين الغايات المختلفة، والمناهج المتباينة، وغير شاكَّة وغير مرتابة.

المراد بذكر الله في الآية:

﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: أيًّا كان تفسير هذا الذكر، وسواء كان بالتَّسبيح والتَّهليل، والتَّحميد والتَّكبير، وتلاوة القرآن والدعاء والاستغفار، أم كان بالسماع، فقلوبهم مطمئنةٌ بهذا الذكر، يجدون فيه أُنْسًا عند الوحشة، ويجدون فيه طُمأنينة عند القلق، وأمنًا عند الخوف، ومَلَاذًا عند الشدَّة، وفَرَجًا عند الكربة، كما وجدنا أيوب عندما مسَّه المرض والضُّر: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

وكما وجدنا ذا النون حينما التقَمَه الحوت، وأطبقت عليه الظلمات: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، لم ينْسَ ذكر الله:

(١) متَّفق عليه: البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير.

QaradawiBooks.com

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وكما وجدنا موسى عليه السلام حينما خرج مُهاجرًا وتوجَّه تلقاء مَدْين، وعاش في هذه الغربة وحيدًا غريبًا قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤].

وفتية أهل الكهف حينما وقفوا تجاه قومهم وهم يعبدون الأصنام؛ فلجؤوا إلى الله وقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: ١٠] فهذا هو الذكر الَّذي تَطْمئنُّ به القلوب.

ذِكْرُ الله أن يذكرَ الإنسانُ ربَّه ويدعوه ويناجيه ويناديه في ساعة الكُربة والمحنة كما نادى نوح: ﴿ وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات: ٧٥]، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۞ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۞ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا ﴾ [القمر: ١٠ ـ ١٢].

والمؤمن إذا ذكر الله تعالى اطْمأنَّ قلبه مهما ألمَّت به الخطوب، وادْلهمّت من حوله الكروب، وأحاطت به الشدائد والظلمات.

وهذا الَّذي ذكرنا، اتجاه في تفسير «ذكر الله» عز وجل في الآية، وهناك اتجاه آخر في تفسير ذكره بمعنى ذكر وعده سبحانه وتعالى للمؤمنين بالعزِّ والتَّمكين والحياة الطيبة في الدنيا: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

QaradawiBooks.com

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

فيذكر المؤمن هذا كله فيطمئنّ قلبه بوعد الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩، والرعد: ٣١].

والمعنى: أنَّهم يطمئنون بذكر الله تعالى لهم، ووعده إيَّاهم بالنصر والتمكين.

أو بمعنى ذكر آلاء الله وآياته ﷻ في الأنفس والآفاق، ودلائل وحدانيَّته وقدرته ورحمته، فإذا ذكر هذا أيضًا اطمأنَّ قلبه بالإيمان، وازداد يقينه.

أو أنَّ ذكر الله في الآية هو القرآن الكريم، فالقرآن ذكر، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجر: ٩].

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

فالقرآن ذكر الله ﷻ، يُذكِّر بالله في كلِّ آية من آياته، وبه تطمئنُّ القلوب، فلا تحتاج إلى آية أخرى غير هذا القرآن، كهؤلاء الَّذين يطلبون آيات غير هذه الآية العظمى، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

وقد اختار بعض المفسِّرين هذا الوجه، وقال: هو أحسن الوجوه[١]؛ لأنَّ الموضع يتعلَّق بالقرآن، وبالحديث عن القرآن، وباقتراح آية أخرى غير القرآن، وكأنَّه يقول: المؤمنون لا يطلبون شيئًا آخر، بل قلوبهم مطمئنة بهذا الكتاب، وهو وحده آية، أيُّ آية، ومعجرة أيُّ معجزة، فلا يطلبون بعدها المزيد.

ولا مانع أن يشمل ذكر الله في الآية هذه المعاني كلها، فالمؤمنون قلوبهم مطمئنةٌ بهذا كلِّه، فلا يعتريها رَيْب، ولا يطْرأ عليها قلق، ولكنَّها ساكنة مطمئنة.

والطمأنينة معناها السكون، وأصلها في الحسِّيَّات، كاطمئنان الأرض، ثم نُقل إلى المعنويات.

السعادة الحقَّة في طمأنينة القلوب بالإيمان:

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾

﴿أَلَا﴾ أداة استفتاح لتأكيد الجملة والتنبيه على مضمونها، وعلماء البلاغة يقولون: قدَّم ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ للدلالة على أنَّه ليس بذكر غيره، بل بذكر الله وحدَه، والإنسانُ إذا جمع ما شاء من مال، وارتقى ما شاء من مناصب، وأنْجب ما شاء من بنين، وهيَّأ ما شاء من أنعام وحَرْث، من زينة الحياة الدنيا، فلن يمنحه هذا كله طمأنينة القلب.

وأصحاب الملايين والبلايين كُثُر، ولكنهم قلِقون، وهذا ما نراه عند كثير من المرتابين والشُّكَّاك والملاحدة، أنَّهم لا يشعرون بطمأنينة القلوب مع ما هم فيه من مال وبنين، ونَعمة كانوا فيها فاكهين، فكثيرًا

(١) تفسير الرازي (٢٨٥/١٧).

QaradawiBooks.com

ما تكـــون الأمـــوال والأولاد أداة تعذيب لهم كما قـــال الله تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [التوبة: ٥٥].

فالمسألة إذن ليســت مســألة مال ولا أولاد، ولا أنعام ولا حَرْث، ولا قناطير مُقنطرة من الذهب والفضة، فالسعادةُ إنَّما تنْبع من الطمأنينة، والطمأنينة تنْبع من الداخل لا من الخارج.. من القلب.

حال الحضارة المادية المعاصرة:

ولذا نجد أهل الحضارة المادية المعاصرة الَّذين استطاعوا أن يُحلِّقوا في الهواء كالطيور، وأن يغوصوا في البحار كالحيتان، وأن يمشـــوا فوق الأرض كالشياطين، لم يسعدوا في حياتهم الدنيا، ومن هنا نراهم يُسمُّون الحضارة المعاصـــرة: «حضارة القلق»، ويســـمُّون عصرنـــا هذا: «عصر القلق»، ولذلك تكثر الأمراض النفســـيَّة. والعيادات النفسيَّة في أمريكا تعدُّ بالآلاف؛ بل بعشـــرات الآلاف، والناس يشـــكون من العقد، ومن الاضطرابات العصبيَّة والنفسيَّة، ومن الضِّيق بالحياة، فالحياةُ لا طَعْمَ لها ولا معنى عندهم، ولم تُســـعدهم معطيات الحضارة المادية الهائلة الَّتي بلغت بأحدهم أن يضع يده تحـــت صنبور المياه فينزل الماء تلقائيًّا دون أن يُحرِّك له ساكنًا.

وقد كتب صَحَفيٌّ ذات مرَّة عن أهل الســـويد والنرويج والدانمارك، تلك البلاد ذات الدَّخل المرتفـــع جدًّا للأفراد، إلـــى جانب الضمانات الهائلة في حالة المرض، وفي حالة الشيخوخة، وفي حالة الولادة، وفي حالة الإصابة في العمل، وفي حالات العجـــز والتعطُّل الإجباريّ، أنَّهم ليسوا سعداء، وأنَّ من اليســـير على أحدهم أن يلقي بنفسه من الطوابق

QaradawiBooks.com

العليا، أو أن يشرب السُّمَّ، أو أن يضرب نفسه بالرصاص، فهذه البلاد ذات نسبة عالية ـ بل من أعلى النِّسب ـ في حالات الانتحار؛ وما ذلك إلَّا لأنَّهم محرومون من الطمأنينة، فالطمأنينةُ إنَّما تأتي بذكر الله، وهؤلاء لا يذكرون الله؛ بل يعيشون في بُعْدٍ عن الله، كما يقول أحد أبناء هذه الحضارة «ليوبولد فايس» الَّذي اهتدى إلى الإسلام وسمَّى نفسه محمد أسد؛ يقول في كتابه: «الإسلام على مفترق الطرق»: إنَّ الحضارة الحالية وإن لم تجحد الله البتة ـ يعني جُحُودًا صريحًا قاطعًا ـ لا تجد لله معنًى ولا فائدة في نظامها الفكري الحالي[1].

السعادة والطمأنينة بذكر الله:

وقد كنتُ في إيطاليا في شهر ديسمبر الماضي ـ ١٩٩٢م ـ في مؤتمر من مؤتمرات المسلمين الَّتي تُعْقد أثناء ما يُسمُّونه «الكريسماس» واحتفالات المسيحيِّين به، ويعقدها الشباب الإسلامي هناك، وحَدَّثنا أحد الإخوة في ميلانو من الَّذين أسلموا في إيطاليا عن كيفيَّة اهتدائه للإسلام، فقال: إنَّه وجد بائعًا مغربيًّا يتجوَّل ليبيع السلع، فسأله وهو يرتعش من البرد: ما الَّذي أوقفك في هذا البرد؟ فقال الرجل: أبحث عن رزقي، فسأله: وهل تكسب شيئًا؟ قال الرجل: أكسب ولله الحمد كذا وكذا ليرة، فآخذ بعضها لنفسي، وأرسل بعضها الآخر لأهلي، فسأله: ومِن هذا المبلغ الصغير ترسل إلى أهلك؟! قال الرجل: نعم، فالله تعالى أوصانا بالوالدين والأرحام، ورضى الوالدين مِنْ رضى الله، وغضبُ الوالدين مِنْ غضب الله، فسأل: وهل أنتَ راضٍ بهذا؟ قال الرجل: الحمد لله، فما يأتي به الله خير، فاستغرب السائل أحوال الرجل في هذا البرد

(١) انظر: الإسلام على مفترق الطرق لمحمد أسد صـ ٣٩، نشر دار العلم للملايين.

QaradawiBooks.com

الشديد، وهو يسعى ويرضى، وعندئذ سأل مرَّة أخرى: ومن الَّذي علَّمك هذا؟ فقال الرجل: تعلَّمتُ هذا من ديني، أن نرضى بما قسم الله لنا.

فسأل: وكيف أعرف دينكم؟ فقال الرجل: أدلُّك على المسجد، ويقول السائل: إنَّ هذا الرجل ما دخل مسجدًا في حياته قط، فدخل معي لأوَّل مرَّة، فأسلم السائل، واهتدى هذا الرجل، وصَلُحَ حالُه، وما ذاك إلَّا بالرضى والطمأنينة وحَمْد الله وذكره.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾: هذه السعادة الَّتي في ذكر الله والطمأنينة عبَّر عنها بعض الصالحين قديمًا، فقال ـ على شظف عيشه ـ: «إنَّنا نعيش في سعادةٍ لو علم بها الملوكُ لجالدونا عليها بالسيوف»[1].

تلك هي السعادة، سعادة الروح والقلب، مَنْ عرفها وعاشها تمتَّع بها، ومن لم يعرف قيمتها من الملوك والحكَّام وغيرهم لم يجد متعتها، ولو أنَّهم عرفوها لقاتلوا عليها بالسيوف.

ثواب المؤمنين في الدنيا قبل الآخرة:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾:

الَّذين آمنوا يثيبهم الله في الحياة الدنيا قبل الآخرة، فأما ثوابهم في الدنيا فهو هذه الطمأنينة الَّتي هي سرّ الحياة الطيبة:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٧٠/٧)، عن إبراهيم بن أدهم.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأمَّا ثوابهم في الآخرة فهو ما عبَّرت عنه تلك الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾.

غير مرخصة للطباعة

اقتران الإيمان بالعمل في القرآن:

و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تتضمن العمل، والقرآن يذكر العمل أحيانًا مقرونًا بالإيمان، وأحيانًا أخرى لا يذكره، فإذا لم يذكره فهو متضمِّن في حقيقة الإيمان، وإذا ذكره فهو يدلُّ على أنَّ الإيمان لا بدَّ معه من عمل، كما جاء عن بعض السلف: «ليس الإيمانُ بالتمنِّي ولا بالتَّحلِّي، ولكن ما وقر في القلب، وصدَّقه العمل»[1]. وهذا ليس حديثًا، ولكنَّه من كلام بعض السلف، وهو كلام صحيح.

ما المراد بعمل الصالحات؟

لا إيمان بغير عمل. ولكن أيُّ عمل؟

العمل الَّذي يثمره الإيمان الحق هو ما عبَّر عنه القرآن بـ «عمل الصالحات»، وهذه كلمة قرآنية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تكرَّرت في القرآن بضعًا وخمسين مرَّة، و«الصَّالحات» وصف للأعمال، فهناك أعمال فاسدات، وهناك أعمال صالحات، والصَّالحات هي ما يصلح به الفرد، وتصلح به المجتمعات، وتصلح بها الحياة، يستوي في ذلك كون هذه الأعمال دينيَّة محضة، مثل: إقامة الشعائر من الصلاة والصيام، والحج والعمرة، والتلاوة والذكر، وكونها دنيويَّة فهي تدخل في الصَّالحات أيضًا؛ لأنَّ عمارة الأرض من العمل الصالح، أن يزرع المسلم الزرع، ويغرس الغرس، ويقيم الصنعة، وقد قال النبي ﷺ:

(١) رواه ابن أبي شيبة في الإيمان والرؤيا (٣٠٩٨٨)، من قول الحسن البصري.

QaradawiBooks.com

«ما من مسلمٍ يزرع زرعًا، أو يغرس غرسًا، فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمة، إلَّا كان له به صدقة»[(١)].

وقال: **«ما أكل أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكل من عملِ يَدِه، وإنَّ نبيَّ الله داود كان يأكلُ مِنْ عَمَلِ يَدِه»**[(٢)]. فقد كان داود عليه السلام حدَّادًا يعمل في صناعة الدُّروع: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ١١].

كان داود يعمل ويتقن عمله، ويذكر الله سبحانه وتعالى، فتتجاوب معه الطبيعة من حوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٩].

فَعَملُ الصَّالحات إذن ليس العمل الدِّيني فقط، ولكن العمل الدنيويّ أيضًا، وهذا ممَّا جاء به الإسلام، فكلُّ ما يُقدِّم نفعًا للناس وخدمةً لهم، ولو كان إماطة الأذى عن الطريق، ولو كان كلمة طيِّبة، وفي الحديث: **«كلُّ سُلَامى من النَّاس عليه صدقةٌ كلَّ يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابَّته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعَه صدقةٌ، والكلمة الطيِّبة صدقةٌ، وكلُّ خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويُمِيطُ الأذى عن الطريق صدقة»**[(٣)].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المزارعة (٢٣٢٠)، ومسلم في المساقاة (١٥٥٣)، عن أنس بن مالك.

(٢) سبق تخريجه صـ٤٩.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٨٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وحتى العمل للمعاش، إذا قصدت به وجه الله، وصحَّت نيَّتك، كأن تريد أن تعفَّ نفسك، وأن تُغنيَ أهلك، وأن تنفع مجتمعك، وأن تُقوِّي أمتك، يصبح بذلك عبادة.

بل أكثر من ذلك أنَّ بعض الأعمال الغريزيَّة إذا عملها الإنسان وصَحَّت فيها نيّته، يمكن أن تكون عبادةً أو عملًا صالحًا يتقرَّب به إلى الله ﷻ[1] كما جاء في الحديث الصحيح: «**وفي بُضْع أحدِكم صدقة**»، قالوا: يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أليس إذا وضعها في حرامٍ كان عليه وِزْر؟ فكذلك إذا وَضَعها في حلالٍ كان له أجر، أتحتسبون الشَّرَّ ولا تحتسبون الخير؟**»[2].

ومجال الصَّالحات في الإسلام مجال رحْبٌ فسيحٌ، يستطيع الإنسان أن يستكثر منه، وأن يضيفَ إلى رصيده الكثير والكثير، في كل يوم وفي كل ساعة، فهو يشمل الصَّلاح الديني والصَّلاح الدنيوي.

شروط الأعمال الصَّالحة الدينيَّة والدنيويَّة:

والأعمال الصَّالحة الدينيَّة لها شرطان:

الشرط الأول: أن يتوافر فيها الإخلاص لله ﷻ.

الشرط الثاني: أن تقع على منهج الشرع، على سُنَّة رسول الله ﷺ، ولذلك حينما سُئل أبو علي الفضيل بن عياض رحمه الله عن قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧، والمُلك: ٢]: ما أحسن العمل؟

---

(١) انظر كتابنا: العبادة في الإسلام صـ ٤٣ وما بعدها، فصل: مجالات العبادة في الإسلام، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢٩، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، وأحمد (٢١٤٧٣)، عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

قال: أحسن العمل أخلصُهُ. قيل: ما أخلصُهُ؟ قال: «إنَّ الله تعالى لا يقبل العمل ما لم يكن خالصًا صوابًا، فإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، وإنَّما يُقبل إذا كان خالصًا صوابًا، وخلوصه: أن يكون لله، وصوابه: أن يكون على السُّنَّة»[١]، أي: على منهج الشرع.

وكذلك الأعمال الدنيويَّة الصَّالحة يطلب فيها أمران:

الأول: أن تكون على منهج الشرع، بحيث لا تكون مخالفة لأمر الله، فلا تكون حَرامًا، ولا تتعدَّى حدود الله، وما يتبع ذلك من غش وتطفيف واحتكار، وأكلٍ لأموال النَّاس بالباطل، في التجارة مثلًا وفي غيرها.

الثاني: أن تصحَّ فيها النيَّة، ولو كانت النيَّة أن يعفَّ الإنسانُ نفسه عن أن يمدّ يدَه للغير، وأن يساهم في خدمة أمَّته، فبهذا يصبح العمل صالحًا.

تحقيق معنى كلمة «طوبى»:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾

«طوبى» فُعْلَى من الطِّيب، كزُلْفَى وحُسنَى، ومعناها: الحياة المستطابة، ولذلك جاء عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: طُوبى بمعنى فرح وقرة عين[٢]، وجاء عن قتادة والضحَّاك وعكرمة وغيرهم ألفاظ مشابهة[٣]، فبعضهم يقول: طوبى لهم، أي: حُسنى لهم، وبعضهم يقول: أي: خير

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٩٥/٨).
(٢) رواه ابن جرير (٤٣٥/١٦).
(٣) تفسير القرطبي (٣١٦/٩)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

QaradawiBooks.com

لهم، وبعضهم يقول: غبطة لهم، وبعضهم يقول: نُعمى لهم، وغير ذلك ممَّا قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: إنَّه اختلاف تنوُّع وليس اختلافَ تضادٍّ[١]، فكل مُفسِّر يذكر نوعًا من الطيب؛ مثل ما يقولون في «الصِّراط المستقيم»: إنَّه الإسلام، أو القرآن، أو اتِّباع السُّنَّة النبويَّة، أو سنة الراشدين، فهذا ليس اختلاف تضادٍّ وإنَّما هو اختلاف تنوُّع.

وهناك من يقول: إنَّ طوبى هي الجنَّة، أو هي من أسماء الجنَّة باللغة الحبشيَّة، أو هي البستان باللغة الهنديَّة، وهذا معناه أنَّها منقولة من بعض اللغات السامية أو من بعض اللغات الآرية، ويستدلون على أنَّ «طوبى» هي الجنَّة ببعض الأحاديث الَّتي وردت أن طوبى هي الجنَّة، أو شجرة في الجنَّة، يسير الراكب في ظلها مائة عام أو نحو ذلك[٢].

والذي أرجِّحهُ أنَّ طُوبى هي فُعلى من الطِّيب، أي: الحياة الطيِّبة المُسْتطابة، الَّتي فيها الخير والسعادة، وكلُّ ما يشتهيه الإنسان، ومنها الجنَّة؛ لأنَّ الحياة الطيِّبة إنَّما تكمل في الجنَّة الَّتي فيها «**ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[٣]، وهذا الترجيح مع ورود بعض الأحاديث مقطوعًا عن بعض التابعين[٤]، وورود بعضها موقوفًا عن ابن عبَّاس وأبي هُرَيرة[٥]، وورود بعضها مرفوعًا[٦]، لأنَّ الأحاديث

(١) مجموع الفتاوى (٣٣٣/١٣).
(٢) سبقت الإشارة إلى هذه الأحاديث والكلام عليها صـ٣٥.
(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة (٢٨٢٤)، عن أبي هريرة.
(٤) منهم: مغيث بن سمي، رواه ابن أبي شيبة في الجنة (٣٥٠٩٩). وأبو صالح السمان، رواه ابن أبي شيبة في الجنة (٣٥١٠١).
(٥) رواه ابن جرير (٤٣٧/١٦).
(٦) سبق تخريجه صـ٣٥.

QaradawiBooks.com

المرفوعة لا تخلو من كلام في سـندها، فبعضها فيه شهر بن حوشب[١]، وبعضها فيه ابن لَهِيعة[٢]، وبعضها فيه درَّاج القصَّاص المعروف[٣]، وعلى ذلك فهي غير ثابتة ثبوتًا يطمئنُّ إليه القلب.

ومن هنا فأنا أرى أنَّ «طوبى» هي كلمة عربيَّة، وليست مستعارة من لغة أخرى، وليست عَلَمًا على الجنَّة أو شجرة فيها، وهي مقابل «وَيْل»، وقد استعملها العرب قبل الإسلام في بعض أشعارهم، كما استعملوا كلمة «ويل» الَّتي وردت في أحاديث بعض القصَّاصين أنَّها «وادٍ في جهنَّم»[٤]، ولكن هذا لم يصح، والذي ثبت في الصحيحين: «**إنَّ في الجنَّة شجرةً يسير الراكب في ظلِّها مائة عام**»[٥]. وفسَّر بهذا قول الله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]، ولكن هذا شيء، وأن تكون «طوبى» هي تلك الشجرة شيء آخر.

﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾: حُسْنُ مآب، أي: حُسْن مَرْجِع ومُنقلَب فسينقلبون إلى الخير كل الخير، وإلى السعادة كل السعادة، وإذا كان بعض النَّاس ينتظرون شرَّ منقلب كما توعّدَ الله الظالمين، فقال:

---

(١) وثقه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل، وقال النسائي وغيره: ليس بالقوي. انظر: المغني في الضعفاء للذهبي (٤٣٠/١، ٤٣١)، نشر إحياء التراث، قطر.

(٢) قال الإمام البخاري عن عبد الله بن لهيعة قاضي مصر: «الحميدي عَنْ يَحْيَى بن سعيد: كان لا يراه شيئًا» وكثر في ابن لهيعة الكلام. التاريخ الكبير (١٨٢/٥)، نشر دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند.

(٣) دراج أبو السمح: وثقه ابن معين، وتركه الدارقطني، وقال أحمد وغيره: أحاديثه مناكير. المغني في الضعفاء للذهبي (٣٢٤/١).

(٤) سبق تخريجه صـ٣٥.

(٥) متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٢)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٦)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] فإنَّ هؤلاء منقلبهم إلى الخير، ومآبُهُم إلى الله يتولاهم برحمته، ويكافئهم بمثوبته، ويجزيهم بفضله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٤٥].

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تسلية الرسول عن موقف الكفار وعنادهم في طلب الآيات

﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ۞ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۞ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٠ ـ ٣٢]

يقول الله تعالى مُسلِّيًا رسولَه ﷺ، عن موقف الَّذين كفروا وعِنادهم وتَعنُّتهم في طلب الآيات: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾: كهذا الإرسالِ البديعِ الأمر، البعيد الشأن.

والمفسِّرون أحيانًا يقولون في ﴿كَذَٰلِكَ﴾: إنَّ فيها تشبيهًا مضمَّنًا، والبعض يقول: بل يقصد بها التأكيد وتثبيت ما بعدها، وليس من الضروري تشبيهُ شيء بشيء، وأنا أميل إلى الرأي الثاني، فكأنَّه يقول: الأمر كذلك: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ﴾، ولم يقل إلى أمة؛ لتكون الأمة وعاءً للرسالة، وليشير إلى أنَّ الرسول في هذه الأمة ومنها وليس طارئًا عليها.

القرآن وحيُ الله ﷻ:

﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ﴾: ليست بِدْعًا من الأمم، وليست أوَّل الأمم، فقد سبقتْها أممٌ كثيرة.

QaradawiBooks.com

وفي القرآن: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] أي: ليس أوَّل الرسل، فقد سبقَه رسلٌ كثيرون، وقد أرسلناك في هذه الأمَّة لمهمة، وهي أن تتلوَ عليهم الَّذي أوحينا إليك.. أن تقرأ عليهم القرآن.

ولم يقل: القرآن، ولكن قال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ليدلَّ على أنَّ هذا القرآن ليس من عند محمد ﷺ، وليس لمحمد فيه إلَّا التَّلقِّي، ولكن القرآن كلمات الله ﷻ الَّتي أوحاها إلى محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، وهذا الَّذي أوْحَيْنا إليك هو الحقُّ الَّذي لا ريب فيه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر: ٣١].

هو روحٌ يُحيي، ونورٌ يَهدي، روحٌ يُحيي القلوب، ونور يهدي العقول، كما قال الله تعالى في ختام سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فهذا هو الَّذي أوْحَينا إليك.

والإيحاءُ هو الإعلام بسُرعة وخَفَاء، وقد يكون عن طريق الإلهام في اليقظة وهو نَفْثُ الرُّوع كما في الحديث: «**إنَّ رُوحَ القُدُس نَفَثَ في رُوعي...**»[(١)]، وقد يكون عن طريق الرؤيا الصَّادقة في المنام، وقد يكون عن طريق التَّكليم المباشر كما كلَّم الله موسى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقد يكون عن طريق نزول مَلَك الوحي، والقرآنُ

(١) رواه الطبراني (١٦٦/٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٦/١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٢٩٣): رواه الطبراني، وفيه عفير بن معدان، وهو ضعيف. عن أبي أمامة الباهلي.

QaradawiBooks.com

الكريم كلُّه أُوحِيَ إلى محمد ﷺ عن طريق الرُّوح الأمين: مَلَك الوحي، وهو ما يُسمِّيه العلماء الوحيُ الجليّ، أمَّا باقي الأنواع السابقة فتُسمَّى الوحيَ الخفيَّ.

تلاوة آيات الله من مهمة الرسول:

وتلاوة آيات الله ووحيِ الله على النَّاس من مُهمَّات الرسول ﷺ الأُولى. كما قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧].

وكما قال: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال أيضًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فتلاوة الآيات وإبلاغ النَّاس رسالات الله المضمَّنة في هذه الكلمات، كلمات الله الأخيرة للبشريَّة، والتي فيها صلاحُهم في معاشِهم وفي معادِهم، وتضمن لهم الحسنتين: حسنة الدنيا وحسنة الآخرة هي مهمَّة الرسول ﷺ، وسواء أكانت هذه التلاوة لأوامر ونواهي كما قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ...﴾ [الأنعام: ١٥١]، وهي الوصايا العشر في أواخر سورة الأنعام، أو كانت تلاوةً لقصص الأنبياء والصَّالحين السابقين، وقصص مَنْ مضى مِن النَّاس بما فيها من عبرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ [المائدة: ٢٧].

QaradawiBooks.com

وكما قال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١].

وكما قال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] فجميعُ هذا من التلاوة؛ ليعتبروا بقصص القرآن، وليمتثلوا ما أمر الله به، ولينتهوا عمَّا نهى الله عنه، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

كفر المشركين بالرحمن:

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾: والحال أنَّهم يكفرون بالرحمن، قابلوا النِّعمةَ بالكفر، نعمَةَ الإرسال: إرسالَ الرسول، ونِعمةَ الإنزال: إنزال القرآن، فخير مُنزَّل هو القرآن، وخير مُرْسَل هو محمَّد ﷺ، ومع هذا كفروا بخير نبيٍّ أُرسل، وكفروا بخير كتاب أُنزل؛ بل كفروا بالمُرْسِل والمُنزِل وهو الله ﷻ.

وقد وَرَدَ اسم «الرحمن» في سياق كفرهم: ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهذا يسمِّيه علماء البلاغة التفاتًا، فقد كان مقتضى السياق أن يقول: «لتتلو عليهم الَّذي أوحينا إليك وهم يكفرون بنا»، ولكنَّه وضع الظاهر مكان المضمر، واختار اسم «الرحمن» أي: الَّذي وَسِعَت كلَّ شيء رحمتُه، وغَمَرت كلَّ مخلوق نعمتُه، فيكفرون به، وبدل أن يقابلوا النعمة بالشكر، قابلوها بالكفر والنكران، وقابلوا الإحسان بالإساءة.

﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾: ماذا تصنع أمام هؤلاء الَّذين قابلوا نعمة الإرسال والإنزال بالجحود والكفران؟

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ ليتباين الموقفان: موقف هؤلاء الكفرة، وموقف رسول الله ﷺ.

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾: خالقي ومالكي ومُتولِّي أمري، وراعي شؤوني، ومُبَلِّغي درجات الكمال، الَّذي يُرَقِّيني في درجات الكمال شيئًا فشيئًا، ودرجةً فدرجة، وما دام هو ربِّي ولا ربَّ غيره، فكلُّ الأرباب من دونه زائفة، والَّذين اتَّخذوا أربابًا من دون الله، كالأنهار والجبال، والشمس والقمر والكواكب، والحيوانات النافعة كالبقر، وبعض مظاهر الطبيعة، والَّذين عبدوا البشر، والَّذين عبدوا الحجر.. هذا كلُّه زَيْف، فليس هناك إلَّا ربٌّ واحدٌ، وبالتالي فليس هناك إلَّا إلٰهٌ واحدٌ، معبودٌ واحدٌ.. هو الله!

ترتُّب توحيد الإلٰهيَّة على توحيد الربوبيَّة:

وتوحيد الإلٰهيَّة مُترتِّب على توحيد الربوبيَّة، فما دام هو الرب الَّذي لا مالك غيره، ولا رازق غيره، ولا نافع ولا ضارّ غيره، ولا مُحيي ولا مُميت غيره: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، إذن فلا إلٰهَ غيره ولا يُعبد سواه.

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: وما دام هو الرب الَّذي لا إلٰه إلَّا هو الَّذي ثبتت له الربوبيَّة وحده والألوهية له وحده، فلا يجوز أن يُتوكّل على غيره، ولهذا فتوكل عليه: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

التوكل على الله وحده دون سواه:

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: وكَلت أمري إليه، وجَعلتُ اعتمادي كلَّه عليه. وعلماء البلاغة يقولون: إنَّ تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيْهِ﴾ يفيد الاختصاص

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

أو الحصر، أي: عليه لا على أحدٍ غيره، وكيف يتوكَّل الإنسان على أحد غير الله؟! أيتوكَّل على ضعيف مثله؟! وَفَانٍ كما يَفْنى كل شيء؟! وعاجز غير قادر، وكل الخلق ضعفاء وعاجزون، ولذلك فلا يحسن ولا يجوز ولا يُقبل ولا يتصوَّر أن يكون التوكُّل إلَّا على الله.

وهذا هو موقف رسلِ الله جميعًا أمام أقوامهم حينما يتَّحدَّونهم، فإنَّهم يعتصمون بالتوكل على الله كما قال نوح: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١].

وكما قال هود: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

وكما قال شعيب: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وهكذا حكى الله عن الرسل جميعًا أنَّهم في مواجهة أقوامهم يلجؤون إلى الله ويلوذون بحماه ﷻ.

وحين قالت الأقوام لرسلهم: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]: يريدون آياتٍ وخوارق يقترحونها عليهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١١، ١٢] فالتوكل هو مقام الأنبياء جميعًا، ولهذا أُمر النَّبيُّ بالتوكل على الله في تسع آيات من القرآن الكريم: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١، والأحزاب: ٣].

QaradawiBooks.com

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ٥٨].

إلى آخر ما جاء في القرآن.

وأحيانًا يأتي التوكُّل بصيغة أخرى، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزَّمل: ٩] أي: اجْعله يقوم بشؤونك، وكِلْ أمرك إليه يُدبِّره كيف يشاء، فهذا هو التوكُّل[١].

المتابُ إلى الله وحده:

﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾

﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أي: إليه رجوعي، ومَرجعي إليه، سواءٌ كان هذا الرجوع حسيًّا؛ أي: معادي إليه يوم القيامة، ومصير الخلق كلهم إلى الله ﷻ، أو كان هذا الرجوع معنويًّا بمعنى التوبة، فمتابِ أي: توبتي ورجوعي. كما قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد: ١٩].

ولكن مِمَّ يتوبُ عليه الصَّلاة والسلام؟ هذا مقام آخر كما قال ﷺ: «**يا أيُّها النَّاس، تُوبوا إلى الله فإنِّي أتوب إليه في اليوم مائة مرَّة**»[٢]. أتوب إليه وأرجع لأشعر دائمًا بأنِّي مُقصِّر في حقِّه دائمًا، وما تَتَطلَّبه نِعمهُ عليَّ ممَّا اعتقد أنني لم أفِ بحقِّه[٣]، ولذلك حينما قالت له عائشة رضي الله عنها: هَوِّن عليك يا رسول الله، فقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر، قال: «**يا عائشة، أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**»[٤].

---

(١) راجع كتابنا: التوكل، وهو الكتاب الثالث من سلسلة تيسير فقه السلوك.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢)، وأحمد (١٨٢٩١)، عن الأغر بن يسار المزني.

(٣) راجع كتابنا: التوبة إلى الله، وهو الكتاب الرابع من سلسلة تيسير فقه السلوك.

(٤) متَّفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٣٧)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٨٢٠).

QaradawiBooks.com

وكلمة «متاب» تقوم مقام الإنابة في بعض الآيات، كما جاء على لسان سيِّدنا شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

قال ابن القيِّم: «التوكُّل نصفُ الدِّين، والنصف الثاني: الإنابة، فإنَّ الدِّين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة. ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها»[1].

ويجمعها قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فهذه خلاصة الدين: التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة، والاستعانة؛ فلا يُعبد إلَّا إياه، ولا يُستعان إلَّا به.

وهذان الأمران: التوكل، والإنابة أو التَّوبة، يكمل بعضها بعضًا، وهما روح الدين: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ توكلت عليه في كل الأمور وخصوصًا في نُصرتي عليكم، وإقامة حُجَّتي، وإعزاز ديني، وتمكيني في الأرض.

تعظيم شأن القرآن:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يُعقِّب على موقف هؤلاء المتعَنِّتين المُصرِّين على اقتراح آيات غير القرآن، الَّذين لم يقدروا قدْر هذا القرآن، ولم يُدركوا سرّ هذا الكتاب العظيم، فطلبوا آيات حسِّيَّة ماديَّة؛ مثل أن يُسيِّر الجبال المحيطة بمكة؛ فيتَّسع الوادي، أو أن يقطع هذه الأرض حتَّى تتفجَّر عيونًا وأنهارًا، فالوادي غير ذي زرع، وهم يريدون واديًا مثل الوديان والسُّهول الَّتي في الشام والعراق ومصر وغيرها، أو أن يُحيي الموتى بواسطة القرآن،

(١) مدارج السالكين (١١٣/٢).

QaradawiBooks.com

فيُحيي آباءهم وخصوصًا قصيَّ بن كلاب، فقد كان من زعماء القوم ومن عقلائهم؛ فيسألونه عمَّا بُعِثَ به محمَّد: أحقٌّ هو؟ وهذا ليس من شأن القرآن ولا من شأن محمَّد ﷺ: أن يُحدِثَ هذه التغييرات في الكون، ولكنهما ـ محمدًا والقرآن ـ يُحدثان تغييرات أخرى، لا في عالم المادة؛ بل في عالم النفوس والقلوب والأفكار.

فلو أنَّ قرآنًا ـ كتابًا من الكتب ـ أحدَثَ هذه التغييرات، لكان هذا القرآن. وجواب الشرط هنا: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ...﴾ تقديره: لكان هذا القرآن.

و«قرآنًا» هنا بمعنى الكتاب المقروء، فلو كان كتابًا من الكتب يُحدث مثل هذه التأثيرات، وتصحبه مثل هذه الآيات، لكان هذا القرآن؛ إذ هو أعظم كتب الله، ولأنَّ فيه من الخصائص ما ليس في كتاب آخر. قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ولكن جَرَتْ سُنَّة الله على أنَّ الكتب ليس لها مثل هذا التأثير.

والقرآنُ له تأثير غير هذا، إنَّه يُؤثِّر في العقول، ويُؤثِّر في القلوب، ويُؤثِّر في الأنفس، وينشئ الإنسان الَّذي يُسيِّر الجبال، ويُفجِّر الأرض أنهارًا، ويُغيِّر وجه الحياة، وهذا ما فعله القرآن الكريم، فقد أحدث زلزالًا في أمَّة العرب، فغيَّر ما بأنفسها، وجعل الصحابة هم خير أُمَّة أُخرِجت للناس، وجعلهم الأمة الوسط وأحيا بهم موات العقول والقلوب، فأخرجوا النَّاس من الظلمات إلى النُّور، وأنشؤوا حضارة العلم والإيمان، وأقاموا دولة العدل والإحسان، فهذه هي مهمَّة القرآن، وليست مهمته تسيير الجبال، أو تقطيع الأرض، أو إحياء الموتى.

QaradawiBooks.com

قول آخر مرجوح في تفسير الآية:

وهناك رأيٌ جدير بالذكر؛ فالرأي الَّذي ذكرناه من أن تلك الأشياء الَّتي طلبوها لو فُعلت بواسطة قرآنٍ لكان هذا القرآن، وهذا الرأيُ مبنيٌّ على تعظيم شأن القرآن الكريم، أمَّا الرأي الآخر فيقوم على التَّيئيس من أمر هؤلاء الناس، وأنَّ هذا لو حدث وسُيِّرت الجبال، وقُطِّعت الأرض، وكُلِّم الموتى لما آمنوا، ولما دخَل قلوبَهم نورُ الإيمان، ويكون هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

والرأيُ الأول هو الأرجحُ والأقربُ، لأنَّ السورة تدورُ حول محور القرآن من أوَّل آية: ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾، ويدور الكلام حول القرآن، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ لبيان من يعلم أن ما أُنزل إلى محمَّد من ربِّه الحقُّ ليس كَمَنْ هو أعمى، وصفات الَّذين يعلمون أنَّ ما أنزل إلى الرسول ﷺ هو الحقُّ وصفات خصومهم وأضدادهم، فالسورة تدور حول هذا المحور، ولذلك فالرأيُ الأول هو الرأي الأوجه والأقرب.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾: إضرابٌ عن اقتراحاتهم المتعنِّتة أن تحدث هذه الأشياء بواسطة القرآن، فليس الأمر بيد محمد عليه الصلاة والسلام، ولكن الأمر كلَّه لله كما قالت الرسل: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، وليس من شأن محمَّد أن يُجيبكم على ما تطلبونه وتقترحونه، ولكن هذا شأن صاحب الخَلْق والأمْر، إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

QaradawiBooks.com

معنى ﴿أَفَلَمْ يَأْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

﴿أَفَلَمْ يَأْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾

هنا أراد الله ﷻ أن يقول للمؤمنين: إنَّ هؤلاء المعاندين لا خير فيهم ولا أمل بهم، فهم لا يقتنعون بشيء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، لذلك يجب أن تيأسوا منهم، وأن تنفضوا أيديكم من إيمانهم؛ فلن يؤمنوا: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

﴿أَفَلَمْ يَأْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾: أفلم ييأس الَّذين آمنوا من إيمان هؤلاء المعاندين المصرين على الجحود والعناد، أفلم ييأسوا من إيمانهم؛ لعِلمهم أنْ لو يشاء الله لهَدَى النَّاس جميعًا؟!

وقوله: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ متعلِّق بمحذوف تقديره: «علمًا أن لو يشاء الله».

وبعض المفسِّرين يرى أنَّ قوله: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ متعلِّق بـ «آمنوا»، والتقدير: ﴿أَفَلَمْ يَأْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، وهم يعلمون أنَّ الله قد سبق قضاؤه وقدره، حينما خَلَقَ هذا النوع المختار من عباده الَّذي لا يشبه الملائكة؛ بل هو يختار لنفسه ويخُطّ طريقه بما شاء له الله، فقد أعطاه الإرادة والاختيار والكسب، وهداهُ النَّجْدَين، وألهمَ نفسه فجورَها وتقْواها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

وإذن فالذين يؤمنون أن لو يشاء الله لهدى النَّاس جميعًا، يعلمون أنَّه لن يهديَ النَّاس جميعًا: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦] فمشيئتهُ مرتبطةٌ بحكمته، وحكمته ارتضت أن يُنوِّع في خلقه، ومن أنواع خلقه هذا النوع المريد المختار: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

وهناك رأيٌ للإمام أبي حيّان يرجِّح فيه أن قوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ جملة منتهية، أي: ييأسوا من إيمان هؤلاء، ويريحوا أنفسهم من الطمع في إيمانهم، ولا يُتعبوا أنفسهم في التَّطلُّع إلى هذا الأمر، وقد كان هذا الأمر يتعب المؤمنين، ويُتعب الرسول ﷺ حتَّى قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]: أي تقتل نفسك من أجلهم؟! ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]: أسفًا عليهم وحزنًا عليهم.

وقوله: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ وقع جوابًا لقسم ـ ولا يزال الرأي لأبي حيَّان ـ أي: أقسم أن لو يشاء الله لهدى النَّاس جميعًا، وأنَّ هنا دالة على قسم، واستدلَّ على ذلك ببعض الشعر العربي[1].

وهناك من يقول بأن «ييئس» هنا بمعنى: يعلم ويتَبيَّن فيكون المعنى: أفلم يعلم الَّذين آمنوا ويتبيَّنوا، وبعضهم أكَّد هذا وقال: إنَّها الحقيقة، فييأس لغة قوم من اليمن.

وبعضهم قال: هذا مَجَاز، لأنَّ اليأس مُسبَّب عن العلم، فأُطلق اليأسُ على العلم من باب المجاز.

وأنا أرى أن لا داعي لهذه التَّكلُّفات، وسواء قدَّرنا محذوفًا أم لم نُقدِّر، فالحقيقة أنَّ هداية النَّاس بمشيئة الله ﷻ، وأنَّ الله لم يشأ هداية

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٦/٣٩٠).

QaradawiBooks.com

النَّاس جميعًا كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

إصابة الكافرين بصنع أيديهم:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ وكأنَّ المؤمنين قالوا: وإذا يئسنا من إيمان هؤلاء فسيظلُّون يناوشوننا ويؤذوننا ويتعبوننا، فقال الله ﷻ: ولكن قوارعي لهم بالمرصاد، ولن تتركهم بسبب كفرهم وسُوء أعمالهم. والباء هنا: ﴿بِمَا صَنَعُوا۟﴾ للسببيَّة، والصنع هو العمل والكسب، ولكن لا يُقال عن العمل إنَّه صنع إلَّا إذا تمرَّس عليه الإنسان وتدرَّب وداوم عليه، حتَّى يُقال: إنَّه صانع أو صاحب صنعة.

وقد تحدَّث بعض المعاصرين ذات مرَّة عما يصيب الغربيين الَّذين يصنعون الأسلحة الفتَّاكة فقال: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ فجعل ﴿بِمَا صَنَعُوا۟﴾ تعني الصناعة الحديثة، وهذا تكلُّف في الحقيقة، كما جعل الباء للاستعانة وليست للسببيَّة، ولكن المتبادر من الكلام أنَّ الباء للسببيَّة، ومثلها في القرآن كثير: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤، والنحل: ١١٢].

﴿بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾: داهيةٌ دَهْياء تنزلُ بهم، فتأخذهم وتهلكهم أو تُعذِّبهم، والقرع: ضَرْبُ شي بشيء، وسُمِّيت الداهية الشديدة: قارعة، كأنها شيء يدقُّهم دقًّا، والقيامة تُسَمَّى القارعة: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١ ـ ٣].

QaradawiBooks.com

ويمكن أن تكون القارعة الَّتي تُصيب الَّذين كفروا بما صنعوا مصيبة من المصائب، كالقحط أو المجاعة أو الأمراض أو أنواع من البلاء.

﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾: إذ لم تنزل بهم مباشرة، تحلُّ قريبًا من دارهم فيتطاوَل إليهم شررها، وهذه عمليَّة تهويل، كأنه يقول: انظروا فالقارعة قريب منكم، وبهذا تكون إنذارًا لهم حتَّى يأتيَ وعد الله.

﴿حَتَّىٰٓ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ إمَّا بالموت وانتهاء أجلهم، وإمَّا بقيام القيامة، فيأخذوا جزاءهم، وإمَّا أن يكون وعد الله هو نصر الإسلام والتمكينُ له في الأرض، كفتح مكة ونحو ذلك، فدوام الحال من المحال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرح: ٥، ٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾: لا يُخلف اللهُ وعدَه، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]؛ لأنَّ الَّذي يَعِد فيُخلف إمَّا أن يكون عاجزًا عن تحقيق ما وعد، وإمَّا أنَّه يجهل ما سيحدث غدًا، وإمَّا أنَّه لا ينوي أن يفيَ من أوَّل الأمر، فهذا كله نقص، والله ﷻ مُنزَّهٌ عن كلِّ نقص، فإنَّه لا يعجز ولا يجهل ولا يكذب، ولا يتصوَّر عليه أن يخلف وعده، و«الميعاد» أي: الوعد، وهو مِفْعَال من الوعد والميثاق.

استهزاء الأمم بالرسل:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾: لستَ أولَ رسول تُقترح عليه الآيات من باب الاستهزاء، كما قيل لبعض الرسل من قبلك: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠، وهود: ٣٢، والأحقاف: ٢٢].

QaradawiBooks.com

والتنكير في قوله: ﴿بِرُسُلٍ﴾ كما يقول النحويون: للتكثير؛ أي: برسل كثير؛ بل كل رسول تعرض للاستهزاء حتَّى قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٧]، وقال: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠] فهم يستهزئون بالرسول وبالنَّبيِّ على حدٍّ سواء، منذ عهد نوح عليه السلام حينما كان يصنع الفلك: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

ويستهزئون أيضًا بما جاء به الرسل ويقولون: هاتوا العذاب ونحوَ هذا، ولذا فالله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. وهذا يتكرَّر في القرآن الكريم في أكثر من موضع.

الله تعالى يُمْهل ولا يُهمل:

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أمهلتُهم وأعطيتُهم ملاوَة من الزمان، ومنه الملَوان: الليل والنهار، وهم يظنُّون الإمهال ـ أحيانًا ـ لونًا من الإهمال، والله يُمْهل ولا يُهْمل، إنَّه يُملي لهم: يُعطيهم مهلة وفرصة؛ ليُراجعوا أنفسهم لعلَّهم يهتدون، أو يثوبون إلى رُشْدهم، ويعُودون إلى الحقِّ الَّذي نفروا منه، فتكون فرصة لاهتداء من قدَّر الله هدايته، ولتقوم عليهم الحُجَّةُ أكملَ قيام، وينقطعُ عنهم كل عذر أو تَعِلَّة، وبعد ذلك يكون الاستدراج الإلٰهيُّ الَّذي يكون بعده الأخْذ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

والإمْلاء يكون أحيانًا بأنْ يُفسِحَ لهم ويوسِّع عليهم، كما قال الله تعالى في شأن قوم من الأقوام: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ

QaradawiBooks.com

﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وهنا يقول: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: أمْلَيْتُ للذين كفروا الَّذين استهزؤوا بالرسل، وعلى ذلك يكون الاستهزاء بالأنبياء وبما جاؤوا به كفرًا.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؟ فكيف كان أخذي، وكيف كان عقابي؟!

والله تعالى قد حدَّثنا عن أخذه لهؤلاء حينما قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١، ٤٢].

وحينما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

ومن هنا كان تعجيب الله لرسوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؟! أيُّ نوعٍ هو من العقاب؟ إنَّه عقابٌ أصبح حديث الأجيال.. يتحدَّث به التاريخ جيلًا بعد جيل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

هذا هو موقفُ ومصير أولئك الَّذين لم يَكْفِهِم ما أنزل الله تبارك وتعالى من القرآن، وأرادوا قرآنًا تُسَيَّر به الجبال، أو تُقَطَّع به الأرض، أو يُكلَّم به الموتى، ولو فُعل هذا بقرآنٍ لكان هذا القرآن.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۞ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۞ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ **[الرعد: ٣٣ ـ ٣٥]**

معركة القرآن الأولى مع الشرك:

من يقرأُ القرآنَ الكريم، يتبيَّن له بجلاء أنَّ معركته الأولى، وقضيتَه الأولى هي المعركة مع الشِّرك، وهي قضية التوحيد، وهي قضية النبوات جميعها: أن يُعبدَ الله وحدَه لا شريك له، وأن تبطل عبادةُ أولئك المُزيَّفين من الأرباب والآلهة المدَّعين مع الله، أو من دون الله ﷻ، ولم يُعْنَ القرآنُ بإقامة الأدلة على وجود الله ﷻ، فوجوده فطرة مركوزة في النفس البشريَّة.

والملاحدة المنكرون لوجود الله الجاحدون له قلَّة، لا وزن لها في التاريخ كلِّه، وهم بمثابة الشذوذ الَّذي يُثبت القاعدة ولا ينفيها، والقاعدةُ هي الإيمان بوجودٍ أعلى، بروحٍ علويّة مسيطرة، الإيمانُ بوجود هذه القوَّة فوق الأكوان، وفوق قدرة الإنسان، الَّتي يتَّجه إليها الإنسان طالبًا النفع، أو طالبًا دفْع الضُّر أو رفْعه عنه، وخصوصًا عند الشدائد والكُرُبات، فهذه هي الفطرة، ولهذا كانت قضيَّة القرآن وقضيَّة الأنبياء جميعًا: الدعوة إلى توحيد الله ﷻ وإبطال الشِّرك، فالقرآنُ عامَّة، والقرآن المكِّيُّ خاصة معنيٌّ بهذه القضيَّة.

وقد سبق في هذه السورة مناقشة أولئك الَّذين يَدْعون من دون الله ما لا يستجيب لهم بشيء: ﴿إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا

QaradawiBooks.com

دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، وسبق أيضًا مناقشتهم: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾، إلى آخر ما سبق في القسم الأول من هذه السورة المكيَّة الكريمة.

جناية الشرك والوثنيَّة على البشريَّة:

ثم عاد القرآن إلى هذه القضيَّة، وعادت السُّورة أيضًا إلى تلك القضيَّة الكبيرة الخطيرة، فقد جَنَى الشِّرك وجَنَتْ الوثنيَّة على البشريَّة جنايةً عظيمةً؛ حيث انعكست الحقائق، وقُلبت الأمور، فأصبح الإنسانُ المكرَّم الَّذي سَخَّر الله له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه: يعبدُ ما هو مُسخَّر له من أشياء يُفترض أنَّها في خدمة الإنسان، وهذا هو منتهى التزوير للحقيقة من ناحية، ومنتهى الانحطاط بالإنسان من ناحية أخرى.

والقرآن يقول في هذا: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١] فهو انحطاطٌ من ناحية، وقولُ الزُّور من ناحية أخرى، ومن هنا جاءت هذه المناقشات مع هؤلاء النَّاس الَّذين فقَدوا عقولهم، فتنزَّل القرآن معهم يُرْخي لهم العِنان، ويناقشهم في البَدَهيَّات، ولكن لأنَّ الشِّرك يُغطِّي على العقول، والكفر سَتْر وتغطية للعقول عن الحقيقة أصلًا، فقد بدأ يناقشهم.

مراقبة الله سبحانه لعباده وهيمنته عليهم:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾: يُعَجّبهم بهذا الاستفهام الإنكاري، كيف تتصوَّرون أن يكون الربُّ العظيم، والربُّ الأعلى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ٢ ـ ٥]، القائم على كلِّ نفس بما كَسَبت: قيامَ علم ورقابة

QaradawiBooks.com

وهيمنة، فهو قائمٌ على كلِّ النفوس يراقبها، يعلم سرّها ونَجْوَاها: ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩، والتغابن: ٤]، ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]، هذا الإلٰه الرقيب المسيطرُ العليم بكلِّ شيء، يهيمنُ على كلِّ نفس بما كسبت، ويقوم عليها بما كسبت، ويعلمُ ماذا كسبت من خير أو شر، من هُدى أو ضلال، من طاعة أو معصية، يعلم ذلك ويُجازي عليه في الدنيا وفي الآخرة. فهل يقارن هذا الإلٰه بآلهتكم الَّتي أشركتموها معه؟!

حذف الخبر في القرآن:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾: والخبر هنا كما يقول المفسرون: محذوف.

والمعنى: أهذا كَمَن لا يقوم على أيِّ نفس ولا يعلم شيئًا عنها؟! ولا يملك ضرًّا ولا نفعًا ولا موْتًا، ولا حياةً ولا نشورًا؟! كيف تُسَوون الله بهذه الآلهة وهذه الأصنام؟!

وحذف الخبر له نظائر في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٢٢]. أي: كمَن ليس كذلك؟ وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧] كمَن ليس كذلك؟

والخبر يُحذف أحيانًا لدلالة السياق عليه. كما يقول ابن مالك في ألفيته: «وحذف ما يُعلم جائز»[1]، فحذف المعلوم جائزٌ خصوصًا في كتاب يعتمد الإعجاز والإيجاز.

(١) انظر: ألفية ابن مالك صـ ١٨، نشر دار التعاون، مكة المكرمة.

QaradawiBooks.com

دلالة كلمة ﴿كَسَبَتْ﴾:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾: كلمة ﴿كَسَبَتْ﴾ هنا بمعنى عملت، سواء كان هذا العمل ممَّا يحبُّه الله ويرضاه أم كان ممَّا يسخطه ويكرهه، وكلمة ﴿كَسَبَتْ﴾ في القرآن تدلُّ على كسب الخير أحيانًا مثل: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] أي: لها ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شر، لها ما كسبت من طاعة، وعليها ما اكتسبت من معصية.

والفرق بين كسبت واكتسبت: أنَّ اكتسبت فيها نوع من المبالغة، فمن قواعد اللغة العربيَّة: أنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، ومن ذلك: جهد واجتهد، فالاجتهاد أشدُّ من الجهد، وخطف واختطف، وحطب واحتطب وهكذا، ولذلك نرى أنَّ في الخير يُجازى الإنسان عمَّا يعمله بأدنى جهد، وفي الشر لا يكتب عليه إلَّا ما يجتهد فيه ويُعاني، وهذا من فضل الله ﷻ أن يكتب الأدنى في الخير حتَّى لمجرد النيَّة، ولا يكتب في الشر إلَّا ما كان فيه معاناة وتعب.

كما تدلُّ كلمة ﴿كَسَبَتْ﴾ على كَسْبِ الشرِّ أحيانًا أخرى، مثل: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٨١]، ومثل: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [النساء: ١١١]، والسياق هو الَّذي يدلُّ على المعنى المراد.

وقد يكون الكسب للخير وللشر فيشمل الأمرين مثل: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١]﴾، ومثل: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، ومثل: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدَّثر: ٣٨].

QaradawiBooks.com

الذين جعلوهم لله شركاء:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾: هذا دليل على الخبر المحذوف، أنَّ هذا القائم الإلٰه العظيم، الخالق العظيم، تُشبِّهونه وتسوونه بهؤلاء الشركاء؟ ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] هكذا يعترفون يوم القيامة.

والشَّراكة تقتضي قدرًا من الخلطة والمساواة، والشريكُ لا بدَّ أن يساوي أو يقارب شريكه.

وقد ذكروا أنواعًا من الشَّرِكات مثل: شركة العَنان، وهي شركة في المال، وإن كان المال ليس متساويًا، ومثل: شركة الوجوه، وهي الشركة بالجاه وإن لم يكن الجاهان متساويين، ومثل: شركة الأبدان في السَّعي والعمل... وغيرها.

فهؤلاء شُركاء لله في أيِّ شيء؟!

في صفاته؟ لا يكون؛ فهناك فرق بين الخالق والمخلوق، وكيف يشتركون معه وهو الأول فليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فليس فوقه شيء، وهو الباطن فليس دونه شيء، وهو الخالق البارئ المُصوِّر صاحب الصِّفات والأسماء والكمالات، وأين هؤلاء الشُّركاء من الله ﷻ؟!

هل هم شركاؤه في الخلق؟ وقد سبق في هذه السورة: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾، هم لم يخلقوا شيئًا، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

QaradawiBooks.com

فمن أين جاءت الشَّركة وهم لا يملكون شيئًا؟ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۞ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

فهؤلاء هم الشُّركاء المزعومون: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡ﴾. وهذا تحدٍّ لهم أنْ يُسَمُّوا هؤلاء الشُّركاء المزعومين: مَنْ هُم؟ وما أسماؤهم؟ أنَّهم أحقر من أن يُسمُّوا، كما يقول الإمام الرازي: «وإنَّما يُقال ذلك في الأمر المستحقر الَّذي بلغ في الحقارة، إلى ألَّا يُذكر ولا يوضع له اسم، فعند ذلك يُقال: سمِّه إن شئت. يعني أنَّه أخس من أن يُسمى ويُذكر، ولكنك إن شئت أن تضع له اسمًا فافعل، فكأنه تعالى قال: سمُّوهم بالآلهة على سبيل التهديد، والمعنى: سواء سميتموهم بهذا الاسم أو لم تسموهم به، فإنها في الحقارة بحيث لا تستحقُّ أن يلتفت العاقل إليها»[(١)].

فهؤلاء الشركاء ليس لهم أسماء ولو ذكرتم لهم أسماء، فهي أسماء بدون مُسمَّيات، وليس وراءها مدلول ولا مُسمَّى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣].

ولله تعالى أسماء سمَّاها الأسماء الحسنى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، مثل ما ذكر في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤] فهذه

(١) مفاتيح الغيب (١٩/٤٤، ٤٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من أسماء الله الحُسنى، وإذا كانت الأسماء تعني الصِّفات، فاذكروا لنا أسماء هؤلاء، أي: صفاتهم، ماذا عندهم من صفات؟

﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: تخبرونه بما لا يعلم في الأرض، بما لا حقيقة له ولا وجود له، فلو كان موجودًا لعُلِم، ولعَلمه الله تبارك وتعالى الَّذي ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وما دام الله لا يعلمه؛ فلا وجود له!

ومعنى هذا: أنَّكم تُخبرون بشيءٍ لا حقيقة له ولا وجود، فهو من الأوهام، وإذن فأنتم تعبدون الأوهام وتتَّخذون شركاء من الأوهام.

﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾: «أم»: حرف عطف معناه الإضراب الإبطالي، والظاهر من القول: السَّطحي الوهمي، الَّذي تلفظه الأفواه بلا رويَّة ولا تدبُّر، فهو مجرَّد كلام مُزَوّق لا حقيقة له، كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]: مجرَّد كلام باللسان، لا يُنْبِئ عن واقع، وهذا كما قال بعض المفسِّرين: تسمّي الشيء بضدِّه.

معنى تزيين المكر للكافرين:

ثم أضرب القرآن عن هذا كلِّه، وقال: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾. فالأمر لا يستحقُّ مناقشةً، وهو أبْطَلُ من أن يُتكلَّم فيه مع هؤلاء الناس، وغاية الأمر أنَّهم زُيِّنَ لهم مكرهم، أي: كفرهم الَّذي لُبِّسَ عليهم وخُدعوا عن حقيقته، أو مكرهم: كَيْدهم للإسلام وأهله، ولدعوته ولرسوله ولمن آمن معه.

زُيِّنَ لهم مكرُهم فرأوا الكفر حَسَنًا: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، وهذه مشكلة كثير من الكفَّار للأسف: أنَّهم زُيِّنَ لهم الباطل فلم

QaradawiBooks.com

يعرفوه باطلًا: ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]. وهو شأن كثير من الكفَّار الَّذين يتشدَّقون بكفرهم وباطلهم.

الصَّدُّ عن سبيل الله:

﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: صُرفُوا ومُنِعوا عن سبيل الله، وسبيل الحق، والسبيل هو الطريق السَّهل الواضح المسلوك، ولفظة: ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ تُذكَّر وتُؤنَّث. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحِجر: ٧٦]، وقال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: صدُّوا عن الطريق الموصِّل إلى الحق، وإلى رضوان الله تبارك وتعالى.

فالسبيل تُستعمل للطريق الحسِّي، وتُستعمل أيضًا للطريق المعنوي، وإذا أُطلِق السبيل ـ كما هو معنا الآن ـ خصوصًا بعد الإضلال أو الصَّدِّ كان معناه سبيل الحق، وسبيل الله، وسبيل الهداية الَّذي جاء به النَّبيُّون، وأنزل الله به الكُتُب، وهو المنهج الَّذي أنزل الله تعالى به كتبه، وبعثَ به رسلَه، ليُبيِّنوا للناس العقائد السليمة، والعبادات الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصَّالحة، حتَّى يميِّزوا بين الصَّواب والخطأ في الأفكار، وبين الحقِّ والباطل في المعتقدات، وبين الصَّالح والفاسد في الأعمال.

وهكذا قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقال تعالى عن الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. فهذا السبيل هناك مَن هُديَ إليه، وهناك مَن أُضِلَّ عنه وصُدَّ عنه، كما قال الله تعالى في شأن فرعون: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧].

QaradawiBooks.com

مَن المزيّن والصَّادّ للمشركين: الشيطان أم النفس؟

ولكن مَن المزيِّن ومن الصَّادّ؟ ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: فمن الَّذي زَيَّن لهم هذا المكر؟ ومن الَّذي صَدَّهم عن السبيل؟

ذكر القرآن الكريم في آيات أخرى أنَّ الَّذي زيَّن لهم كفرَهم وضلالَهُم وصدَّهُم عن السبيل أو الصَّراط المستقيم هو الشيطان. كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۞ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٣٦، ٣٧] أي: هؤلاء الشياطين الَّذين أصبحوا قُرناء للذين عَشُوا عن ذكر الله، يَصُدُّونهم عن السبيل، وكذلك قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [فُصِّلَت: ٢٥] فهؤلاء الشياطين من الجن والإنس، كلاهما يُزيِّن السُّوءَ، ويصُدُّ عن السبيل، وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وعلى لسان الهُدهد في سورة النمل قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤] فالمُزيِّن إذن للباطل والصَّادّ عن سبيلِ الله هو الشيطان.

وقد أجمل القرآن مُهمَّة الشيطان في أمرين أساسيين: التزيين والإغواء: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحِجر: ٣٩]، فمهمته أن يُزيِّن ويغوي.

نسبة التزيين إلى الله تعالى:

وقد يذكر القرآن في بعض الأحيان التزيين منسوبًا إلى الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]. وهذا بالنظر

QaradawiBooks.com

إلى أنَّ الأسباب كلها ترجع في النهاية إلى مُسبِّبها، وهو الله تبارك وتعالى، وعلى ذلك يجوز نسبة الأمور كلِّها إلى الله تعالى من هذه الزاوية.

والنفس أحيانًا تُزيِّن للإنسان أيضًا: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]، وتُسَوِّل له: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، وهذا السَّامري يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٩٦].

فالنفس تُزيِّن وتُطوِّع وتُسوِّل، وكذا يفعل الشيطان من الجنِّ والإنس، ويمكن أن ينسب هذا في النهاية إلى الله ﷻ على معنى أنَّه هو الَّذي وضع هذه السُّنن، وسبَّب هذه الأسباب، وخلَق هذا الكون بمن فيه وما فيه، وربط هذه الشبكة بعضها ببعض.

ما المقصود بـ «السبيل»؟

إذا أطلق السبيل هكذا: ﴿وَصُدُّوا۟ عَن ٱلسَّبِيلِ﴾، فكأنه لا سبيل غيره، وما عداه ليس طريقًا، لأنَّه لا يوصِل، وإذا وصَّل فسوف يوصِل إلى جهنم: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٩].

و«السبيل» قد يُعرَّف بالألف واللام، فإذا اعتبرناها للعهد كان المعنى السبيل المعهود، وإذا اعتبرناها للجنس فكأنَّ هذا هو جنس السبيل، وقد يُعرَّف بالإضافة إلى لفظ الجلالة، الله ﷻ: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧، التوبة: ٣٤، الحج: ٢٥]، ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] باعتبار أنَّ غاية هذه السبيل أن تُوصِّلَ إلى الله وإلى رضوانه، ولأن واضع هذه السبيل وشارعها هو الله أيضًا، فهي تُنسبُ إلى شارعها مثل الصِّراط:

QaradawiBooks.com

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وقد يُضاف السبيل إلى الدَّاعي إليه، وهو رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]. فهو سبيل محمد ﷺ، وطريقه الَّذي يدعو إليه؛ كما في الصِّراط أيضًا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقد يُنْسَبُ السبيل إلى سالكيه من المؤمنين: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥]، ويقابلها سبيلُ المجرمين: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، وسبيلُ المفسدين كما قال موسى لأخيه هارون: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

فسبيلُ المؤمنين يقابلها سبيلُ المجرمين، وسبيل المفسدين.

وسبيل المؤمنين هي سبيل من أناب إلى الله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمان: ١٥]، وهي سبيل رسول الله ﷺ، وهي سبيل الله، وهي السبيل بإطلاق.

وكذلك في الصِّراط أيضًا ينسب إلى سالكيه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

سنَّة الله تعالى في الإضلال:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾: مَنْ أضلَّه الله وصدَّه وأعماه وخلَّى بينه وبين نفسه، وَوَلَّاه ما تولَّى، وتَركه سادِرًا في ضلاله، بعد أن أقام عليه الحُجَّة، وَوَضَّح له المحَجَّة، وأنزل عليه الكتاب، وبعث له الرسول،

QaradawiBooks.com

وأقام من الأدلة ما يقطع معه كلَّ تَعِلَّة، فلا هادي له، وليس له هادٍ يهديه: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]، لا أحد يهديه، وكما قال الله ﷻ: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

الفرق بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة:

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾: هؤلاء الَّذين جعلوا لله شركاء لم يَخلقوا كخلقه، وليس لهم ذَرَّة في مُلْكِهِ، فليس لله تعالى شريكٌ في الملك، هؤلاء الَّذين كفروا بالله وأشركوا به ما لم يُنزِّل به سلطانًا، وزُيِّن لهم مكرهم وباطلهم، وساروا في هذا الطريق الأعوج، لهم عذابٌ في الحياة الدنيا بما كسبَت أيديهم، فإنَّ الله ﷻ يُعَجِّل بعض العذاب في الدنيا لأهل الكفر والضلال تذكيرًا لهم؛ عسى أن يرجعوا إلى الله، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، فهو ينزل بهم بعض الآلام والمصائب في أنفسهم، وفي أهليهم وفيمن يحبُّون، وقد يكون ذلك بالمجاعات، كما قال الله في شأن بعض الأقوام: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وقد يكون بالقوارع تنزِل بهم، أو تحلُّ قريبًا من دارهم كما مرَّ بنا في الآيات السابقة من السورة: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ فالله يُنبِّههم ويُذكِّرهم بهذه القوارع

QaradawiBooks.com

وهذه المصائب الَّتي تَتَوالى عليهم، عسى أن يستيقظ النائم، ويتنبَّه الغافل، ويتذكَّر الناسي، ويتوب العاصي، ويهتدي الضَّال.

وقد بيَّنت الآية الكريمة أنَّ لهم عذابين: في الحياة الدنيا، وفي الآخرة. وعذابُ الحياة الدنيا يكون على قَدْر ضلالهم وأعمالهم، ولَيْتَ الأمر ينتهي عند عذاب الدنيا، ولكنَّ هناك عذابًا في الآخرة ينتظرهم، ادَّخره الله لهم، وهو أشدُّ وأخزى، وأشقُّ وأصْعَبُ، وأكثر إيلامًا وإيجاعًا من عذاب هذه الدنيا، لأنَّ عذاب الدنيا لا يدوم، فمهما طال أمدُه فسوف ينتهي، وهو محدودٌ من ناحية نوعه على قَدر الدنيا، ولكن عذاب الآخرة أشد من حيث الكم، وأخزى من حيث الكيف.

قال رسول الله ﷺ: «**ناركم هذه جزءٌ من سبعين جزءًا من نار الآخرة**». قالوا: يا رسول الله إن كانت هذه لكافية، قال: «**فإنَّ نارَ الآخرة أشدُّ منها بسبعين درجة**»(١).

وعذابُ الآخرة أخْزَى، لأنَّه لا يشمل الجسم فقط، ولكن يشمل النفس أيضًا، فهو عذابٌ ماديٌّ ومعنويٌّ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

ومن ناحية أخرى، فإنَّ عذاب الآخرة عذابٌ دائمٌ مُلازمٌ، ولذلك كان من أدعية عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]: ملازمًا دائمًا، وهذه مصيبة كبرى، فهو ليس يومًا ولا يومين، وليس سَنَةً ولا سنتين: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، إنَّه أبد الآبدين ودهر الدَّاهرين، ولذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّ﴾.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٣)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾: ليس لهم من يقيهم أو يحميهم من عذاب الله ﷻ، وإذا كانوا يتصوَّرون أنَّ آلهتهم المزعومة تمنعهم من الله ﷻ، فقد خدعوا أنفسهم، فهذه الآلهة لا تملك شيئًا ولا تشفع لهم: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والشفاعة عنده لا تكون إلَّا لمن ارتضى، أي: لأهل التوحيد، وإذن فاتِّكالهم على هذه الآلهة اتِّكال باطل: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۞ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]، ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۞ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

ولن يشفع لهم الكبراء والسَّادة الَّذين مشوا في ركابهم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

ولن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، وكذَبوا فالله تعالى يقول: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الممتحنة: ٣]، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧].

لا قيمة لأموال ولا لأولاد، ولا تنفعُ أصحابَها يوم القيامة، وإذن فليس لهم من دون الله من واق.

الجنة الَّتي وعدها الله المتقين:

ثم بعد أن ذكر القرآنُ هذه الصفحة المعتمة، ذكر الصفحة الأخرى لأهل الإيمان والتقوى، قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ

QaradawiBooks.com

تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾: المثل يراد به التشبيه، كما يقول ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وكما يقول: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وفي الحديث: «**مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء من قبلي، كمثل رجلٍ بنى بيتًا فأحسنه وأجمله...**» إلخ[1].

وأحيانًا يُراد بكلمة «المثل» تلك الجملة الشهيرة السائرة من الأمثال بين الناس، وقد أُلِّفت في ذلك كتبٌ.

وأحيانًا أخرى تُطلق كلمة المثل، ويُراد بها الصفة الغريبة، فهو معنى مَجازي، فالمثل لغرابته يُضرب للناس.

وهنا: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ أي: الصفة العجيبة لهذه الجنَّة الَّتي وَعَدها الله المتقين: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ٦٣]، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

والمتَّقون هم الَّذين اتَّقوا الشِّرك، وآمنوا بالله، وتنزَّهوا عن اتِّخاذ شركاء مع الله ﷻ، ودخلوا في التوحيد، وهم أيضًا الَّذين اتَّقوا المعاصي.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ هذه من المصطلحات القرآنية أيضًا كما ذكرنا عن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وعن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٣٥)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

و﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾: هم أهل التقوى الَّذين اتَّقوا الشِّرك، واتَّقوا ما يجلبه الشِّرك وما يثمره من الفسوق والعصيان والظلم، والبغي بغير الحق، إلى آخر ما يثمره.

فهؤلاء هم المتَّقون الَّذين اتَّقوا، وجعلوا بينهم وبين الكفر والمعاصي وقاية، فهم متَّقونَ حَذِرون؛ لأنَّ التقوى نوعٌ من الاجْتناب مع الحذر، فيقال: اتَّقى الشيءَ، أي: اجْتَنَبَهُ مع حذر، كما سأل سيِّدنا عمر أُبيَّ بن كعب رضي الله عنهما عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فما عملت فيه؟ قال: تشمرت وحذرت، قال: فذاكَ التقوى[1].

والتقوى لا تعني أنَّ المتَّقين لا يقعون في معصية أو مخالفة قط، فليسوا ملائكة، ويمكن أن يغرَّهم الشيطان ويوسوس لهم، ولكنَّهم سرعان ما يرجعون كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، ولو فُرِضَ أنَّ قَدَم التَّقيِّ زلَّتْ ووقع في المعصية، فإنَّه لا يستمر، إذْ سرعان ما يستيقظ ضميره المؤمن، فيرجع إلى الله، يقرع بابه بالتوبة والاستغفار، ولذلك حينما قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] أتبع ذلك بوصف دقيق للمُتَّقين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٤، ١٣٥]، وواضحٌ أنَّهم في هذا الوصف يمكن أن يفعلوا الفاحشة أو يظلموا أنفسهم، ولكنهم إذا

(١) تفسير القرطبي (١/١٦١، ١٦٢).

QaradawiBooks.com

فعلوا ذلك، ذكروا الله، فاستغفروا لذنوبهم، ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا، فليس من شأنهم الإصرار، ولذا استحقُّوا أن يُعِدَّ الله لهم الجنة.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ بعض المفسِّرين يقول: إنَّ الخبر هنا محذوف، والتقدير: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: فيما يُتلى عليكم، وهو يفهم من السياق، وبعضهم يقول: إنَّ جملة: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ هي الخبر، وتقدَّر «أنْ» قبلها فيكون السياق: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى ...﴾ أنْ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ وهذا كما في المثل العربي: «تَسْمَعَ بالمُعَيْدِي خيرٌ من أن تراه» أي: أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، فصفة الجنَّة أنْ تجري من تحتها الأنهار.

جريان الأنهار:

والقرآنُ كتابٌ عربيٌّ، والماء عند العرب له أهمية، ولا معنى للحياة ولا لذَّة لها إذا لم يكن الماء موجودًا وبكثرة، ولذلك جاءت صفة الجنَّة أنَّ الأنهار تجري من تحتها.

وفي سورة الرحمن جاء في وصف الجنتين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠]، وجاء أيضًا: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦].

والظل كذلك من الأشياء المهمَّة، ولهذا نقرأ في القرآن: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١]، وفي الآية الَّتي معنا: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾، فالريُّ فيها متوفِّر، وكذلك الظلُّ فيها ظليل، وليست مهمة الأنهار الري فقط، ولكن مشهدها والماء يجري فيها يثلج الصُّدُور ويَشْرح النفوس، والشاعر يقول:

QaradawiBooks.com

ثلاثةٌ فـــي النَّاس يُذْهِبْـــنَ الحَزَنْ الماءُ والخُضْرةُ والوجْهُ الحَسَنْ[1]

والناس يحاولون الآن إنشاء بِرَك صناعيَّة لما للماء ومشهدِه من روْعة وتأثير، فكيف إذا كانت أنهارًا تجري وليست نهرًا واحدًا؟!

طعام أهل الجنَّة:

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾: الأُكل: ما يُؤكل فـــي الجنَّة من الطعام، وخصوصًا الفاكهة: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعـــة: ٣٢، ٣٣]. والفواكه لها مواســـم، فهل تكون كذلك في الجنة؟ لا. بل كل صنف، وكل نوع، وكل شيء رهن الإشارة والطلب.

وثمارُ الجنَّة دانيةٌ لا تتطلَّب جهدًا؛ بل تصل حالما يشتهيها الإنسان، وهذا أســـبق من تكنولوجيا العصر، الَّتي تجعل الأبـــواب تفتح لمجرَّد الاقتراب منهـــا، أو الماء ينزل من صنابيره بمُجرَّد مـــدّ اليد، ففي الجنَّة بمُجرَّد الخاطر يأتي الشـــيء قريبًا دانيًا مُذلَّلًا، ويبقى عمل التكنولوجيا والتطوُّر العصري، في تقريب ما يمكن أن يحدث في الجنَّة إلى الأذهان، وليس لثمار الجنَّة مواسم فإنها دائمةٌ.

وفي الجنَّة ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين، وفي البخاري: «**أنَّ رجلًا في الجنَّة قال: يا ربِّ، أريد أن أزرع. فقال الله: وما حاجتك إلى الزرع؟ فقال: يا ربِّ، أريد أن أزرع**». فجاءته آلات الزراعة وما يحتاج إليه فيها فزرع وأثمر وحصد في مدّة قصيرة، «**فقال الله** ﷻ: **دونك يا ابن آدم؛ فإنَّه لا يُشْبِعُك شـــيء**». وكان أحد الأعراب جالسًا عندما قصَّ النبيُّ ﷺ هذه

(١) ذكرها من غير نســـبة أبو عباس الشريشي في شـــرح مقامات الحريري (٢٨٩/٣)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

القصَّة عن أهل الجنَّة، فقال الأعرابيُّ: يا رسول الله، إنَّ هذا لا تجده إلَّا مُهاجريًّا أو أنصاريًّا، فإنَّهم أهل زرع، أمَّا نحن فلسنا أهل زرع[1].

ظلُّ الجنَّة:

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾: وظلُّ الجنَّة ظلٌّ دائمٌ لا يتقلَّص، والظلُّ يُراد به ما ينتج عن أشعة الشمس، ويُراد به ما هو أعمّ من هذا، وقد قالوا: إنَّ الفيء مترتِّب على الشمس، وليس من الضروريّ أن يترتَّب الظلُّ على الشمس، بل يمكن أن يقال: ظلُّ الليل.

وفي الجنَّة: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣] فالقرآن يريد أن يُطمْئنَ أهل الجنَّة خصوصًا في البلاد الحارَّة أنَّهم لن يتعرَّضوا للضَّحِّ أو للضَّحْو، وهو إصابةُ حرِّ الشمس، قال تعالى لآدم: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٩]. أي: لا تتعرَّض للشمس المحرقة اللاذعة، فهناك ظلٌّ ظليل: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]. أي: ظلًّا ثقيلًا ممدودًا: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]. مُتَّسع منبسط ممتد.

وقد جاء في الحديث الصحيح: «**إنَّ في الجنَّة شجرةً يسير الراكب في ظلِّها مائة عام، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾**»[2]. فظلُّ الجنَّة إذن ظلٌّ دائمٌ وظلٌّ ممدودٌ، وظلٌّ ظليلٌ.

فهذه هي ﴿ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ ليس كالظل الَّذي عند الآخرين في جهنم، إنَّما سُمِّيَ الظلُّ في جهنَّم ظلًّا من باب التَّهكُّم: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٣، ٤٤]،

---

(١) رواه البخاري في المزارعة (٢٣٤٨)، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه صـ٢٩٩.

غير مرخصة للطباعة
نسخة علمية
QaradawiBooks.com

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ۝ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠، ٣١] لا يمكن أن يكون هذا ظـلًّا، وإنَّما هذا من التَّهكُّـم، وأين هذا من الظِّل البارد الكريم، الدائم الظَّليل الممدود في الجنَّة؟!

عُقْبى المتَّقين وعُقْبى الكافرين:

﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾: الجنَّـة الَّتـي تقدَّم الكلام عنهـا هي مآل الَّذين اتَّقـوا الله ومصيرهم، ومنتهـى أمرهم، أمَّا الآخرون فمآلهم ومنتهاهم النار، فهل يسـتوي أصحاب النَّار وأصحاب الجنَّـة؟! ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [الحشـر: ٢٠] هيهـات أن يسـتويان: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾، وبئس المصير للكافرين، وبئس المهاد، وبئس القرار جهنَّم، أعاذنا الله منها.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ۞ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ۞ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ۞ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ۞ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴾ **[الرعد: ٣٦ ـ ٤٠]**

موقف الَّذين آتاهم الله الكتاب من القرآن الكريم:

تتحدَّث السورة هنا عن موقف الَّذين آتاهم الله الكتاب من القرآن الكريم، وقد سبق الكلام في مقدِّمة التفسير: أنَّ المهم لمن أراد أن يفقه القرآن ويفهم عنه فهمًا جيدًا: أن يستقرئ مواضع الجمل والألفاظ في القرآن الكريم، وأن يستقرئ مواضع السياق والسباق، ليستعين بذلك على فهم النصِّ فهمًا حسنًا.

المراد بـ «الكتاب»:

وقد ذكرنا أنَّ كلمة الكتاب في القرآن تَرِدُ بمعاني عديدة منها ـ إذا أطلقت كلمة الكتاب ـ التوراة والإنجيل، وقد يُراد بالكتاب: القرآن، وقد يُراد به: اللوح المحفوظ الَّذي تُكتب فيه مقادير الخلق.

وفي هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ ينصرف الذِّهن ويتبادرُ إليه أنَّ المراد بالذين آتيناهم الكتاب هنا هم أهل التوراة والإنجيل، وإن كان من المفسِّرين من قال: إنَّ المراد بهم أهل القرآن.

QaradawiBooks.com

فمعنى ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن، وإنَّما لم يقل: «آتيناهم القرآن» لأسباب بلاغيَّة.

وهذا وارد، ولكن الَّذي يتبادر إلى الذهن من هذه العبارة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ حيثما ذُكرت في القرآن الكريم: أنَّهم هم الَّذين آتاهم الله التوراة أو الإنجيل، من اليهود ومن النصارى.

ولعلَّ من قال: إنَّ المراد بالكتاب هو القرآن، إنَّما قال ذلك لما رجَّحه كثير من أهل التفسير وعلوم القرآن من أنَّ هذه السورة مكيَّة، فكيف يُراد بالكتاب ـ في مكة ـ التوراة والإنجيل؟!

ذكر التوراة والإنجيل في كثير من السور المكيَّة:

والحق أن هناك آيات كثيرة من السور المكيَّة، ذكرت أهل الكتاب، وذكرت الَّذين آتاهم الله الكتاب، كما في سورة الأنعام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [الأنعام: ٢٠].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وفي سورة القصص: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢]، وفي سورة العنكبوت: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٧] وغيرها.

ذكر الله الَّذين آتاهم الكتاب، وذَكَر الرجوع إلى أهل الكتاب: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [يونس: ٩٤]؛ فالحديثُ عن أهل الكتاب شائعٌ في القرآن المكِّي، وقد كان في مكة أهلُ الكتاب، فلا عَجَبَ أن يتحدَّث عنهم القرآن.

وجاء عن بعض المفسِّرين أنَّ المراد بالذين آتاهم الله الكتاب: هُم الَّذين آمنوا منهم، مثل: عبد الله بن سلام، وأصحابه من بني إسرائيل،

QaradawiBooks.com

ومثل الَّذين أسلموا من النصارى، وقيل: إنَّهم نَحْو ثمانين، أربعون منهم من وفد نجران، وثمانية من غيرهم، واثنان وثلاثون من الحبشة، وهذا على التَّسليم بأنَّ السورة مدنيَّة، أو لعلَّ هذه الآيات من السُّورة مدنيَّة، وهذا ليس بمُستغرب: أن توجدَ آياتٌ مدنيَّة ضمن سورة مكيَّة، وتكون السورة مكيَّة بحسَبَ الغالب فيها، وإن كنتُ أرجِّح أنَّ السورة كلها مكيَّة.

عبارة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عبارة مدح وثناء:

وعلى كل حال فعبارة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وَرَدَت بيقين في السور المكيَّة، ومن استقرأ هذه العبارة في القرآن يجد أنَّها عبارةُ مدح وثناء لهؤلاء كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٤]، وأيضًا ـ كما قال ابن القيِّم ـ فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] هو من المدح أيضًا، لأنَّ الَّذين يكتمون الحقَّ فريقٌ منهم، وإذن فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يدلُّ على المدح والثناء والتنويه بأهله.

QaradawiBooks.com

عبارة ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

وهذا على خلافِ تعبيرٍ آخر يدلُّ على الذَّمِّ، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤].

وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣] فهذا يدلُّ على الذَّم، لأنَّهم أُوتوا نصيبًا من الكتاب، وضيَّعوا نصيبًا آخر: ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

عبارة ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ و﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تحتمل المدح والذم:

وهناك عبارتان تحتمل كلٌّ منهما المدحَ والذَّمَّ: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، و﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ كما في قوله تعالى في مقام المدح: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقوله في مقام الذَّم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]، وقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠] فهذه التعبيرات منها ما يحتمل المدح، ومنها ما يحتمل الذم.

QaradawiBooks.com

وكذلك ما ورد من تعبير: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ **كما في قوله تعالى:** ﴿نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٠١].

وقولـــه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وقولـــه: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النســاء: ١٣١] فهذه التعبيرات ممَّا يحتمل المدحَ والذَّمَّ، والسياق هو الَّذي يحدِّد المعنى المراد.

وإذن فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تعني المدحَ حيثما وردت في القرآن الكريم، وذلك لأنَّ عندهم شـــيئًا من العلم، فحينما نظروا في القرآن المنزَّل على محمد ﷺ، وجدوا فيه من الآيات الدَّالَّة على صدقه، وأنَّه مُنزَّلٌ من عند الله ﷻ، فلذلك فَرِحـــوا بهذا الكتاب، وخصوصًا أنَّه يُصَدِّق ما بين يديه من الكتب الأخرى، ولأنه جاء بالأصول الَّتي جاءت بها النُّبوات: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

المراد بالأحزاب هنا:

﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾: هنـــاك بعض الأحـــزاب ممَّن ينكر بعض ما أُنزل إلـــى محمد ﷺ من القرآن، وهم إمَّا من أهل الشِّـــرك من الوثنيِّين، وهذا شائعٌ أيضًا في القرآن الكريم.

وكلمة «الأحزاب» بهذا الجمع والتعريف تذكر في القرآن في موضع الـــذَّم: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ [ص: ١١]، ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ [غافـــر: ٥]، ﴿وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۖ

QaradawiBooks.com

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ [ص: ١٣]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ [هود: ١٧].

وإمَّا أن يُراد بالأحزاب أهل الكتاب: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧]. والحديث هنا عن عيسى عليه السلام؛ والغالب أن يكون تحزُّبهم على الكفر والضلال، سواء كانوا من المشركين أو من أهل الكتاب وفرقِهم الضَّالَّة، وهناك فرق ضالة كثيرة من اليهود والنصارى، كما أنَّ هناك طوائف ضالة من المشركين.

أخْذُ بعض القرآن دون بعض:

وأيُّ بعض من القرآن أنكره الأحزاب؟ لم يُحدِّد القرآن هذا، والمهم أنَّهم ذُمّوا؛ لأنَّهم لم يأخذوا هذا القرآن جملةً، وهو كُلٌّ لا يتَجزَّأ، ولا يجوز أن يُؤْخَذ بعضه ويُترك بعضه، وقد حذَّر اللهُ رسولَه ﷺ منهم فقال: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

فلا يجوز إذن تجزئة هذا الكتاب، ولا يجوز أن يُقطع لحمًا على وضَم، فتُؤْخذ العقائد وتُترك الأخلاق، أو تُؤْخَذ العبادات وتُترك المعاملات، وتُؤْخذ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ولا تُؤْخذ: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، أو لا تُؤْخذ: ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ [البقرة: ١٧٨]، بل لا بدَّ أن يؤخذ كله، وإلا كنَّا كبني إسرائيل الَّذين وبَّخهم الله تعالى وقرَّعهم أشدَّ التقريع حينما قال لهم: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [البقرة: ٨٥]، وهم أيضًا ـ اليهود ـ الَّذين أرادوا أن يدخلوا في

QaradawiBooks.com

الإسلام، وأن يستبقوا تعظيم يوم السبت من شرائعهم القديمة، فأبى الرسول ﷺ عليهم، وأبى القرآن عليهم، ونَزَل قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة: ٢٠٨] أي: ادخلوا في شرائع الإسلام كافَّة. فالمراد بالسلم هنا الإسلام.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴾

لماذا تتردَّدون في قبول الإسلام كله؟ ولماذا تريدون أن تقبلوا بعضًا وترفضوا بعضًا؟ وإنَّما أُمِرتُ بما أُمِر به النبيُّون والرُّسل جميعًا أن أعبد الله ولا أشرك به، فقد جئنا وأُمرنا بالتوحيد الَّذي أنزل الله تعالى به جميع كتبه، وبعث به جميع رسله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ ﴾ يدلُّ على أنَّه عليه الصلاة والسلام عبدٌ مأمور، وأن هذا القرآن أتاه من جهة أعلى منه، وأنَّه ليس من كلامه، بل هو من كلام ربِّه يُلقِّنه ويُلقَّاه: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٖ ﴾ [النمل: ٦].

﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴾: لا أدعو إلى نفسي، ولا أدعو إلى عبادة بشر، ولا إلى عبادة حجر.

وتقديم ﴿إِلَيۡهِ﴾ كما يقول علماء البلاغة: يفيد الاختصاص والقصر، أي: إليه، لا إلى أحد غيره، إنَّما أدعو إلى الله وحده: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [فُصِّلَت: ٣٣]، وأدعو إلى سبيله وإلى دينه وإلى شرعه.

﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴾: إليه مرجعي ومصيري لا إلى غيره، ولا يتحكَّم في مصيري ومآبي أحدٌ إلَّا الله، فالرجوع سوف يكون إلى الله، فهو الملك

QaradawiBooks.com

وحدَه، والحاكم وحدَه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

تتَّضح هنا: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ القضيتان الأساسيتان: قضية المبدأ وقضية المصير، فالمبدأ من الله، والمصير إلى الله ﷻ، وأهم عقيدتين في عقائد الديانات السماوية هما: عقيدة التوحيد، وعقيدة الجزاء.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾: الضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يرجع إلى القرآن الكريم، والخطاب لرسول الله ﷺ.

وكلمة الحكم ﴿حُكْمًا﴾ تعني القضاء والفصل، أي: قضاءً وفصلًا، أو تعني الحكمة، وهي ترِدُ في القرآن بالمعنيين: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] بمعنى القضاء والفصل.

وتَرِدُ بمعنى الحكمة: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩]، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤] فالحكمُ هنا بمعنى الحكمة.

والقرآن يشتمل على الأمرين: على الحُكم بمعنى القضاء الفاصل بين الناس، والتَّشريع الحاكم والأوامر الحاكمة، ويشتمل على الحِكمة أيضًا.

فإذا قلنا في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾: إنَّ «الحكم» بمعنى الأمر والتَّشريع، أو بمعنى الحكمة الهادية للناس الَّتي تضعُ كلَّ شيء في موضعه، فالمعنى صحيح على الوجهين؛ لأنَّه كتاب يحكم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

﴿إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]؛ ولأنه كتابٌ حكيمٌ أيضًا ومُنزَّل من حكيم: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١].

عربيَّة القرآن وحكمُ ترجمته إلى اللغات الأخرى:

وقوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي: بلسان العرب، وكأنَّ الله ﷻ أراد أن يُشرِّف هذا اللسان بأن ينزل به خير كتبه، وآخر كلماته الهادية للبشر، فأنزل القرآن الكريم بهذه اللغة الشريفة الَّتي شرَّفها القرآن؛ تكريمًا للرسول ﷺ، وتكريمًا لهذه الأمة كما قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٤٤]، وكما قال أيضًا: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: فيه شرفُكم وفخرُكم وتذكرون به بين الأمم، وأيضًا فقد أنزله الله بلسان عربيٍّ مبين، لكي يفهمه الرسول ﷺ ولكي يفهمه قومه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥].

ومن هنا كانت عربيَّة القرآن أمرًا مؤكَّدًا، وقد جاء في عدد من السور تأكيد هذا الأمر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٣]، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزُّمَر: ٢٨]، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣، ٤] إلى آخر ما ورد في كتاب الله ﷻ مؤكِّدًا عروبة هذا الكتاب «القرآن الكريم».

ومن هنا أيضًا تكون الترجمات الَّتي تُترجِم لمعاني القرآن أو لتفسير القرآن ليست هي القرآن، ولا تُسمَّى قرآنا، فالقرآن هو اللفظ العربي

QaradawiBooks.com

المنـــزَّل على محمد ﷺ، والمحفـــوظ في الصدور، والمتلوُّ بالألســـنة، والمكتوب في المصاحف بين دفتيها.

وقد اختلف العلماء في قضية ترجمتـــه اختلافًا كثيرًا، وكانت معركة كبيرة منذ نحو ســـبعين عامًـــا في مصر؛ بيـــن العلماء الَّذيـــن يجيزون الترجمة، وبين الَّذين لا يجيزون، وانتهت إلى إجازة ترجمة معاني القرآن الكريم، وحتـــى ترجمة المعاني هذه لا يُجيزها بعـــضُ الناس، ويطالب بترجمة التفسير فقط.

والحقيقة أن ترجمة روائع اللغات عمليّة فـــي منتهى الصعوبة، فالذي يترجِم الروائع يحتاج إلى أن يكون في مستوى ما يترجمه، فمثلًا من يترجِم لشكسبير ينبغي أن يكون عنده من المستوى الأدبي، ما يستطيع أن يترجم به لشكســـبير، إضافة إلى علمه باللغة الإنجليزية الَّتي يُتَرْجم منها، وعلمه ومعرفته باللغة الَّتي ســـوف يترجم إليها، وأن يكـــون عنده من القدرة على الإبداع الأدبيّ والفنيّ ما يستطيع أن ينقل به رائعة من روائع شكسبير دون أن يُفقدها روحهـــا ومعناها، هذا مع النصوص البشـــريَّة فكيف بالنصوص الإلٰهيَّة؟! كيف يستطيع أحدٌ أن ينقل نصًّا من القرآن بما فيه من إعجاز؟

لا يســـتطيع أحد أن يفعل هذا مع القرآن، ولا حتَّـــى مع النصوص الأدبيَّة كما قال بعضهم ومثَّل لذلك بما قاله امرؤ القيس:

مِكَـــرٍّ مِفَرٍّ مُقْبـــل مُدْبر معًا[1]

فكيف تُترجم هذه بما هي عليه من نَظْم ووجازة؟ يمكن أن تترجم معانيها في عدَّة أسطر، ولكنَّها لن تكون بتلك الروعة!

(١) ديوان امرئ القيس صـ١٩، رواية الأصمعي من نسخة الأعلم، نشر دار المعارف، مصر.

QaradawiBooks.com

ثم إنَّ القرآن ألفاظٌ ومعاني، واللفظ الواحد يحتمل ـ أحيانا ـ عدَّة معاني، وهذه المعاني الَّتي يُؤديها اللفظ لها دلالات، مثل قوله: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: ٦] فالباء فيه تفيد الإلصاق، وتفيد التبعيض، وغير ذلك، فكيف يترجم هذا ويؤدِّي الأداء القرآني؟!

وأمر آخر في القرآن، وهو اللحن والموسيقى كما يسمُّونها، كيف يترجم لها؟ وكيف يفرق بين سورة الذاريات، وسورة الطور، وسورة النجم، وسورة القمر، وسورة الرحمن مثلا في الترجمة؟ وكل سورة من هذه السور لها نَسَق، ولها جوٌّ، ولها موسيقى، وكيف يحافظ على جوِّ كل سورة ونسقها؟

ففي سورة النجم الألف المقصورة: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ١ ـ ٣].

وفي سورة الطور فاصلة تميِّزُها: ﴿وَٱلطُّورِ ۞ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۞ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۞ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾ [الطور: ١ ـ ٤].

وكذا في سورة الرحمن: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۞ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، كيف يحافظ إذن لكلِّ سُورة على موسيقاها ووقْعها على الأنفس؟!

لا شك أنَّ اختيار نَظْم مُعيَّن له حكمةٌ مُعَيَّنةٌ، وإلا فلماذا كانت: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ على طريقتها هذه وليست على طريقة غيرها؟ لا بدَّ أنَّ هناك حكمة وراء هذا، فالمخاطب هنا مثنَّى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣، ١٦، ١٨، ٢١، وغيرها]، وإذن فادِّعاء ترجمة القرآن هذه عمليَّة غير مُسلَّمة، أمَّا محاولات ترجمة المعاني أو التفسير، لتقريب القرآن إلى الأذهان بقدر الطاقة البشريَّة فلا بأس بها.

QaradawiBooks.com

والمفسِّرون حين يتكلمون عن التفسير يقولون: هو بيان المراد من كلام الله بقدر الطاقة البشريَّة، وهذا في التفسير الَّذي يحمل نفس لغة القرآن، ومع ذلك تختلف فيه الطاقة البشرية، وتبقى فيه مساحةٌ للظن، أيصل إلى المراد أو يقاربه أم لا؟ فهي إذن لا تعدو كونها محاولات.

وقد اقتضت حكمة الله ﷻ أن يكون القرآن عربيًّا بلسان الرسول ﷺ، وبلسان أمته الَّتي تتلقَّى عنه، والمُكَلَّفة بأن تحمل الإسلام إلى العالم، تفهمه هي وتتذوَّقه وتتمثَّله، ويصبح جزءًا من كيانها العقليّ والنفسيّ والروحيّ، وبعد ذلك تترجم هذه الأمة العالمَ إليه.

وقد كان هذا عملهم ـ رضوان الله عليهم ـ أن يترجموا العالم إلى القرآن، لا أن يترجموا القرآن إلى العالم، أن يُعرِّبوا العالم، لا أن يُعَجِّموا القرآن، وهذا ما دأب عليه الصحابة الفاتحون ومن تبِعهم بإحسان: أن ينشروا العربيَّة مع الدين، فينتشر الإسلام وتنتشر العربيَّة معه، ويدخل النَّاس في دين الله، ويدخلون في لغة العرب، ولولا هذا ما كنا نحن عَربًا، فقد عرَّبَنا الإسلام في مصر، وفي شمال إفريقيا، وفي مناطق أخرى، فاستعربنا.

والاستعرابُ أصيلٌ عند العرب، حتَّى إنَّ أفضل العرب وهم العرب العدنانيُّون من عرب الشمال، الَّذين منهم رسول الله ﷺ يسمُّونهم المستعربين أو العرب المستعربة، وهم يختلفون عن عرب الجنوب القحطانيين في اليمن.

ومن أجل ذلك كانت الحكمة في أن يجعل الله القرآن عربيًّا، وإلا لكان الأمر كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فُصِّلَت: ٤٤] فيكون الكتاب أعجميًّا والرسول عربي،

QaradawiBooks.com

ولكن الأمر كما أراد الله أن يكون الرسول عربيًّا، وأن يكون الكتاب عربيًّا، بلسان القوم الَّذين نزل فيهم.

اتِّباع الهدى لا اتِّباع الهوى:

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾: لئن اتَّبعت أهواء هؤلاء، وسِرْتَ وراء ما يطلبون، فهنا يكون الهلاك والخسار؛ لأنَّ أهواء البشر ليس وراءها إلَّا الضلال إذا لم يسندها هدًى من الله ﷻ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، فأهواء البشر لا تُتَّبَع، وهي متناقضة، فكلُّ واحدٍ له هوًى مُعيَّن، يتَّبع مصلحته الخاصَّة، فأيُّ هوى تتبع؟ هوى أهل اليمين أم هوى أهل اليسار؟ هوى الأغنياء أم هوى الفقراء؟!

الهوى لا يُتَّبع، لذا كان التحذير من اتِّباع الهوى لداود: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وللرسول ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] فحذَّره من اتِّباع أهواء الآخرين: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩]، ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨] وهذا يدلُّ على أنَّ هؤلاء من أصحاب الهوى يكيدون، ولا يريدون اتِّباع الحق، بل يريدون أن يجرفوا النَّاس ويُضلُّوهم عن السَّير في ركاب الحق، فلا بدّ من الحذر منهم.

QaradawiBooks.com

وإذا كان هذا تحذيرًا لرسول الله ﷺ ـ وهو مَنْ هو ـ فأولى بنا أن نحذر ونحذر، والكلام يحمل نوعًا من التَّهديد: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: علم الوحي الَّذي أنار لك الطريق، ووضَّح لك المعالم، وأقام الحُجَّة وقطع العذر: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾.

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾: هذا جواب الشرط. والعلماء يقولون: إذا جاء الشرط والقسم ـ إذ اللام في ﴿لَئِنِ﴾ موطِّئة للقسم، والقسم مُقدَّر تقديره: «والله لئن اتَّبعت أهواءهم» ـ فتحذف الفاء من جوابه: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾، ولو كانت «إنْ» الشرطية فقط لقال: «فما لك من الله» ولكن الفاء حذفت من جواب الشرط، ولأنَّ الجملة: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ وقعت جوابًا للشرط وللقسم؛ فلا يوقف عليها قراءة؛ لأنَّ المعنى لم يتمَّ، والجملة لم تنتهِ، أو أنَّها وقعت جوابًا للقسم، وأغنى جواب القسم عن جواب الشرط.

وقد جاءت هذه العبارة: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ في آيات كثيرة في القرآن: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، وغير ذلك ممَّا يحمل التَّحذيرَ من اتِّباع أهواء هؤلاء، ولئن فعلت ذلك: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾: يَلي أمرك وينصرك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾: يقيكَ ويَحميكَ ويدفعُ عنك بأس الله ﷻ، وهذا ومثله كما قال الإمام الزمخشري: من باب «إيَّاكِ أعني واسمعي يا جارة»[1].

(١) الكشَّاف (٣/٥٨٧).

QaradawiBooks.com

فالخطاب للرسول ﷺ، ولكن المقصود به نحن، فالرسول لا يُخشى عليه أن يتَّبع أهواء هؤلاء، ولكنَّه يُخاطَب بمثل هذا الخطاب، ليكون تحريضًا للمؤمنين، وتهييجًا لهم على الحذر من اتِّباع أهواء الضَّالِّين والمضلِّين، وقطعًا لأطماع هؤلاء المؤمنين، لأنَّه إذا كان الرسول يقال له هذا، فما بالكم أنتم؟ فحينئذٍ لا يوجد من المؤمنين من لا يخاف على نفسه، وهذا يرِد في آيات كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧، والأنعام: ١١٤، ويونس: ٩٤]، ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، وهو يحمل التحريض للمؤمنين والتنبيه ليكونوا أبدًا على حذر.

بشريَّة الرُّسل وما لهم من أزواج وذريَّة:

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾: هذه قضية قديمة ذكرها القرآن في مواضع كثيرة من قصص الرسل، وهي أنَّ من النَّاس من يستبعد أن يكون الرسول بشرًا، مع أنَّ هذا هو الموافق للحكمة؛ إذ كيف يبعث الله تعالى للبشر رسولًا من غير البشر؟ ولو حَدَثَ فكيف يأخذون عنه؟ وكيف يتعلَّمون منه؟ وكيف يقتدونَ به؟ وكيف يكون لهم أسوة؟ وكيف يقيم الله عليهم الحُجَّة إذا أرسل إليهم مَلَكًا لا يأكل الطعام ولا يتزوَّج، ولا يحتاج إلى مثل ما يحتاجون إليه؟!

الحكمة اقتضَت أن يبعث الله للبشر رسولًا من جنسهم، من أنفسهم، ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ

QaradawiBooks.com

﴿مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥] إذا كان الَّذين يسكنون الأرض، ويقيمون فيها ملائكة، لنزَّلنا إليهم ملائكة من جنسهم، لكن والحال أنَّ البشر هم الَّذين يسكنون الأرض، ويقيمون فيها، ويمشون مطمئنين، فالمعقول أن يكون الرسول من جنسهم، ومع هذا وُجِدَ من يقول من النَّاس للرسل: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]، وقالوا أيضًا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، وهذا إلى جانب ما أخذوه على الرسول ﷺ أنَّ له أزواجًا وذريَّة ـ هذا إذا اعتبرنا هذا القرآن مدنيًّا ـ أمَّا إن كان مكِّيًّا، فهي زوجة واحدة وهي السيدة خديجة رضي الله عنها.

ولعلهم كانوا يريدونه كالحصور يحيي عليه السلام، أو كالمسيح عيسى بن مريم عليهما السلام لا زوجة له، ولكن كم من رسل الله عليهم السلام كانت لهم أزواج، وكانت لهم ذريَّة؛ بل كل الرسل كانوا كذلك عدا يحيى وعيسى، ومنهم من كانت له مئات الزوجات كما ذكر في التوراة أنَّ سليمان كان له ثلاثمائة زوجة وسبعمائة أَمَة، وداود كانت له مائة زوجة حرَّة ومائتان من الإماء، وهذا لأنَّهم بَشَر، وقد ركَّب الله في البشر تلك الغريزة؛ لأنَّ من ورائها بقاء نوع البشر واستمراره.

ومنهم من لم يكن له ولد، فطلب الأولاد من الله عز وجل، كما فعل إبراهيم عليه السلام، قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٠، ١٠١].

وكما طلب زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، وأيضًا: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥، ٦] إلى آخر هذا، وقد أعطاهم الله الولد، فلستَ بِدْعًا من

QaradawiBooks.com

الرسل أن يكون لك زوج أو أكثر من زوج. وكلمة زوج ـ كما قلنا من قبل ـ كما تكون للرجال، تكون للنساء، فالرجل زوج، والمرأة زوج.

وأن يكون لك ذرِّيَّة فأنت على سُـنَّة الرسل تَسـير، وهذا ليس ممَّا يعيبك؛ بل لتكون قدوةً للناس في حالة الزوجيَّة وفي حالة الأبوَّة، يتأسَّى بك الـزوج في معاملة زوجته، ويتأسَّـى بك الأب فـي معاملة أولاده، ويتأسَّى بك الجد في معاملة أحفاده، فهذا ممَّا يوافق الحكمة الإلٰهيَّة بأن جعلك من أصحاب الأزواج والذرِّيَّة.

ليس بيد الرسل المجيء بالآيات إلَّا بإذن الله:

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: يَـرُدُّ الله تعالـى في هذه الفِقْرة على اقتراحات الَّذين كفروا بإنزال آيات وغير ذلك، فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أتظنُّـون أنَّ الرسـول أيّ رسـول، يستطيع أن يجيب إلى ما طُلب منه من قوم، كلما شاؤوا شيئًا صنعه؟

الرسول هذا بشر من البشر، مبعوث من الله لا يستطيع أن يفعل شيئًا في هذا الكون إلَّا بإذن الله ﷻ، فالكونُ كونُ الله وليس كون الرسـول، والله هو الفعَّال الَّذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ أي: ما صحَّ له ولا استقام، وليس في وسعه: ﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ ممَّا تقترحونه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بمشـيئة الله ﷻ، ومشيئته مرتبطة بحكمته.

وسـواء كانت هذه الآية الَّتي تطلبونها آية حسـيَّة، مثل الآيات الَّتي جاء بها موسـى من العصا واليد، ومثل الآيات الَّتي جاء بها عيسى من إحياء الموتى وإبْراء الأكمه والأبرص بإذن الله وغيرها، ومثل آية صالح

QaradawiBooks.com

الناقة وغير ذلك، أو كانت الآية الَّتي تطلبونها آيةً تنزيليَّة من آيات القرآن، تريدونها مكان آية، أو تريدون حكمًا مكان حكم.

وسواء كانت الآية كونيَّة أو تنزيليَّة، فلا يستطيع الرسول أن يأتي بها إلَّا بإذن الله، وهذا ما قاله الرسل عامَّة لأقوامهم حينما طالبوهم أن يأتوا بسلطانٍ مبين، ومع أنَّ الرسل قد جاء كلُّ واحد منهم بآية، إلَّا أنَّ أقوامهم لا يكتفون بآية واحدة؛ بل يريدون أخرى وأخرى؛ لأنَّ المُتعنِّت لا يقف عند حدّ، قالت الرسل: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١١] فهذا موقف الرسل عامَّة: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

معنى ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾:

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الأجل: هو المدَّة المضروبة المُحدَّدة من الزمن، المعروفة بدايتها ونهايتها. وأجلُ الإنسان: مدَّتُه الَّتي قدَّر الله أن يعيشها في عمره، وكما جاء في قصة سيِّدنا موسى مع الشيخ الكبير، قال الشيخ: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٧، ٢٨] وقد جاء في الحديث أنَّه قضى أوفى المُدَّتَيْن وأبرَّهما[1]، كَرَمًا منه فقضى عشر سنوات.

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢٢٤٦)، والطبراني (١٣٤/١٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٧٤٠): رواه البزار، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه كلام، وبقية رجاله رجال الصحيح خلا عمر بن الخطاب السجستاني، وهو ثقة، ولم يضعفه أحد. عن عتبة السلمي مرفوعًا. ورواه البخاري في الشهادات (٢٦٨٤)، موقوفًا على ابن عباس.

QaradawiBooks.com

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾: كلُّ مدّة من المدد، وكلُّ وقت من الأوقات له كتاب، أي: أمر كتبه الله تعالى وقدَّره، مناسب لهذا الوقت، واقتضته الحكمة الإلٰهيَّة، الَّتي تضع كلَّ شيء في موضعه، وتُظهره في زمانه، عَلِمَ ذلك مَنْ علمه، وجَهِله من جَهِله، فالله ﷻ لا يخلق شيئًا باطلا، ولا يفعل شيئًا عبثًا، ولا يصنع شيئًا اعتباطًا، كما قال أُولو الألباب الَّذين يتفكَّرون في خلق السماوات والأرض: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وكما قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] فكلُّ شيءٍ يمضي وَفْقَ الحكمة الإلٰهيَّة. ومن ذلك أنَّ كل مدّةٍ من الزمن لها حكمها الإلٰهيُّ الَّذي يختصُّ بها ويناسبها، سواء عرف النَّاس ذلك أم لم يعرفوه.

ومن ذلك: الآيات الَّتي تُقترح، فقد يُجيب الله فينزلها وقد لا يُجيب، والذي يفعل ما تقتضيه الحكمة هو الله ﷻ، وهم طلبوا الآيات الحسيَّة والخوارق الكونيَّة الَّتي كانت لبعض الأنبياء من قبل، ولكن الوقت تغَيَّر، والزمن تغَيَّر، والله ﷻ أعطى كلَّ رسول من الآيات ما يناسب زمنه، في هذا الأجل المعيَّن.

فمثلًا كان المناسب لأجل موسى وزمن موسى ومدّة موسى: آية من نوع ما برَع فيه قدماء المصريين، وقد برعوا في السِّحر، وكان السَّحَرة عندهم بالآلاف، فقد مهَروا في هذا الأمر، وبلغوا فيه مبلغًا عظيمًا؛ فكانت آية موسى من هذا النوع: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧، الشعراء: ٣٢]، وحينما رآها فرعون قال: عندنا من هذا كثير، وجَمَع له السَّحَرَة، وأقام مباراة بينهم وبين موسى ظنًّا أن هذا لون من

QaradawiBooks.com

السحر، وكانت المفاجأة أنَّ العصا انقلبت حيّة حقيقيَّة، تلقَف ما صنعوا، فكانت آيةً مناسبة.

وأيضًا حينما بُعثَ عيسى، كانت عند الرومان نهضة وتطوُّر في فنِّ الطب، فجاء عيسى بما يعجز الطب، وهو إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله. فَمَن من الأطباء يستطيع أن يُحيي الموتى، ويُبرئ الأكمه والأبرص؟ لا أحد يستطيع ذلك، ولا أحد يستطيع أن يجعل من الطين طيرًا، فهذا أمر فوق الطب وفوق العلم!

ثم جاء محمد ﷺ ليختم الله به الرسالات، ويختم بشريعته الشرائع، وتكون أمته آخر الأمم، وقد بلغت البشريَّة أَشُدّها ورُشدَها، جاء في أمة صناعتها البيان: الشعر، والنثر، والحكمة، فاقتضت مشيئة الله تعالى القائمة على الحكمة: أن تكون معجزته الكبرى وآيته العظمى آيةً عقليَّة أدبيَّة بيانيَّة، هي القرآن العظيم.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾: مكتوبٌ ممَّا يناسب ما كتبه الله تعالى وقدَّره لكلِّ أجل، وهذا أيضًا داخل في الردِّ على ما طلبه القوم.

وبعض المفسِّرين ـ كالضحَّاك والفرَّاء[1] ـ يقولون: إنَّ في الكلام قلبًا، فلكلِّ أجل كتاب: أي لكلِّ كتاب أجل.

وقال أحدهما: لكلِّ كتاب أجل، أي: لكلِّ أمر كتبه الله أجلٌ ينتهي عنده، فإذا قدَّر أن يهلك هؤلاء القوم في وقت مُعيَّن؛ فلن يتأخَّروا

(١) معاني القرآن للفراء (٦٥/٢)، تحقيق أحمد يوسف النجاتي وآخرين، نشر دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، والمحرر الوجيز لابن عطية (٣١٦/٣)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ولن يُستقدموا ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤، النحل: ٦١] ولا يمكن أن يهلكوا قبل الأوان.

وقال الآخر ـ الضحَّاك ـ: الكتاب هنا كتاب من الكتب المنزلة، يناسب الأجل الَّذي نزل فيه، فالتوراة تناسب الأجل الَّذي نزلت فيه، والإنجيل يناسب الأجل الَّذي نزل فيه، والقرآنُ يناسب المدَّة والأجل الَّذي نزل فيه، ولأنَّ مدّة التوراة محدودة وكذا الإنجيل، فلم يتكفَّل الله بحفظهما، ولأنَّ مدَّة القرآن هي الزمن إلى أن تقوم الساعة، فقد تكَفَّل الله تعالى بحفظه.

ويمكن أن نقول ـ دون حاجة إلى القول بأنَّ في الكلام قلبًا وتقديمًا وتأخيرًا ـ: لكلِّ أجل كتاب، أي: لكلِّ مدَّة الكتاب الَّذي يناسبها، وأنسب الكتب لهذه المدَّة الأخيرة من عمر البشريَّة هو الكتابُ المعجِزُ الخالد المحفوظ، الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: القرآن.

معنى المحو والإثبات:

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ربما سأل السائل: ولماذا تتغيَّر الكتب من أجلٍ إلى أجل؟ ولماذا تتغيَّر الآيات من وقتٍ إلى وقت؟ فتكون حسيَّة في بعض الأوقات، ومعنويَّة في بعض الأوقات؟ ولماذا تتغيَّر الآيات التنزيليَّة وما تتضمَّنه من أحكام بالنسخ؟ ولماذا تتغيَّر الشرائع بأن تنسخ الشريعةُ شريعة أخرى؟ ولماذا تتغيَّر بعض الأحكام في شريعة سابقة بأحكام أخرى في شريعة لاحقة؟ كما قال المسيح: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]؟ ولماذا تتغيَّر الأحكام في الشريعة الواحدة كما في شريعة الإسلام حيث دلَّ على ذلك قوله تعالى:

QaradawiBooks.com

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وحيث دلَّ عليه أيضًا قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠١، ١٠٢]؟

فيكون الردّ على هذه التَّساؤلات: أنَّ التَّغيير والتبديل بالمحو والإثبات هو صُنع الله تبارك وتعالى، وهو صنع يتعلق بمشيئته ﷻ، اقتضته الحكمة الإلٰهيَّة، إنَّه يمحو ويثبت، والمحو: إزالة أثر الشيء. والإثبات: ضد المحو.

وقد اختلف المفسرون في المحو والإثبات: ماذا يمحو؟ وماذا يثبت؟

فهناك من قال: يمحو الأرزاق والآجال.

وهناك من قال: يمحو الآباء ويثبت البنين.

وهناك من قال: يمحو قرونًا ويثبت قرونًا، يهلك قرنًا وينشئ من بعدهم قرنًا آخرين.

وهناك من قال: يمحو اللهُ تعالى ما يشير إليه قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزُّمَر: ٤٢]، فهناك أنفسٌ يقبضها حين المنام، وهناك أنفس يبقيها.

وهناك من قال: يمحُو الذنوبَ بالتوبة، ويبقي ذنوبًا ليس فيها توبة.

وهناك من قال: المحوُ يكون في ديوان الحَفَظة وصُحف الملائكة في ليلة القدر من كل سنة. وذكر عن بعض السلف من الصحابة من كان

QaradawiBooks.com

يدعو ويقول: «اللهـمَّ إن كنت كتبتني عندك شـقيًّا فامحُ هـذا وأثبتني سـعيدًا»، وقد روي هذا عن ابن مسـعود[١] وعن عمـر[٢]، وعن بعض التابعين[٣]، وروي في هذا حديث ضعيف[٤].

وهناك من قال: إنَّ المحو والإثبات يتعلَّـق بالأحكام، والمعنى: أنَّه ينسخ ما يشاء من الأحكام الكليَّة أو الجزئيَّة في شريعته، ويبقي ما يشاء بلا نسخ.

المراد من ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: الأحكام الأصليَّة الَّتي لا يَعْتريها المحوُ ولا التغيير، وهي تشبه ما جاء في سورة آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] فأمُّ الكتاب هي معظـم الكتاب، هـي آيات الأصـول الَّتي تُقـرِّر العقائد والحقائـق الكونيَّة، وأصـولَ الدين، وأصـولَ الشـريعة، وهي الآيات الواضحات القاطعـات الدلالة، الَّتي يُردُّ إليها غيرها من المتشـابهات، فهذه لا تقبل النَّسخ.

وهناك مـن قال: إنَّ المحـو والإثبات ليس في الأحكام الشـرعيَّة، ولكن في الأحـكام القدريَّة، وهي تشـمل الأرزاق والآجـال وغيرها، فيمحو فيها ما يشاء ويُثبت، يعني: ما في صحف الملائكة.

---

(١) رواه الطبراني (١٧١/٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٤٣٦): رجاله رجال الصحيح، إلا أن أبا قلابة لم يدرك ابن مسعود.

(٢) رواه ابن جرير في التفسير (٤٨٢/١٦)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (١٥٦٥).

(٣) رواه ابن جرير في التفسير (٤٨١/١٦)، عن شقيق بن سلمة.

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٧٤)، عن عمر بن الخطاب مرفوعًا.

QaradawiBooks.com

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اللوح المحفوظ الَّذي كَتَبَ الله فيه مقادير الخلائق، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وفي قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١] فهذا الكتاب المبين هو اللوح المحفوظ، هو أمّ الكتاب الَّذي لا تغيير فيه.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ اللوح المحفوظ يمكن أن يتغيَّر، وأنَّ الَّذي لا يتغيَّر هو علم الله تبارك وتعالى، والعلم الأزليُّ لا يتغيَّر بحال؛ لأنَّ علم الله لو تغيَّر لاستحال العلم جهلًا، والعلم صفة تنكشف بها الأشياء على ما هي عليه تمامًا، والله سبحانه يعلمُ الشيء على ما هو عليه، وعلى ذلك يمكن أن تتغيَّر صحف الملائكة، ويمكن أن يتغيَّر ما في اللوح المحفوظ نفسه، ولكن علم الله لا يتغيَّر، فأمُّ الكتاب إذن هي العلم الأزلي.

اللوح المحفوظ فيه علم الله سبحانه الَّذي لا يتغيَّر:

ولكن الَّذي يستشفُّه الإنسان من القرآن في حديثه عن هذا الكتاب: الَّذي كتب الله فيه مقادير الخلق، وفيه علم الله الَّذي وسع كل شيء: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] فهذا هو الكتابُ، وهو أصلُ كلِّ كتاب من كتب أو صحف الملائكة ومن كتب الناس. ولذلك سمَّاها «الأمّ»، فالأمُّ هي الأصل، الَّتي تُردّ إليها الأشياء، كما تقول العرب عن كل شيء أصلٍ لغيره: هو أم.

QaradawiBooks.com

التغيُّر والثبات في عالم الأقدار الكونية:

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: والشاهد هنا أنَّ هناك مستويين، سواء نظرنا إلى عالم الأقدار الكونيَّة، أم إلى عالم الأحكام الشرعيَّة، مستوى منهما يقبل المحو والإثبات، ويقبل التغيير والتبديل، ومستوى لا يقبله، وهذا موجود في عالم الأقدار، ففيه أشياء يمكن أن تتَغيَّر وتتبَدَّل، وأشياء لا تتَغيَّر ولا تتحوَّل.

وإذا سأل سائل: كيف يتغيَّر قدر الله؟

يكون الجواب: يتغيَّر قدر الله بقدر الله، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة عن الشيخ عبد القادر الجيلاني كلمة كانت تعجبه ويردِّدها يقول: ليس الرجل من يستسلم للقدر، إنَّما الرجل من ينازع القدر بالقدر[١].

ولذا يمكن أن تدفع الأقدار بالأقدار، فيدفع الإنسانُ قَدَر المرض بقدر الدواء، فكلاهما قَدَر، وهذا ما جاء في الحديث الَّذي رواه أحمد وغيره: يا رسول الله أرأيت أدويةً نتداوى بها، وتُقَاةً نَتَّقِيها، هل تردّ من قدر الله شيئًا؟ قال: «**هي من قَدَرِ الله**»[٢] وكأنَّهم اعتبروا المسبَّبات مُقَدَّرة، والأسباب غير مُقدَّرة! والصحيح أنَّها من قدَر الله، فيردُّ بها قدر الله.

وقد روي عن سيِّدنا عمر حينما أراد أن يرجع بالصحابة خوفًا عليهم من الطاعون الَّذي كان منتشرًا بالشام، فقال له سيِّدنا أبو عبيدة بن

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥٨/١٠).

(٢) رواه أحمد (١٥٤٧٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف على خطأ فيه. والترمذي (٢٠٦٥) وقال: حسن. وابن ماجه (٣٤٣٧)، كلاهما في الطب، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (١١)، عن أبي خزامة.

QaradawiBooks.com

الجراح: أنفرُّ من قدَر الله يا أمير المؤمنين؟! فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم، نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله[١].

فالأقدار إذن يمكن أن تتغيَّر، وقد تكون هناك أسبابٌ للتَّغيير، وقد تكون منها الأعمال الصَّالحة، ولذلك وَرَدَ أنَّ صِلَة الرَّحم تزيد في العمر، ويتسبّب عنها بسط الرزق[٢].

ووَرَدَ أنَّه: لا يزيد في العمر إلاَّ البرُّ، «ولا يردُّ القَدَرَ إلَّا الدعاء»[٣]؛ لأنَّ الدعاء من القدر أيضًا، وهو سبب من الأسباب، فحينما تأخذ حذرك، أو تتحصن من الوباء، أو تبتعد عن أسباب الهلاك، فأنت بهذا تفر من قدر الله إلى قدر الله، أو تتحصَّن من قَدَر الله بقدر الله، وحينما تدعو الله فأنت بذلك تردُّ بالدعاء ـ الَّذي هو من قَدَر الله ـ قَدَر الله، ولعلَّ هذه كانت فكرة من دعا من الصحابة ـ عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وغيرهما ـ فقال: «اللهمَّ إن كنت كتبتَ عليَّ شقوةً أو ذنبًا فامحُه، فإنَّك تمحو ما تشاء وتُثبت، وعندك أمّ الكتاب، فاجعلْه سعادة ومغفرة»[٤].

ففي مستوى الأقدار يمكن التَّغيير والتَّبديل في هذا الكون، فالله ﷻ يُحوِّل الأحوال، ودوامُ الحال من المحال، ويُغيِّر ما بالأقوام إذا غيَّروا ما بأنفسهم، ويُديل الناسَ بعضهم من بعض: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٢٩)، ومسلم في السلام (٢٢١٩).

(٢) كما جاء في الحديث: «من أحبَّ أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فليصلْ رحمه». متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٨٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٧)، عن أنس بن مالك.

(٣) رواه أحمد (٢٢٤١٣)، وقال مخرِّجوه: حسن لغيره. وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٢)، وابن حبان في الرقائق (٨٧٢)، والحاكم في الدعاء (٤٩٣/١) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن ثوبان.

(٤) سبق تخريجه صـ٣٥٩.

QaradawiBooks.com

﴿ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمـران: ١٤٠]، و﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النـور: ٤٤]، ويخفض ويرفع، ويُعطي ويمنع، ويُعزّ ويذلّ، ويُؤْتي الملك من يشاء، وينزعه ممَّن يشاء، وفي هذا الجو يكون التغيير، ويكون في الأعراض، أمَّا الجوهر فهو ثابت.

ومن القضايا الكبـرى الَّتي نتحدَّث فيها في عصرنـا: قضية الثبات والتطور، ما الَّـذي يثبت؟ وما الَّذي يتطوَّر؟ سـواء فـي الكون أم في الإنسان والحياة، أم في الشرائع والأحكام!

هناك قدر ثابت وقدر متغيِّـر، هناك مَحْوٌ وإثبـات، ولكن هناك أم الكتاب، فالمحْوُ والإثبات واضـحٌ في العالم من حولنـا، حيث تتغيَّر الأشـياء: بلاد تعمر وبلاد تخرب، بحيرات تنشأ وأخرى تزول، والبحر يأكل من اليابسة، واليابسة تردم البحر، والأرضُ تزرع وتخضر، أو تبور وتَتَصَحّر، ولكن النظام الكوني ثابتٌ بسُـنَنه الَّتـي لا تجد فيها تبديلًا، ولا تجد فيها تحويلًا، وبنواميسه الثابتة.

والإنسانُ نفسه يتغيَّر فيه الكثير، يتغيَّر ـ فردًا ـ من الصِّبا إلى الشباب، ومن الكهولة إلى الشيخوخة، ويتحوَّل من الصحَّة إلى المرض، ويتغيَّر ـ جماعة ـ من العصر الحجري، إلى العصر الحديدي، إلى عصر الصناعة، إلى عصر الذرة، ومن الإنسان الَّذي كان يركب الحمار إلى الإنسان الَّذي يركب سـفينة الفضاء، ورغم هذا التَّغيُّر في عالم الأفكار عند الإنسان، وفي عالم الأشياء من حوله، إلَّا أنَّ جوهر الإنسان ثابتٌ كما هو، باعتباره كائنًا مُفكِّرًا، مُريدًا مُختارًا، مُكلَّفًا مسؤولًا، وباعتباره يحمل الخيرَ والشَّرَّ منذ قابيل وهابيل، والأسـرة الأولى الَّتي قتل فيها الإنسانُ أخاه الإنسان إلى اليوم.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

التغيُّر والثبات في الأحكام الشرعيَّة:

والأحكام أيضًا يشملها التغيُّر والثبات، ففي الشريعة الإسلاميَّة هناك أشياء قابلة للتغيُّر وأخرى ثابتةٌ، فأما المتغيِّر فهو ما نقول فيه: إنَّه يتغيّر بتغيُّر الزمان والمكان والإنسان، كالفتوى الَّتي تتغيّر بتغيُّر الزمان والمكان والعُرف والحال، وأمَّا الثابت الَّذي لا يتغيَّر فهو الأحكام القطعيَّات الَّتي أشارت إليها الآية: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] فهذه لا تغيير فيها ولا مَحْوَ ولا إثبات، وما قلناه هو الحكمة أو القاعدة العامَّة، الَّتي يمكن أن نستنبطها من هذه الآية الكريمة: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

على الرسول البلاغ، وعلى الله الحساب:

ثم يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾: أراد الله ﷻ هنا أن يُثبِّت رسوله ﷺ ويُطَمْئن قلبه، فقد كان عليه الصلاة والسلام حريصًا كلَّ الحِرْص على هداية قومه، وعلى أن يستجيبوا له، كما جاء في القرآن: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. وهذا الحرص جعله يشقى ويتعَب كما جاء في سورة طه: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ٢]. فأراد الله ﷻ هنا أن يقول له: اطمئنّ فلا عليك أن يستجيبوا لك، إنَّما عليك شيءٌ واحدٌ هو البلاغ وإيصال الرسالة إليهم، وإنهاء كلمة الله تعالى إلى هؤلاء.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: يعني لا تحتفل باستجابتهم أو عدم استجابتهم فإمَّا نرينَّك ـ والإراءة هنا إراءة

QaradawiBooks.com

بصَريَّة[١]. ونُــري: فعل مضارع من أرى، وهو متعــدٍّ من الفعل رأى ـ بعض الَّذي نعدهم؛ من الإهلاك ونصرك عليهم والانتقام منهم، وهذا بعض ما وُعدوا وليس كله، ومن رحمة الله ﷻ أنَّه لا ينفِّذ كل ما يعد ـ من الوعيد ـ.

كلمة «وعد» في القرآن:

وكلمة «وعد» في القرآن تأتي للخير، وتأتي للشر، والوعد: الخبر عن خيرٍ مضمون، والوعيد: الخبر عن شــرٍّ مضمون، وكلمة «وَعَدَ» و«يَعِدُ» تشمل الأمرين في القرآن ولا نجد فيه «أوعد»، وبعضهم قال: إنَّ «وَعَدَ» للخير و«أَوْعَدَ» للشرِّ. كما قال الشاعر:

وإنِّــي وإن أوعدتُــه أو وَعَدْتُــه لمُخْلِفُ إيعــادي ومنْجِــزُ مَوْعِدِي[٢]

ولكن في القرآن الكريم «وعــد»، والوعد يأتي للأمرين. ومن ذلك: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۞﴾ [الحــج: ٧٢] وتقدَّم في هذه السورة: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ [٣١] ووعــد الله هنــا بالهــلاك، وفــي مواضع أخرى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونــس: ٤٨، والأنبياء: ٣٨، والنمل: ٧١، وسبأ: ٢٩، ويس: ٤٨، والملك: ٢٥].

وفي القرآن وعد للخيــر: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتــح: ٢٩]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التوبــة: ٧٢]، ولعــلَّ قولــه: ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾

(١) ورأى ـ كما نعلم ـ منها البصريَّة، والعِلميَّة، والحُلميَّة.

(٢) من شعر عامر بن الطفيل العامري. انظر: ديوانه صـ ٥٨، نشر دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

QaradawiBooks.com

إشـــارة إلى أنَّ بعض هذا ســـيتحقَّق ويراه النبي ﷺ، وفـــي قصَّة مؤمن آل فرعـــون: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافـــر: ٢٨] فبعض ما يَعِدُ الله مـــن العقاب ـ وعقابه شـــديد: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] ـ كافٍ للعاقل أن يرتدع، ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ قبل وفاتك، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن يصيبهم بعض الَّذي وعدناهم.

وفي الآية قال: ﴿نَعِدُهُمْ﴾ ولم يقل: «وعدناهـــم»؛ لأنَّ الوعد يتكرَّر ويتجدَّد؛ فهو إنذار وراء إنذار.

ما على الرسول إلَّا البلاغ:

فإمَّا نرينَّك أو نتوفينَّك فلا تحتفل بهذا الأمر، فليس عليك هداهُم، وليست عليك اســـتجابتهم، وما هذا ممَّا كُلِّفت به، إنَّما الَّذي كلَّفك الله إيَّاه هو البلاغ، والبـــلاغُ المبيـــن: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩] الَّذي يَصِلُ إلى العقول ويُقنعهـــا، ويصل إلى القلوب، أمَّا هداية القلوب إلى الإسلام، وتطهيرها من موانع الإيمان، كالكِبْر والحَسَد وحُبِّ الدنيا، والتقليد الأعمى وغير ذلك، فهذا «علينا» وليس عليك؛ كما يفيد تقديمُ الجار والمجرور ﴿عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾: ليـــس عليـــك حســـابهم، ولا مؤَاخَذَتُهم على موقفهم منك، ونكولهم عن اتِّباعك، وإعراضهم عن دعوتك بتعنُّتهم واقتراحهم الآيات بلا سبب وبلا مسوّغ.

فالحساب على الله تعالى كما قال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٦].

QaradawiBooks.com

فأدِّ ما عليك من البــلاغ، وقد أدَّيت الأمانة، وبلَّغت الرســالة، ولم تقصِّر، فلا عليك بعد ذلك، واترك الأمر إلينا ندبِّره كيف شــئنا؛ فليس أفضل من تدبيرنا.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۞ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۞ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٤١ ـ ٤٣]

نقص الأرض من أطرافها وكيف يكون:

هؤلاء المُتَعنِّتون الَّذين لم يكفِهم كتابُ الله يُتْلَى عليهم، ويقترحون عليك آية بعد آية، ومرّة بعد مرّة: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، هؤلاء.. ألم يروا بأسَ الله تعالى فيما حولهم؟ ألم يروا صنعَ الله في هذا الكون حيث ينقص الأرض من أطرافها؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾؟

جاء عن بعض المفسِّرين: أنَّ المراد بنقص الأرض من أطرافها أنَّ الله ﷻ يفتح على المسلمين من أرض الكفار، فتنتقص لحساب الإسلام، وهذا يصحُّ لو كانت هذه السورة مدنيَّة، أمَّا وقد رجَّحنا من أوَّل الأمر أنَّ السورة مكيَّة تدلُّ على ذلك عدَّة دلائل، فهذا التفسير لا يستقيم!

ويؤكد هذا أيضًا أنَّه جاء في سورة الأنبياء المكيَّة هذا المعنى: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، ولكن بعض المفسِّرين يخرج من هذا المأزق فيقول: السورة مكيَّة إلَّا هذه الآية: وهذا ليس معقولًا أن تكون السورة مكيَّة وتُنتزع منها آية، ويقال: هي مدنيَّة، ولم يدلّ على ذلك نقل صحيح.

QaradawiBooks.com

والصحيح في معنى الآية: أنَّ الله ﷻ يُديلُ الدول بين الناس، فيأخذ من هذه الدولة لتلك الدولة، فتصغر الدول الكبيرة، وتضيق الدول الواسعة، وتضعف الدول القويَّة: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فالدهر قُلَّبٌ، يومٌ لك، ويومٌ عليك.

فمعنى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾: أو لم ينظروا إلى ما حولهم؟ أو لم يعلموا ما حدث للقرون من قبلهم، وللأمم من قبلهم؟ لم يدم حال دولة من الدول مهما عَظُمت ومهما اتَّسَعَت، فكم من دولة عظيمة دالت، وكم من أمَّة عظيمة سقطت، لحساب أمة أخرى، وهكذا. فهذا هو معنى الآية الصحيح.

وليس معناها أيضًا: أنَّ الله يُضيِّق الكوكب الأرضي بصورة عامَّة كما جاء عن بعض السلف: لو كانت الأرض تضيق لضاق عليك بيتك، ولضاقت عليك حُشّك[1].

وليس معناها أيضًا ما ذكره بعض المعاصرين المُحْدَثين ممَّن يبالغون فيما يسمُّونه «التفسير العلمي للقرآن» أو «الإعجاز العلمي للقرآن» قال: إنَّ الآية تشيرُ إلى حقيقة جغرافية معروفة، وهي أنَّ الأرض غير كاملة التكوير، وهذا تَكلُّف، فقد وردت الآية بصيغة المضارع في فعل النقص: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا﴾، وهو يفيد التَّجدُّدَ والتَّكرار، فالعمليَّة مستمرة، ولو كان المراد أنَّ الأرض ناقصة الأطراف والتكوير لقال: نقصناها. وانتهت، ولكن هذا من الاعتساف في التأويل؛ بحيث يُراد أن يتَّفق القرآن مع النظريات العلميَّة.

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير (٤٩٦/١٦) من قول الشعبي، قال: «لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشُّك، ولكن تنقص الأنفس والثمرات». والحش: البستان.

QaradawiBooks.com

ونحن نقرّ أنَّه يمكن استخدام العلم في فهم القرآن الكريم، وتفسير بعض الآيات بشروط مُعيَّنة: منها: ألا نعتسف في التفسير، فتكون أولا النظرية العلميَّة حقيقة مُقرَّرة، وليست مجرَّد فرض أو نظرية مختلف فيها، وأن تحتمل ألفاظ الآية وعباراتها هذا التأويل دون تَكلُّف ولا تعسُّف[1].

حاكميَّة الله سبحانه:

﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ هو صاحب هذا الكون: ينقص من طَرَف هذه الدولة لحساب دولة أخرى، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويُؤْتي الملك من يشاء، وينْزع الملك ممَّن يشاء، وهذا حُكمه ﷻ، يحكم فلا مُعقِّب لحكمه أي: لا رادَّ لحكمه، وليس هناك من يعقب عليه، أو ينقض حكمه.

قد يأتي مَنْ يحكم مِن البشر، ويأتي أيضًا من يُعقِّب على حكمه، وفي المحاكم محاكم ابتدائية تحكم، ومحاكم استئنافية قد تؤيِّد الحكم وقد لا تؤيِّده، ومحاكم للنقض تنقض الحكم أو تردُّه إلى ما كان، إلى آخر ما يكون مع البشر في أحوالهم، أمَّا والحكم لله فلا مُعقِّب لحكمه، ومن يُعقِّب على حكم الله؟! أيُعَقِّب المخلوق على الخالق؟ لا يمكن أن يكون هذا!

الحاكميَّة الكونيَّة القدريَّة:

والحكم هنا ـ كما يبدو من سياق الآية ـ هو الحكم الكوني، فالله ﷻ له الحاكميَّة، والحاكميَّة نوعان: حاكميّة كونيّة، وحاكميّة شرعيّة ﴿لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فالحاكميَّة الكونية تتَّصل بالخلق، والحاكميَّة

(١) انظر موقفنا من التفسير العلمي في كتابنا: كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ ٣٦٩ وما بعدها، نشر دار الشروق، ط٧، ٢٠٠٩م.

QaradawiBooks.com

الشـــرعية تتَّصل بالأمر، وكثيرًا ما يُراد هذا وذاك: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠، ٨٨] أي: الحكم الكوني، إنَّه هو الَّذي يتصرَّف في الكون كما يشـــاء: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يـس: ٨٢]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافـر: ٦٨]، وهو الَّذي يقْضي في الكون ما يشاء، كما قال سيِّدنا يعقوب لأبنائه، وهو يُوجِّهُهم ألّا يدخلوا من بابٍ واحـد، قال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسـف: ٦٧] والمقصود هنا: الحكم الكونيُّ، فإذا أراد الله أن يصيبهم بأذى فعل، وإذا أراد أن يحميهم حَمَاهم!

الحاكميَّة الشرعيَّة الأمريَّة:

وأحيانا يُراد بالحكم: الحكم الشرعي الأمري التكليفي، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣] فالحكم هنا شرعيٌّ أمريٌّ تكليفيٌّ، وكما قال الله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وكما قال ﷻ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعـام: ١١٤] فهـو الَّذي يُشرِّع ويأمر وينهى.

ومثل ذلك قوله تعالـى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

شيوع مصطلح «الحكم» في كتب أصول الفقه:

الله ﷻ هو صاحب «الحاكميَّة الكونيَّة القَدَريَّة»، و«الحاكميَّة الشرعيَّة الأمريَّة»، وهذا أمر متَّفق عليه بين جميع المسلمين.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومما يؤسف له أن بعض النَّاس في عصرنا يقولون: إنَّ مسألة «الحاكميَّة» هذه اخترعها وابتكرها الأستاذ أبو الأعلى المودودي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأخذها عنه الشهيد سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأنَّ الفكر الإسلامي لم يكن يعرف هذه الحاكميَّة الَّتي قال بها هذان الرجلان العظيمان، إلَّا عند الخوارج.

وهذا للأسف يدلُّ على جهل القائلين، فلو أنَّهم رجعوا إلى كتب أصول الفقه، وعلم أصول الفقه: هو العلم الَّذي يُحدِّد مناهج استنباط الأحكام الشرعيَّة من أدلتها، ويُحدِّد القواعد والأسس لهذا الاستنباط، ممَّا فيه نصٌّ ومما لا نصَّ فيه، لو أنَّهم رجعوا إلى أصول الفقه، لوجدوا أنَّ الأصوليين يبحثون في مُقدِّمات هذا العلم، ومن ضمنها مُقدِّمات عن الحكم الشرعي: ما هو الحكم؟ وما هو المحكوم به؟ ومَنْ هو الحاكم؟ وقد اتَّفقوا على أنَّ الحاكم هو الله، حتَّى إنَّ الرسول نفسَه ﷺ ليس هو الحاكم، وإنَّما هو مُبلِّغٌ عن الله، فالله هو الحاكم، وهو الآمر النَّاهي الَّذي يأمرُ وينهى، ويُحلِّل ويُحرِّم، ويُشرِّع لعباده ما يشاء.

والحاكميَّة الأمريَّة متفرِّعة على الحاكميَّة الكونيَّة، فما دام الله هو المالك لهذا الكون، وهو المُدبِّر لأمره، وهو صاحبُ هذا الوجود والمتصرِّف فيه وحده، فمن حقِّه أن يأمر وينهى بما يشاء، وإن كان لا يأمر ولا ينهى إلَّا بما تقتضيه حكمته، وبما فيه مصلحةُ الخلق، عَرَفوا ذلك أم لم يعرفوا، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تنفعه طاعة مطيع، ولا تضرُّه معصية عاصٍ.

الله سبحانه سريع الحساب:

﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾: سريع المجازاة على ما تفعلونه مع الرسول الَّذي أرسله إليكم، وإذا أمهلكم أو تركم فترة من الزمن، فلا تظنُّوا ذلك غفلة منه أو عجزًا، إنَّه يُجازي في أيِّ

QaradawiBooks.com

وقت وفي أسرعه، فهو سريعُ الحساب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] فيمكن أن يأتيَ حسابُه وجزاؤه بأسرع ممَّا تتصوّرون: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، وهذا في الدنيا، ويمكن أن يُؤخِّر الحساب إلى الآخرة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، كما يمكن أن يُعَجِّل بالجزاء في الدنيا، ويأتيكم هذا الجزاء بَغْتةً من حيث لا تشعرون، فتكونون في أمر؛ وهو يُدبِّر لكم أمرًا آخر، وتمكرون ويمكر الله، وهو خير الماكرين.

مكر الله ومكر الناس:

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾: فإذا مكرتم بمحمد فلستم أوَّل الماكرين، فقد مكرَ الَّذين من قبلكم بأنبيائهم ورسلهم، ودَبَّروا لهم المكايد، ونصبوا لهم المصايد، وكانت العاقبةُ أنَّ المرسلين والأنبياء نجَوا هم والَّذين آمنوا معهم، وأنَّ الماكرين الكافرين هم الَّذين وقعوا في الشَّرَك، ونزلت بهم المهالك: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

والمكر هو إبطال قصد الغير خِفْيَةً دون أن يشعر، أو قصد إيصال المكروه بالغير من حيث لا يشعر.

وهو نوعان: المكر الحَسَن، والمكر السيئ، فإذا تحريّت بمكرك فعلَ الجميل، تريد أن تُوصِّل خيرًا إلى مَنْ يستحقُّه، أو تُوصِّل أذى إلى من يستحقُّه، كظالم بُغيةَ ردِّه عن ظلمه، فهذا مكرٌ محمود، وهذا من مكر الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤، الأنفال: ٣٠].

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهناك مكر مذموم، وهو الَّذي أشار إليه القرآن بقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] وهو مكر الكَفَرة، كما مكرت ثمود بصالح، ولكنَّ الله تعالى خيَّب مكرهم، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠، ٥١]، وكما مكَرَ خصومُ عيسى المسيح به: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وكما مكَرَ المشركون برسول الله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومكْرُ الكفرة مكْرٌ قديمٌ، والله ﷻ يريد أن يُثبِّت رسوله ﷺ، ويهوِّن عليه مكر هؤلاء، وما يكيدون وما يمكرون، فقد مَكَرَ الَّذين من قبلهم ومَنْ هُم أشدُّ قوةً منهم وآثارًا في الأرض، ولكنَّ الله تعالى خيَّب مكرهم، وساءت عاقبتهم، فهو سبحانه أسرعُ مكرًا وأقوى مكرًا: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۞ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۞ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧].

لله سبحانه المكر جميعًا:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾: هذه الصيغة تعني أنَّ المكر كلَّه لله، وكأنَّ مكرهم غير معتبر، أو هو معدوم، إذ مكر المخلوق لا يكون شيئًا إلى جانب مكر الخالق، الَّذي يعلم كلَّ شيء، ويعلم ما تكنُّه الصُّدور، وأنت لكي تحبط مكر مَنْ يمكر بك لا بدَّ أن تعرف ماذا يصنع؟ وماذا يُدبِّر؟ والدول الآن تحاول أن تعرف ما يصنع غيرها، لكي تُبْطل مكرَ أعدائها، وتقيم لذلك الأجهزة، وتنفق عليها الملايين، لتعرِفَ فِيمَ يفكِّرون، وماذا يصنعون، حتَّى تقطع الطريق عليهم، فما بالك بالخالق ﷻ، الَّذي يعلم ماذا يصنع عباده الَّذين خلقهم، وفِيمَ يفكِّرون، والذي يعلم السرَّ، ويعلم

QaradawiBooks.com

ما هو أخفى من السِّر؟ إنَّه هو القادر على أن يُبطل كَيْد الكائدين، ومكر الماكرين، فمكرهم لا يعتبر شيئًا، بجوار مكره ﷻ.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾: هذا نوع من التعليل والتفسير لقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: لأنَّه يعلم ما تكسب كل نفس، وهذا يشمل الكسب الحسِّيَّ والكسب المعنويَّ، أي: ما يظهر على الجوارح، وما يستكنّ في الضمائر، فالله يعلمه كله، وهذا يعني أنَّ الله ﷻ بقدرته يبطل مكر هؤلاء ولا يجعل له أثرًا.

دلالة كلمة «كسب» في القرآن الكريم:

وقد قلنا فيما سبق: إنَّ كلمة «كسب» تعني العمل لاجتلاب منفعة، أو دفع مضرّة، وتُستعمل في القرآن للخير وللشر، وفي الحسنات وفي السيِّئات: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدَّثر: ٣٨]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾ [الأنعام: ٧٠]، ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢]، ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ [البقرة: ٢٠٢]، وهؤلاء الَّذين دعوا في مواقف الحج[1]، وغير هذا من مواضع «كسب».

فالكسب إذن يشمل كل ما يعمله النَّاس من طاعات ومعاصٍ، ومن خير ومن شرّ، وإن كان الأقرب هنا: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أن يكون كسب السيِّئات؛ لأنَّه جاء في معرض التَّهديد والوعيد.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٢].

QaradawiBooks.com

العاقبة للمتقين:

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ في بعض القراءات السبعيَّة: (**وَسَيَعْلَمُ الكَافِرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّار**)[1]، والكافر هنا اسم جنس، والمعنى: وسيعلم جنس الكافر لمن عُقْبى الدار، وهذا تهديدٌ من ناحية، ووعدٌ لرسول الله ﷺ وللمؤمنين من ناحية أخرى، فهي تحمل الوعد والوعيد.

وقوله: ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: لمن سوف تكون العاقبة: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨، والقصص: ٨٣] وللمؤمنين، وسواءٌ فسَّرنا عُقْبى الدار بما يكون في الدنيا من نصر وتمكين، أم فسَّرناها بما يكون في الآخرة كما سبق في السورة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

وعُقْبى الدار: الجنَّة والنَّعيم، فسيعلمُ الكفَّار لمن عُقْبى الدار، كما جاء في سورة الأنعام: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، وقد جَرَتْ سُنَّة الله ﷻ أنَّ العاقبة للمتقين، وأنَّ العاقبة للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

ففي الدنيا ينصر اللهُ الرسل والمؤمنين كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وكما قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وفي الآخرة عاقبة الدار ليست لهؤلاء الكافرين المُكَذِّبين، المُعاندين المُتعنِّتين، وإنَّما هي لمن يستحقُّها: للرسول ﷺ، ولمن آمن به.

(١) في قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تَبجُّح المشركين بتكذيب محمد ﷺ:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ خُتِمت السورة بمقولةٍ من مقولات الَّذين كفروا؛ وقد تكرَّر من قبل ذكر أقوالهم في هذه السورة مرتين: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، ثم جاء هذا القول أيضًا: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي: يقولون: لَستَ رسولًا من عند الله، إنَّما أنت مُدَّعٍ، وقد وصفهم الله ﷻ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ليُسجِّل عليهم الكفر الَّذي غطَّى على عقولهم؛ فلم يعودوا يُميِّزون بين الحق والباطل، ولا بين الصواب والخطأ.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ هنا تعود السورة لما بدأت في أولها ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وهي تدور حول حقيَّة القرآن الكريم، وحَوْل إثبات رسالة محمد ﷺ، وأنَّه لا يحتاج إلى الآيات الَّتي يطلبها هؤلاء المُتعنِّتون، ويقترحها أولئك المعاندون، والتعبير بقوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ ولم يقل: «وقال الَّذين كفروا» دليل على أنَّ هذا القول يَتَجَدَّد منهم ويَتكرَّر.

شهادة الله لمحمد كافية:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قُل يا رسول الله، وردّ عليهم، وأقم عليهم الحجَّة.

وكما قلنا ونقول: إن «قل» في القرآن تدلُّ على أنَّ محمدًا ﷺ مُكَلَّف مأمور، يُلقَّى الكتاب من سُلطة أعلى منه، تأمُرُه وتنهاه، ولذلك فقد وَرَدت كلمة «قل» في القرآن الكريم كلِّه ثلاثمائة واثنتين وثلاثين مرَّة.

QaradawiBooks.com

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ إذا كان من يدَّعي دعوة مُعيَّنة ويريد أن يُثبت هذه الدعوة، يحتاج إلى شهادة شاهد، يشهدُ له بصحَّة الدعوة وبالصدق فيها، فهل تكتفون بالله شهيدًا بيني وبينكم؟ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فشهادة الله تكفي عن كل شهادة.

وقد تكرَّر هذا في القرآن، ففي سورة الأحقاف: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨].

وفي سورة العنكبوت بعد أن رَدَّ الله تعالى على المتعنِّتين من الكافرين الَّذين كانوا يطلبون من محمد آيات حسِّيَّةً، ومعجزات كونيَّةً، قال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

وفي سورة الإسراء: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦].

وفي سورة النساء: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

فليس هناك شهادةٌ أعلى ولا أنْصع، ولا أقوى ولا أدلّ؛ من شهادة الله ﷻ على ما يشهد عليه.

كيف تكون شهادة الله لرسوله؟

وربما يسأل سائل: كيف تكون شهادة الله؟ وما معنى شهادة الله لمحمد ﷺ؟

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

معنى شهادة الله لمحمَّد: أنَّه أظهر الآيات والحُجَج الدالّةَ على صدقه فيما يُبَلِّغ عن ربِّه، وهي شهادةٌ له ﷺ أنَّه رسولٌ مِن ربِّه.

وأبلغُ هذه الآيات، وأعلى هذه المعجـزات: آية القرآن الكريم، فهو الآية الكبرى، والمعجزة العظمى الباقية المسـتمرَّة الَّتي لا تُشـبه آيات النَّبيِّين، إذ قد انتهت آياتهم بمُجرَّد وقوعها، ولولا أنَّ القرآن حدَّثنا عنها ما عرفناها.

وهناك آياتٌ أخرى ومعجزات لرسول الله ﷺ، مثل آية انشقاق القمر، ومثل الإسراء والمعراج، وهذه في مكة المكرمة، أمَّا معظمُ الآيات فقد حدَثت في العهد المدني، وهذه الآيات خُوطِب بها الكفَّار والمشركون، وهذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنَّ الله ﷻ خلَّى بين الرسول ﷺ وبين الدعوة، فإذا كان كاذبًا فكيف تركه الله ﷻ يُضلّ النَّاس ويُفسـد في الأرض؟! وكيف فتح له القلوب لِتَهتـديَ به وتَتَحمَّس له، وتنضمّ إلـى قافلته؟! الله ﷻ لا يترك الضَّال حتَّى يقصمه.

يقـول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقـة: ٤٤ ـ ٤٧] وهذا لو تقوَّل بعض الأقاويل، فكيف لو افتعَل الرسـالة كلَّها من أصلها؟! وكيف لو قال: إنَّه رسول الله وليس برسول؟!

ويقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعـام: ١٤٤]، وهـو سـبحانه لا يهـدي ظالمًـا، فكيف بأظلـم الناس، وهـو الَّذي يفتـري على الله الكذب؟! وهل يترك الله هذا الأظلم ويُخلِّي بينه وبين النَّاس يُضلهم؟!

QaradawiBooks.com

لا يُتصوَّر هذا ولا يكون؛ لأنَّ ترك الضَّالِّ المضلّ ليس من سُنن الله أبدًا، وهو يقول: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١]، فالمفتري لا بدَّ أن يخيب ولا يُفلِح: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١، ١٣٥، ويوسف: ٢٣، والقصص: ٣٧]، كما قال موسى عليه السلام: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

وإذن فمُجرَّد التَّخلية بين محمد وبين النَّاس تعتبر شهادة من الله ﷻ له، فأما أن يُؤيِّده بالمعجزات، والآيات البَيِّنات، وأعظمها القرآن، فهذه شهادةٌ بعد شهادةٍ، وهي شهادةٌ عمليَّة: من ناحية المعجزات وفتح القلوب والعقول له، وهي شهادة قوليَّة: من ناحية أنَّ القرآن كلام الله ﷻ.

ومثل ذلك تأييده ونصره على أعدائه رُغْم كثرتهم وقوَّتهم، وقلَّة أنصاره وضعفهم الماديّ، ففتح الله له فتحًا مُبينًا، ونصره نصرًا عزيزًا.

ولذلك قال بعض الغربيين: ماذا تريد ممَّن يدَّعي لك أنَّه بنَّاء أكثر من أن يبنيَ لك بناء من السَّعة بحيث يَسَع الملايين، ومن المتانة بحيث يعيشُ مئات السنين ـ ويقصد بهذا الإسلام ـ. ويقول: إنَّ الباطل لا يمكن أن يستمر، فمثل الباطل كمثل ورق البنكنوت الزائف، قد يمرّ من يد إلى يدين أو أكثر، ولكنَّه لا يلبث أن يُضْبط ويُعْرف أنَّه زائف، وأمَّا الحق فهو الَّذي يستمر. ويقول: إنَّ دين محمد يتَّبعه مئات الملايين من الناس، وأهله أشَدُّ الخلق تحمُّسًا له من أيِّ أصحاب دين في الأرض، فإذن هذا الدين لا يقوم على أكاذيب، ولكنَّه يقوم على حقائق.

وهذا المعنى قاله «توماس كارليل» صاحب كتاب «الأبطال» الَّذي قال في محمد: إنَّه «بطل في صورة رسول».

QaradawiBooks.com

والنبوَّة هداية، فكيف لكاذب أن يَهْديَ الناس، وأن يُبصِّرَ الحائرين، ويُعلِّمَ الجاهلين، ويأخذ بأيدي النَّاس إلى الله، ويحشرهم في ساحته؟!

فهذا كله يعتبر من شهادة الله ﷻ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾.

القَسَم في سورة الحاقَّة على صدق الرسول الكريم:

وفي سورة الحاقَّة يقول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٧].

في هذه الآيات أقسم الله على صدق نبيِّه، وأنَّ القرآن الكريم كلامُ ربِّ العالمين بلَّغَه رسولُه الكريم محمد ﷺ، أقسم على ذلك بالأشياء كلِّها وبالكون كلِّه: ما يُبْصَر منه وهو القليل، وما لا يُبْصَر وهو الكثير.

قال ابن القيِّم[1]: «وهذا أعمُّ قَسَم وقع في القرآن؛ فإنه يعمُّ العلويَّات والسفليَّات، والدنيا والآخرة، وما يُرى وما لا يُرى، ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والإنس... وكل مخلوق، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيَّته، وهو سبحانه يصرِّف الأقسام كما يُصرِّف الآيات.

ففي ضمن هذا القسم أنَّ كلَّ ما يُرى وما لا يُرى آيةٌ ودليلٌ على صدقِ رسولِهِ، وأنَّ ما جاء به هو من عند الله، وهو كلامه لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن صـ ١٧٥ وما بعدها، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر دار المعرفة، بيروت.

QaradawiBooks.com

ومن تأمَّل المخلوقات ما يراه منها وما لا يراه، واعتبر ما جاء الرسول بها، ونقل فكرته في مَجَاري الخلق والأمر: ظَهَرَ له أنَّ هذا القرآن من عند الله، وأنَّه كلامه، وهو أصدقُ الكلام، وأنَّه حقٌّ ثابتٌ، كما أنَّ سائر الموجودات ما يُرى منها وما لا يُرى حقٌّ... فكأنَّه سبحانه يقول: إنَّ القرآن حَقٌّ كما أنَّ ما تشاهدونه من الخلق وما لا تشاهدونه حقٌّ موجود، بل لو فكَّرتم فيما تُبْصرون وما لا تُبصرون لدلَّكم ذلك على أنَّ القرآن حقٌّ.

ثمَّ ذكر سبحانه المُقْسَم عليه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [الحاقة: ٤٠]، وهذا رسولهُ البشري محمد ﷺ، وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبْين دليل أنَّه كلام المرسِل... ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولًا.

ثم بيَّن سبحانه كذبَ أعدائه وبهتهم في نسبةِ كلامه تعالى إلى غيره، وأنَّه لم يتكلم به؛ بل قاله من تلقاء نفسه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖ﴾ ﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢].

القرآن تنزيل من رب العالمين:

ثم أخبر سبحانه أنَّه ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٣] وذلك يتضمَّن أمورًا منها:

أنَّ ربوبيَّته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سُدًى: لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يُرشدهم إلى ما ينفعهم، ويُحذِّرهم ما يضرُّهم؛ بل يتركهم هملًا بمنزلة الأنعام السائمة!

فمن زعم ذلك لم يَقْدُر ربَّ العالمين قَدْرَه، ونَسَبه إلى ما لا يليقُ به تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

QaradawiBooks.com

ثم أقام سبحانه البرهانَ القاطعَ على صِدق رسوله، وأنَّه لم يَتَقوَّل عليه فيما قاله، وأنَّه لو تقوَّل عليه لما أقرَّه، ولعاجَله بالإهلاك؛ فإنَّ كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقرَّ من تَقَوَّل عليه، وافْتَرى عليه، وأضلَّ عباده، واستباح دماء من كذَّبه وحريمهم وأموالهم، وأظهر في الأرض الفساد والجَوْر والكذب، وخالف الخلق، فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقرَّه على ذلك؟

بل كيف يليق به أن يُؤيِّده وينصره، ويُعليه ويُظهره، ويُظفره بأهل الحق: يسفك دماءهم، ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم، قائلًا: إنَّ الله أمرني بذلك وأباحه لي؟

بل كيف يليق به أن يُصدِّقه بأنواع التَّصديق كلِّها؛ فيصدِّقه بإقراره، وبالآيات المستلزمة لصدقه، الَّتي دلالتها على التَّصديق كدلالة التَّصديق بالقول وأظهر، ثم يُصدِّقه بأنواعها كلها على اختلافها. فكلُّ آية على انفرادها مُصدِّقة له، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديقٌ فوق تصديق كلِّ آية بمفردها، ثم يُعجز الخلقَ عن معارضته، ثم يُصدِّقه بكلامه وقوله، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أنَّ هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله.

فمن أعظم المُحال، وأبْطل الباطل، وأبْيَن البهتان، أن يجوزَ على أحكم الحاكمين وربِّ العالمين أن يفعلَ ذلك بالكاذب المفتري عليه، الَّذي هو شرُّ الخلق على الإطلاق.

فَمَنْ جوَّز على الله أن يفعل هذا بِشَرِّ خلقه وأكذبهم، فما آمن بالله قطعًا، ولا عَرَف الله، ولا هذا هو ربُّ العالمين ولا يحسن نسبة ذلك إلى من له مُسْكةٌ من عقل وحكمة وحِجًى. ومن فعل ذلك فقد أزْرى بنفسه، ونادى على جهله».

QaradawiBooks.com

محاورةٌ بين ابن القيِّم وأحد كبار أحبار اليهود:

وقد ذكر ابن القيِّم هنا وفي عدد من كتبه مناظرةً جَرَت له في مصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرياسة، قال: «فقلت له في أثناء الكلام: أنتم بتكذيبكم محمدًا ﷺ قد شتمتُم اللهَ أعظمَ شتيمة. فعجِب من ذلك، وقال: مثلك يقول هذا الكلام؟

فقلت له: اسمع الآن تقريره:

إذا قلتم: إنَّ محمدًا مَلِكٌ ظالم، قهر النَّاس بسيفه، وليس برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثًا وعشرين سنة، يَدَّعي أنَّه رسول الله، أرسله إلى الخلق كافة ويقول: أمرني الله بكذا، ونهاني عن كذا، وأوحى إليَّ كذا، ولم يكن من ذلك شيء.

ويقول: إنَّه أباح لي سَبْي ذَرَاري مَنْ كذَّبني وخالفني... ولم يكن من ذلك شيء. وهو يدأب في تغيير دين الأنبياء، ومعاداة أممهم ونسخ شرائعهم، فلا يخلو: إما أن تقولوا: إنَّ الله سبحانه كان يَطَّلع على ذلك ويشاهده ويعلمه، أو تقولوا: إنَّه خَفِيَ عنه ولم يعلَم به.

فإن قلتم: لم يعلَم به؛ نسبتموه إلى أقبح الجهل، وكان من علِم ذلك أعلم منه.

وإن قلتم: بل كان ذلك كله بعلمه ومشاهدته واطِّلاعه عليه؛ فلا يخلو: إمّا أن يكون قادرًا على تغييره، والأخذ على يديه ومنعه من ذلك، أوْ لا، فإن لم يكن قادرًا فقد نسبتموه إلى أقبح العجز المنافي للربوبيَّة.

وإن كان قادرًا وهو مع ذلك يُعزّه وينصرُه ويُؤيِّده، ويُعليه ويُعلي كلمتَهُ، ويُجيب دعاءه، ويُمكِّنه من أعدائه، ويُظهر على يديه من أنواع

QaradawiBooks.com

المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف، ولا يقصده أحدٌ بسوء إلَّا أظفره به، ولا يدعوه بدعوة إلَّا استجابها له، فهذا من أعظم الظلم والسَّفَه الَّذي لا يليقُ نسبته إلى آحاد العقلاء، فضلًا عن ربِّ الأرض والسماء، فكيف وهو شهد له بإقراره على دعوته، وتأييده بكلامه، وهذه عندكم شهادة زور وكذب؟!

فلمَّا سمع ذلك، قال: مَعَاذَ الله أن يفعلَ الله هذا بكاذبٍ مفْترٍ! بل هو نبيٌّ صادق، مَن اتَّبعه أفلح وسعد.

قلت: فما لك لا تدخل في دينه؟

قال: إنَّما بُعِث للأميِّين الَّذين لا كتاب لهم، وأمَّا نحن فعندنا كتاب نتَّبعه.

قلت له: غُلِبتَ كل الغلب، فإنَّه قد عَلِم الخاصُّ والعامُّ: أنَّه أخبر أنَّه رسول الله إلى جميع الخلق، وأنَّ مَن لم يتَّبعه فهو كافرٌ من أهل الجحيم، وقاتل اليهودَ والنصارى ـ وهم أهل كتاب ـ وإذا صحَّت رسالته، لزم تصديقه في كلِّ ما أخبر به، فأمسك ولم يُحْرْ جوابًا»[1] اهـ.

هذا هو نصر الله الَّذي وعَدَ به رسولَه محمدًا ﷺ وفاضت به سُور القرآن، ونطقت به آياته البيِّنات، وقد امتلأ قلبُ محمد إيمانًا به، وأملًا فيه، ولم يتسَرَّب إلى قلبه في لحظة من اللحظات ذرَّةٌ من شك في أنَّ الله ناصره على عدوِّه، ومُؤيِّده على مُكذِّبيه، فهو وعدُ الله الَّذي لا يتخلَّف، وسنَّة الله الَّتي لا تتبدَّل: أن تكون العاقبة لرسله والهلاك

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (٣٨٤/٢، ٣٨٥)، تحقيق محمد أحمد الحاج، نشر دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

لأعدائهم: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

غير مرخصة للطباعة

ثقة الرسول ﷺ بنصر الله:

وقد مرَّت بمحمد مِحَنٌ وأزماتٌ، تشيبُ من هَوْلها ناصيةُ الوليد، وأحاطت به أحداثٌ رهيبة، ابتليَ فيها المؤمنون، وزُلزلوا زلزالًا شديدًا، وبلغت القلوب الحناجر، وظنَّ النَّاس بالله الظنون، ولو لم يكن موقنًا كلَّ اليقين بدعوته، واثقًا كل الثقة بنُصرته، لخارت قواه، أو ارتاب فؤاده أو ـ على الأقل ـ سكت حتَّى تمرّ الأزمة، وتهدأ العاصفة، وتنقشع سحابة المحنة، كلا، إنَّه كان في أشدِّ الأوقات حلوكةً وظلامًا، يُرَدِّد آيات النصر، ويُعلن أنَّ الله مُؤيِّدٌ كتابَه، ومُظهرٌ دينَه، ومهلكٌ عدوَّه، وإنَّ أرجى ما يكون النصر إذا استحكمت حلقات الخطوب، وتراكمت ظلمات الكروب، وهَجَم اليأس بعسكره على القلوب.

ألم يقرأ في آيات كتابه العزيز: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

وفي السيرة المحمديَّة مصداقُ ما نقول: ففي مكة ظلَّ محمد رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عامًا يدعُو إلى الله، ويُربِّي الجيل الأول، وقاسى هو وصحبه من الإيذاء والتعذيب والصدِّ والمقاطعة ما قاسوا، حتَّى أُخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حقٍّ: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وعاشوا بعد الهجرة في صراع دامٍ، وجهادٍ مُتَّصل، فقد رَمَتهم

QaradawiBooks.com

العرب عن قوس واحدة، وبعد سبع وعشرين غزوة، وبضع وخمسين سريَّة، جاء نصرُ الله والفتح، ودخل النَّاس في دين الله أفواجًا، وعَلَتْ كلمةُ الله على كلمة الطاغوت.

عَلامَ يدلُّ هذا النصر والتأييد والفتح الَّذي ظفر به محمد؟ ذلك النصر الَّذي لم يخْلُ عن اليقين بحصوله في أحلك الأزمات وأحرج الساعات، ذلك النصر الَّذي جاءه بعد أن أخرجه قومه من داره واضطهدوه وأتباعَه، وتمالأت عليه الوثنيَّة الفاجرة، واليهوديَّة الماكرة.

علامَ يدلُّ هذا؟ وماذا نسميه؟

يدلُّ هذا على أنَّ محمدًا الَّذي أيَّده الله بنصره، وأمدَّه بروح من لدنه، رسولٌ من عند الله صدَّقه الله بهذا النصر كما صدَّق المرسلين قبله، ونُسمِّي هذا ـ كما سمَّاه القرآن ـ شهادةً من الله لمحمَّد بأنه صادقٌ فيما يقول وما يُبلِّغ عنه، ليس بكاذب ولا ضالّ ولا غاوٍ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١ ـ ٤].

ولو كان محمد كاذبًا في نبوَّته، مفتريًا على ربِّه، مُنْتَحِلًا ما ليس له، ما خلَّى الله بينه وبين عباده يضلّهم ويغويهم، ويكذب عليهم، ويُكلِّفهم ما لم يكلِّفهم الله به، فَضلًا عن أنْ يُؤيِّده بالآيات البيِّنات، ويفتح له القلوب، ويخضع له الرقاب، ويُمكِّن له في الأرض، ويُصدِّقه في تَحدِّيه، ويُحقِّق له نبوءاته، ويُذلِّل له العقبات، ويُهيِّئ لدعوته أسباب الفلاح.

فليس من حكمة الله تعالى أن يترك الكذَّابين المفترين عليه، دون أن يُهلكهم أو يفضحهم، ويُبيِّن حقيقة أمرهم على ملأ من الناس، فإنَّ سُنَّةَ

QaradawiBooks.com

الله أن يُحقَّ الحقَّ ويُبطل الباطل، وليس من سُـنَّته أبـدًا أن يُبْطل الحقَّ ويظهر الباطل.

ولهذا ذكر القرآن على لسان موسى حين جاء سَحَرَةُ فرعون يتَّحدَّونه، وألقَوا حبالَهُم وَعِصيَّهُم وسَحَروا أعين النَّاس واسترهبوهم.. قال موسى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ [يونس: ٨١]، وجاء في القرآن: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨].

ويقول الله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧]، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

وجاء في سورة الشورى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤].

فمعنى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: إن يشأ الله يُنْسِك القرآن، ويقطع عنك الوحي ـ كما جاء عن المفسِّر المعروف قتادة[1] ـ فكان هذا جوابًا لهم، وتكذيبًا لقولهم: إنَّ محمدًا كذَب على الله، افترى عليه هذا القرآن، فأجابهم بأحسن جواب، وهو أنَّ الله تعالى قادرٌ لا يُعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه فلا يُمكنه أن يأتيَ بشيء منه؛ بل يصيرُ

(١) الكشَّاف للزمخشري (٢٢٢/٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

القلب كالشيء المختوم عليه، فلا يوصِل إلى ما فيه، فيعودُ المعنى إلى أنَّه: لو افتراه عليّ لم أُمكِّنه ولم أقرّه.

ومعلوم أنَّ مثل هذا الكلام ـ الَّذي هو القــرآن ـ لا يصدر من قلب مختوم عليه، فإنَّ فيه من علوم الأوَّلين والآخرين، وعلمِ المبدأ والمعاد، والدنيا والآخرة، والعلم الَّذي لا يعلمــه إلَّا الله، والبيان التامّ، والجزالة والفصاحة والجلالة، والإخبار بالغيوب: ما لا يمكن مَنْ ختم على قلبه أن يأتيَ به ولا ببعضه، فلولا أنِّي أنزلته على قلبه، ويَسَّــرته بلسانه، لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه[1].

ولْنقرِّب ذلك إلى الأذهان بمثلٍ نضربه: هَبْ أنَّ رجلًا ذهب إلى إقليم من أقاليم مملكة، وادَّعى لأهلها أنَّه منــدوبُ الملِك إليهم، وأنَّه مُفَوَّض من قبله، ونُصِّبَ أبدًا عليهم، وقد أخذ فعلًا يباشــر سلطانه، يأمر وينهى ويَجْبي الأمــوال، ويقيم العقوبات، ويُخضع الرقــاب، والملِك قد عرف دعواه، وعلم بقصَّته ومع هذا سكت عليه، وخلَّى بينه وبين الرَّعيّة، وكان قادرًا بما عنده من عدَّة وعدَد: أن يبعث إليه مَنْ يُزيله عن سلطانه، ويُبيِّن للناس كذبَه وتضليله ـ إن كان كاذبًا مضلًّا ـ ولكنَّه لم يفعل بل هيَّأ له كل أسباب النجاح والانتصار، وأزال مِن طريقه كل الموانع، ومكَّنه من أعناق معارضيه، وبعث لــه بالمدد بعد المدد، أفليس هــذا دليلًا أوضحَ دليل، وبرهانًا أنصعَ برهان على صدق هذا الرجل فيما ادَّعى به على الملك؟

هذا الدليل كافٍ كلَّ الكفاية في إثبات النبوَّة المحمديَّة لكلِّ من كان يؤمن بالله العليِّ الكبير، ويؤمن بهيمنته على الكون، وحُسْن تدبيره له، وسموِّ حكمته، وكمال عدله وبرِّه بخلقه.

(١) انظر: التبيان في أقسام القرآن لابن القيم صـ ١٨٥، ١٨٦.

QaradawiBooks.com

ومن لم يكن مؤمنًا بإلٰهٍ للكون، فيكفي أن يكون مؤمنًا بما في الكون من سُنن عادلة، وما للحياة والطبيعة من صدق.

شهادة المنصفين من أهل الكتاب:

وهذا ما وضحه الفيلسوف البريطاني كارلايل في كتابه «الأبطال» حين عقد المحاضرة الثانية من كتابه للبطل في صورة رسول؛ فاختار بطله محمدًا ﷺ.

قال الفيلسوف البريطاني «توماس كارلايل»: لقد أصبح من أكبر العار على كلِّ فرد مُتَمَدْيِن في هذا العصر أن يصغي إلى ما يظنُّ من أنَّ دين الإسلام كذبٌ، وأنَّ مُحَمَّدًا خدَّاع مزوِّر، وآن لنا أن نحاربَ ما يُشاع من هذه الأقوال السَّخيفة المخْجِلة، فإنَّ الرِّسَالة الَّتي أبداها ذلك الرَّسُول ما زالت السِّراج المنير مدة اثني عشر قرنًا لنحو مائتي مليون (هم الآن أكثر من ألف مليون من الناس)[1] أمثالنا، خلقهم الله الَّذي خلقنا! أكان أحدكم يظنُّ أنَّ هذه الرِّسَالة الَّتي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر أكذوبة وخدعة؟!

أمَّا أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدًا، فلو أنَّ الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرَّواج، ويصادفان منهم ذلك التَّصديق والقبول، فما النَّاس إلَّا بُلْه ومجانين، وما الحياة إلَّا سخف وعبث وأضلولة، كان الأوْلى بها ألَّا تُخلَقُ[2].

وقال الكاتب الفيلسوف الروسي «توليستوي»: وممَّا لا ريْب فيه أنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا كان من عِظَام المصلحين الَّذين خدموا المجتمع

(١) وصاروا الآن أكثر من (١,٦) مليار مسلم.

(٢) الأبطال صـ ٥٨، ترجمة محمد السباعي، نشر دار الكاتب العربي للتأليف والترجمة، بيروت.

QaradawiBooks.com

الإنسـانيَّ خدمة جليلة، ويكفيه فخرًا أنَّه هدى أمَّـة برمَّتها إلى نور الحقِّ، وجعلها تجنح للسكينة والسـلام، وتُؤْثر عيشةَ الزهد، ومنعها من سـفْك الدماء، وتقديم الضحايا البشـريَّة، وفتح لها طريق الرُّقيّ والمدنيَّة، وهو عملٌ عظيم لا يقوم به إلَّا شـخص أُوتيَ قوة، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام.

وعلَّل «**مونتيه**» طعـنَ بعض الغربيين على الرسـول بقولـه: كثيرًا ما حُكِمتْ عليه الأحكام القاسية، وما ذلك إلَّا لأنَّه نَدَرَ بين المصلحين من عُرِفـت حياتهم بالتفصيل مثله، وأنَّ ما قـام به من إصلاح الأخلاق وتطهير المجتمع، يمكن أن يُعَدَّ به من أعظم المحسنين للإنسانية. وقال: لا مجال للشك في إخلاص الرسول وحماسته.

وقال جان جاك روسو: من النَّاس من يتعلَّم قليلًا من العربيَّة، ثم يقرأ القرآن ويضحك منه، ولو أنَّه سَمِع محمدًا يمليه على النَّاس بتلك اللغة الفصحى الرفيعـة، وذاك الصـوت المقنع المطرب المؤثِّر في شَـغاف القلوب، ورآه يؤكد أحكامه بقوة البيان لخرَّ ساجدًا على الأرض، وناداه: أيها النبيُّ رسول الله، خذ بأيدينا إلى مواقف الشرف والفخار، أو جوامع التهلكة والأخطار، فنحن من أجلك نودُّ الموت أو الانتصار.

من ثمارهم تعرفونهم:

وفي إنجيل «متَّـى»: «احذروا من الأنبياء الكَذَبَـةِ، الّذين يأتوكم بلبـاسِ الحُمْلانِ، وهـم في الباطـنِ ذئـابٌ خاطفة، مـن ثمارِهم تعرِفونهم.. هل يُجْتَنَى من الشَّـوكِ عِنَبٌ، ومن العَوْسج تِينٌ؟! هكذا كلُّ شجرةٍ صالحةٍ تُثمِرُ ثمرًا جيِّدًا، والشَّجرةُ الفاسدةُ تُثمرُ ثمرًا رديئًا، لا تسـتطيع شـجرةٌ صالحةٌ أن تُثمرَ ثمرًا رديئًا، ولا شجرةٌ فاسدة أن

QaradawiBooks.com

تُثمرَ ثمرًا جيدًا. كلُّ شجرةٍ لا تُثمِرُ ثمرًا جيِّدًا تُقطَعُ وتُلقى في النّار. فمن ثمارِهم تعرِفونهم»[1].

هذا كلام تلوح عليه أنوار النبوَّة، ويجدِرُ بكلِّ مسيحيٍّ، بل بكلِّ عاقل أن يتأمَّل فيه:

فهو ـ أولًا ـ لم يُغلِق باب النُّبوَّة من بعده، ولم يقل: إنَّه خاتم النبيين، فكل من ادَّعى النبوَّة بعده كاذبٌ دجَّال، كلا، وإنَّما حذَّر فقط من المتنبئين الكذَّابين.

ثم هو ـ ثانيًا ـ قد وَضَع في أيدي أتباعه، بل في يدي كلِّ عاقل ميزانًا سليمًا؛ يمكن أن يعرف به الأدعياء الدَّجَّالين من الأنبياء الصَّادقين: «ومن ثمارهم تعرفونهم».

فما أشبه نفس الإنسان بالشجرة، وما أشبه أقواله وأعماله وأخلاقه بالثمرة! فإذا أردنا أن نعرفَ حقيقة صاحب دعوة، ونكشف عن دخيلة نفسه، فلننظر بعين البصيرة فيما جاء به من أقوال، وما قام به من أعمال، وما تركه للناس من آثار!

وهذا المعنى الكبير قد أثبته القرآن، وأكَّده في غير موضع منه؛ مُعلنًا أنَّ الكاذب على الله لا يفلح، وأنَّ الله لا يهديه؛ لأنَّه تعالى لا يهدي القوم الظالمين، ولا يصلح عمل المفسدين، ولا يهدي من هو مُسرف كذَّاب، وليس من سنَّته تعالى أن يُؤيِّد الكذب على الصِّدق، وينصر الباطل على الحق؛ بل من سُنَّته أن يَقذف بالحقِّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، وأن يخيِّب المفتري، ويفضح المنافق الدجَّال: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

---

(١) إنجيل متَّى (٧/١٥ ـ ٢٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقد يـــروجُ الكذب فترة من الزمـــن، ويُملي الله للـــكاذب حينًا من الدهر، ثم سرعان ما يأخذه الله أَخْذَه الأليم الشديد، فيكشف ستْره، ويُبيد من الأرض ذكره، ويجعله سَلَفًا ومثلًا للآخرين.

نقول: هذا المعنى الكبير قد أثبتته نصوص كثيرة من أســفار العهد الجديد المقدَّســة عند النصارى، وأســفار العهد القديم المقدَّســة عند الطائفتين: النصارى واليهود.

ففي الزبور الأول من العهد القديم آيــة ٧: «لأنَّ الربَّ يعرفُ طريقَ الصِّدِّيقين. وطريقُ المنافقين تهلك».

وفي الزبور الخامس آية ٦: «وتُهلــك كلّ الَّذين يتكلمون بالكذب، الرجل السافك الدماء، والفاسق يرذله الرب».

وفي الزبور الرابع والثلاثين آية ١٦: «وجه الربِّ على الَّذين يعملون المساوئ ليُبِيدَ من الأرض ذِكْرَهم».

وفي الزبور الســابع والثلاثين آية ١٧: «لأنَّ ســواعد الخطاة تُكْسر، والرب يعضد الصِّدِّيقين».

الآيــة ٣٠: «الخطاة فيهلكون، وأعــداء الرب جميعًــا ـ إذ يمجِّدون ويرتفعون ـ يبيدون، وكالدخان يفنون».

فلو لم يكــن محمد من الصِّدِّيقين، وكان مــن الخُطاة وأعداء الربّ المفترين عليه، لأنجز الله فيه هذا الوعيدَ، وأعمل فيه هذه السنن الإلٰهيَّة الصَّارمة، فأهلك طريقه وطمَســها، وجعله مرذولًا مدحــورًا، وأباد من الأرض ذكره، وكسر سواعده، وأفناه كالدخان!

QaradawiBooks.com

ولما كان أمـر محمد بعكس هذا كلـه، وإنَّما هو الفتـح المبين: فتحُ القلوب بالإيمان، وكثرة الأتباع، وفَتْحُ البلدان والقُرى وخضوع المستكبرين.

وإنَّما هو النصر العزيز: النَّصر على الوثنيَّة، وعلى المجوسيَّة، وعلى اليهوديَّة، وعلى النصرانيَّة.

وإنَّما هـو الذكر المرفوع تصلِّي آلاف الألسـنة؛ بـل ملايينها على محمد حبيبها وشـفيعها وهاديها، في الصلوات والأذان والإقامة وسائر الأذكار والدعوات:

ألـم تَـرَ أنَّ اللهَ خلَّـد ذِكْـرَهُ إذا قال في الخمسِ المؤذِّنُ: أشهدُ؟!
وشـقَّ لـه مـن اسْـمِه لِيُجِلَّـه فذو العـرش محمودٌ وهـذا محمَّدُ[1]**!**

قال الشيخ العلامة رحمة الله الهندي في كتابه القيِّم: «إظهار الحقِّ»: إنَّه عليه السلام ادَّعى بين قوم لا كتاب لهم ولا حكمة فيهم: أنِّي بُعثت من عنـد الله بالكتاب المنيـر والحكمة الباهرة؛ لأنـور العالم بالإيمان والعمل الصَّالح.

وانتصب ـ مع ضعفه وفقره، وقلة أعوانه وأنصـاره، مُخالفًا لجميع أهل الأرض: آحادهم وأوساطهم، وسلاطينهم وجبابرتهم، فَضَلَّل آراءهم، وسَفَّه أحلامهم، وأبْطل مللهم، وهَدَم دولهم، وظهر دينه على الأديان في مدَّة قليلة، شـرقًا وغربًـا، وزاد على مرِّ الأعصار والأزمـان، ولم يقدر الأعداء، مع كثرة عَدَدهم وعُددهم، وشدَّة شـوكتهم وشكيمتهم، وَفَرْط تعصُّبهم وحميَّتهم، وبذْلهم غاية جهدهم، فـي إطفاء نور دينه، وطمس آثار مذهبه، فهل يكون ذلك إلَّا بعون إلٰهيّ وتأييدٍ سماويّ؟!

(١) البيتان لحسان بن ثابت، في ديوانه صـ ٥٤، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

ولنعم ما قال عمالائيل معلّم اليهود لهم في حقِّ الحواريين من أصحاب عيسى (الباب الخامس من كتاب الأعمال): «يا أيُّها الرجال الإسرائيليون: احترزوا لأنفسكم من جهة هؤلاء النَّاس (الحواريين) فيما أنتم مزمعون أن تفعلوا، لأنَّه قبل هذه الأيام قام «ثوداس» قائلًا عن نفسه: إنَّه شيء. الَّذي التصق به عدد من الرجال نحو أربعمائة، الَّذي قتل وجميع الَّذين انقادوا إليه تبدَّدوا وصاروا لا شيء.

بعد هذا قام «يهوذا الجليلي» في أيام الاكتتاب، وأزاغ وراءه شعبًا غفيرًا، فذاك أيضًا هَلَكَ، وجميع الَّذين انقادوا إليه تَشتَّتوا. والآن أقول لكم: تَنَحُّوا عن هؤلاء النَّاس واتركوهم؛ لأنَّه إن كان هذا الرأي، وهذا العمل من النَّاس فسوف ينتقض. وإن كان من الله فلا تقدرون أن تنتقضوه؛ لئلا توجدوا محاربين لله أيضًا[1] اهـ.

وهذا الَّذي قاله المعلِّم اليهودي حقٌّ ناصعٌ، أيَّدته وقائع التاريخ.

فكم من مُدَّعين دجَّالين هلكوا وباد ذكرهم، وتَشتَّت أتباعهم، وذهبت دعوتهم، كأن لم تكن شيئًا مذكورًا.

وقد أدرك بعض مشركي قريش هذه الحقيقة، بما بقي في فطرتهم من نور الله، ففي إحدى معارك المشركين مع الرسول، جاء مندوب قبيلة عربيَّة (غِفار) إلى قريش، يعرض عليهم المساعدة العسكريَّة بالسلاح والرجال لحرب محمد وأصحابه، فقال أحد عقلاء المشركين كلمة عاقلة ما أشبهها بكلمة «عمالائيل» لليهود، قال: أمَّا إن كُنَّا نحارب محمدًا

(١) إظهار الحق (١٠٧٤/٤، ١٠٧٥)، تحقيق محمد ملكاوي، نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية، السعودية، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

QaradawiBooks.com

وأصحابه فإنهم قلَّة، وإنا عليهم لقادرون، وإن كنا نحارب الله ـ كما يزعم محمد ـ فما لأحد بحرب الله من طاقة.

وقد بان للقوم أنَّهم لم يكونوا يحاربون محمدًا وأتباعه القليلين، وإنَّما كانوا يحاربون الله جلَّ جلاله، فحقَّت عليهم الغَلبة والهزيمة، وهذا ما جعل فرسان قريش ودهاتها يهاجرون باختيارهم إلى محمد، معلنين إسلامهم، وانضمامهم بقلوبهم وسيوفهم للدين الجديد، فهذا خالد بن الوليد، وهذا عمرو بن العاص، وغيرهم!

النبي معجزة كاملة وبرهان على نبوّته:

ولقد كان جلال الدين الرومي الصوفي الكبير يرى أنَّ النَّبي ـ أي نبيّ ـ غير محتاج إلى دلائلَ خارجيَّة، أو براهينَ كلاميَّة، أو معجزات حسيَّة، لتدلَّ على صدق نبوَّته، وصحَّة رسالته من عند الله. ويقول: إنَّ كلَّ شيء في النَّبي يدلُّ على أنَّه نبيٌّ مرسلٌ من عند الله. إنَّه يكون في سيرته وخُلقه وشمائله ومَخَايله معجزة كاملة، وبرهانا صادقًا على نبوته، ولذلك لما وقع بصر عبد الله بن سلام ـ عالم اليهود ـ على وجْه الرسول هتف قائلًا: «واللهِ ليس هذا بوجهِ كذَّاب»[1].

إنَّ كلَّ من رُزق العقل السليم، والطبع المستقيم، شَعَر بالإعجاز في صوت النَّبي ووجهه، ولم يحتج بعد ذلك إلى دليل وبرهان.

ثم يقرِّر أنَّ بين النَّبي وضمير أمته مناسبة خفيَّة، وصلة روحيَّة، فلا يتكلم النَّبي بشيءٍ؛ إلَّا وأسرع ضمير المستقيمين الأصحَّاء من أمتَّه

(١) رواه أحمد (٢٣٧٨٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. والترمذي في صفة القيامة (٢٤٨٥)، وصحَّحه، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٣٤)، والحاكم في الهجرة (١٣/٣)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن سلام.

QaradawiBooks.com

إلى تصديقه وإجابته، ويهتزّ لسماعه ويطرب؛ لأنَّه صوت بريء، لا يتطرَّق إليه الشك، وصوت غريب لم يطرق الآذان من قبل، وليس بينه وبين أصوات الخلق، وما ألفه العالم من أدب وفلسفة وعلم مشابهة.

يقول: وإذا رفع النَّبيُّ صوته بالأذان ودعا إلى الله، سَجَدت له أرواح أمَّته وطربت؛ لأنَّ هذا النداء لم تسمعه الآذان من قبل، فلا يعلو هذا الصوت الغريب إلَّا وأسرع السعداء إلى إجابته قائلين: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ويقول: إنَّ المؤمن ليس بحاجة إلى دليل خارجيٍّ على صدق النَّبيِّ إذا كان صحيحَ المزاج، مستقيم الطبع، إنَّ دليله في نفس المستمع، وعلى ذلك يقومُ نظامُ الحياة، فهل إذا دعوت عطشان إلى الماء وقلت له: إنَّ في هذا القدح ماء، هل يقول لك: أين الدليل؟ وكيف أؤمن بدعوتك وأُصدِّق كلامك؟ وهل إذا دَعَت الأم الحنون طفلها الرضيع ليرتضع من ثديها قال الطفل: هاتِ الدليل يا أمي حتَّى أروي نفسي وأشبعها.

إنَّ وجود العطش في نفس العطشان، ووجود الجوع في الرضيع، ووجود الإخلاص في الداعي، لكفيلٌ بالتصديق، مُغْنٍ عن كل دليل.

إنَّ المعجزات لا تُوجب الإيمان؛ لأنَّها لقهر العدوِّ، وإسكات الخصم، وإعجاز العنيد! إنَّ الَّذي يُولِّد الإيمان في القلب، ويخضع الإنسان للمحبَّة والطاعة هو المجانسة والمناسبة الروحيَّة، إنَّ المعجزة تقهر، والمقهور لا ينشرح صدره، ولا ينفتح قلبه[1].

(١) عن كتاب: رجال الفكر والدعوة في الإسلام للشيخ أبي الحسن الندوي صـ ٣٤٦، ٣٤٧، ط ٤، نشر دار القلم، الكويت، ١٩٧٤م.

QaradawiBooks.com

شهادة مَنْ عنده علم الكتاب برسالة محمد:

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: تكفي شهادة الله فوقَ كلِّ شهادة، ولكنَّه أضاف إليها شهادة: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾. والمفسِّرون يقولون: إنَّ الكتاب هنا هو التوراة والإنجيل، وقد ذكرنا معاني الكتاب الكثيرة في أوَّل السورة. ويقولون أيضًا: بل هو التوراة فقط.

ومعنى ذلك: الاستشهاد بمن يشهد لرسالتك يا محمد من أهل الكتاب، الَّذين قرؤوا الكُتُب السابقة، وقرؤوا فيها البشارة بك: ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] فهؤلاء المنصفون يشهدون بذلك.

وبعض المفسِّرين حدَّد هؤلاء، مثل مَن آمن مِن أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي، وتميم الداري، والنَّجاشي وغيرهم. وبعضهم قال: نَزَلت هذه الآية في عبد الله بن سلام فقط.

روى الترمذي حديثًا عن عبد الله بن سَلام قال: نزلت فيَّ آيتان من كتاب الله: آية الرعد ـ هذه ـ، وآية الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠][1].

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٢٥٦) وفي المناقب (٣٨٠٣) وقال: حديث غريب. وضعف الألباني في ضعيف الترمذي (٦٤٢).

QaradawiBooks.com

ولكنَّ الشَّعبيَّ قال: لم يرد في عبد الله بن سَلَام شيء[١]. وقال سعيد بن جُبَيْر: كيف يقال هذا. وهذه السورة مكيَّة وليست مدنيَّة[٢]؟!

وبعضهم استثنى هذه الآية وحدها وقال: إنَّها مدنيَّة.

ولذلك رجَّح بعضهم أن يكون الكتاب هو القرآن ويكون المراد: يشهد لك مَن يعلم القرآنَ ومن يتفقَّه فيه، ومَنْ كانت له بصيرة بمعرفة القرآن، من أمثال السابقين الأوَّلين من الصحابة: أبي بكر وعمر، وعثمان وعلي، وسعد وطلحة، والزبير وابن عوف، وسعيد بن زيد وابن مسعود وغيرهم، وكل من له بصر وفهم وعلم بالقرآن، يعلم أنَّ هذا الكلام ليس من كلامك، ولكنَّه من كلام الله ﷻ.

وهذا ما نشهده إلى اليوم، أنَّ كلَّ نصٍّ يدلُّ على مَنْ قاله، فشعر المتنبي يدلُّ عليه، وشعر حسان بن ثابت يدلُّ عليه، وهكذا، والقرآن الكريم يدلُّ على أنَّ محمدًا ليس هو قائله، وكلامُ محمد ﷺ الَّذي رُوِيَ عنه من غير القرآن ـ رغم بلاغته وروعة بيانه ـ مختلف تمامًا عن كلام القرآن، وواضحٌ تمامًا أنَّه غير القرآن الكريم، حتَّى إنَّه حين يستشهد بآيةٍ من القرآن يتَّضح الفارق بجلاء بين الآية وبين كلامه ﷺ، وإذن ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: علم القرآن.

وهناك أقوال أخرى: فبعضهم قال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو جبريل، والكتاب هو اللوح المحفوظ.

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦٦٩/٤) لابن المنذر.

(٢) رواه ابن جرير في التفسير (٥٠٦/١٦)، عن أبي بشر قال: سألت سعيد بن جبير، عن قول الله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أهو عبد الله بن سلام؟ قال: فكيف وهذه السورة مكية؟

QaradawiBooks.com

وبعضهم يقول: هو الله الَّذي يعلمُ كلَّ شـــيء، وهنا لا معنى لعطف الصفة: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على الــذات: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا﴾ فهذا غير مستحسن لغة.

ولا مانع عندي أن يُــراد بمن عنده علم الكتاب: مَــنْ آمَن مِن أهل التوراة والإنجيل، وشــهدوا بصــدق محمد ﷺ، لمــا عندهم من علم الكتاب، وأهل العلم بالقرآن كذلك، فهم أعرف النَّاس بصدق محمد ﷺ.

والحمد لله الَّذي هدانا لهذا وما كنا لنهتديَ لولا أن هدنا الله.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

الفهارس العامة

- فهرس الأحاديث النبوية الشـــريفة.
- فهرس الموضوعات.

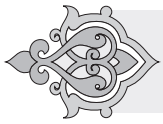
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com



فهرس الأحاديث النبوية الشريفة



الحديث	رقم الصفحة
أ	
ابدأْ بنفْسِكَ ثُمَّ بمن تعول	٢٨
أبرَّهما وأوفاهما	٣٥٤
اتِّباع السَّواد الأعظم	١٠٣
أحبُّ الصيام إلى الله تعالى: صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا	٤٩
إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقِيَ ربَّه فرح بصومه	٢٧٤
إذا رأيتَ أُمَّتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تُوُدِّع منها	٢٠٣
اذهبْ فادعُه لي. فقال: يا رسول الله، إنَّه أعتى من ذلك	٢١٤
أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصْلة منهنَّ	٢٤٦
ألا إنَّ في الجسد مُضْغة إذا صَلَحت صَلَح الجسدُ كلُّه	٢٨٧
اللهمَّ حوالينا ولا علينا	٢٠٨
اللهمَّ فقِّهْه في الدين، وعلِّمْه التأويل	٢٢، ٤١
اللهمَّ لا تقتُلْنا بغَضَبِك، ولا تُهْلِكْنا بعذابك	٢٢١
أَمَا سمعتم قولَ العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟	٢١، ٢٤

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إنَّ الله ليُمْلي للظالم حتَّى إذا أخذَه لم يُفْلِتْه	٢٠٥
إنَّ أوَّل زمرةٍ تدخل الجنَّة ثُلَّة من فقراء المهاجرين الَّذين تُسَدُّ بهم الثُّغُور	٢٦٥
أنَّ رجلًا في الجنَّة قال: يا ربِّ، أريد أن أزرع	٣٣٤
إنَّ رُوحَ القُدُس نَفَثَ في رُوعي...	٣٠٢
إنَّ في الجنَّة شجرةً يسير الراكب في ظلِّها مائة عام	٢٩٩، ٣٣٥
إنَّ النَّاس إذا رأوُا الظالمَ فلم يأخذوا على يديه	٢٠٢
أنتم أعلم بأمر دنياكم	١٨
إنَّما هما بياضُ النَّهار وسوادِ اللَّيْل	٢٠
ب	
بمَ تقضي يا معاذ؟ فقال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟	٣٦
ت	
تُحْشَرون حفاةً عُراةً غُرْلًا	٢٣٦
تفكَّروا في آلاء الله، ولا تفكَّروا في الله فتَهْلكوا	١٤٣
د	
دخلت امرأة النَّار في هرَّة حبستها	٢٤٩
الدعاء مخ العبادة	٢١٦
الدعاءُ هو العبادة	٢١٦
ذ	
ذهب الظمأ، وابتلت العُروق، وثبت الأجرُ إن شاء الله	٢٧٥

غير مرخصة للطبع
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ر	
رُبَّ أَشْعَثَ أغبرَ ذي طِمْرَيْن لا يُؤْبَه له لو أقسم على الله لأبرَّه	٢٦٥
ربَّنا لك الحمد، ملءَ السماوات، وملءَ الأرض، وملءَ ما بينهما	١٠٨
س	
سبحانَ من يُسبِّح الرَّعْد بحمده	٢٢١
سكت عن أشياء رحمةً بكم غيرَ نسيانٍ، فلا تبحثوا عنها	١٠١
ط	
طوبى شجرةٌ في الجنَّة طولها كذا أو عرضها كذا	٣٥
ع	
عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين من بعدي، عَضُّوا عليها بالنواجذ	١٠٣
ف	
فإنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من ضِلَع	٤٨
ق	
القضاة ثلاثة: قاضٍ عرف الحقَّ وقضى به، فهو في الجنَّة	٤٦
ك	
كان خلقه القرآن	٣٤
كلُّ سُلَامى من النَّاس عليه صدقةٌ كلَّ يوم تطلع فيه الشمس	٢٩٥
كلُّ مولودٍ يُوْلَد على الفطرة	١٩٨، ١٩٩، ٢٨٢
ل	
لا إلٰه إلَّا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج	٢٠٣

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
لا تنقضي عجائبه	٢٢
لا، نفي لهم، ونستعينُ اللهَ عليهم	٢٤٧
لا يردُّ القَدَرَ إلَّا الدعاء	٣٦٢
للصائم فرحتان يفرحهما: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربِّه	٢٧٤
لو اتَّفَقْتما على رأيٍ ما خالفتُكما	١٠٢
م	
ما أَحَلَّ اللهُ في كتابه فهو حلالٌ، وما حرَّم فهو حرام	١٠١
ما أكل أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكل من عمل يده	٤٩، ٢٩٥
ما الدنيا في الآخرةِ إلَّا كما يجعل أحدُكم إصبعه في اليَمِّ، فَلْينظرْ بِمَ يرجع	٢٧٦
ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر	٢٩٨
ما من مسلمٍ يزرع زرعًا، أو يغرس غرسًا، فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ	٢٩٥
ما من ملبٍّ يُلَبِّي، إلَّا لبَّى ما عن يمينه وشماله	٢٢٠
مَثَلُ المؤمنِ كَمَثَل الحديدةِ تدخل النَّار فيظهر خَبَثُها ويبقى طيِّبها	٢٣١
مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء من قبلي، كمثل رجلٍ بنى بيتًا فأحسنه وأجمله...	٣٣١
مثلي ومثل ما بعثني الله، كمثل رجل أتى قوما فقال: رأيت الجيش بعيني	٥
المسلمُ أخو المسلم، لا يظلمُه ولا يُسْلِمُه	٢٤٨
من أتاني يمشي أتيتُه هَرْوَلة، ومن تقَرَّب إليَّ شبرًا تقَرَّبت إليه ذراعًا	٢٨٢
من أحبَّ أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فليصلْ رحمه	٣٦٢
من فسَّر القرآنَ برأيه أو بما لا يعلم، فليتبوَّأْ مقعدَه من النَّار	٤٤
من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ	٤٦
من قال في كتاب الله ﷻ برأيه فأصاب، فقد أخطأ	٥

QaradawiBooks.com

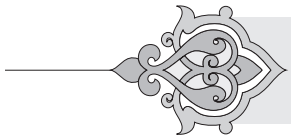
الحديث	رقم الصفحة
ن	
ناركم هذه جزءٌ من سبعين جزءًا من نار الآخرة	٣٢٩
نعم، إذا كَثُر الخَبَث	٢٠٤
نعم، قالوا: لِمَ؟ قال: بتهاونهم وسكوتهم على معاصي الله	٢٠٣
نعم، ويُحْيِيكَ ويبعثُكَ، ويُدخلُك النَّار	١٥٥
هـ	
هي من قَدَرِ الله	٣٦١
و	
واللهِ ليس هذا بوجهِ كذَّاب	٣٩٦
وإنِّي أنا النذير العُريان	١٨٠
وفي بُضْع أحدِكم صدقة، قالوا: يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته	٢٩٦
ي	
يا أمَّ حارثة، إنَّها جِنان في الجنَّة، وإن ابنَكِ أصاب الفردوسَ الأعلى	٢٦٢
يا أهلَ النَّار، خلودٌ فلا موت، ويا أهلَ الجنَّة، خلودٌ فلا موت	١٦٤
يا أيُّها النَّاس، تُوبوا إلى الله فإنِّي أتوب إليه في اليوم مائة مرَّة	٣٠٧
يا عائشة، أفلا أكون عبدًا شكورًا؟	٣٠٧
يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنَّهار، ويجتمعون في صلاة الفجر	١٩٤

❊ ❊ ❊

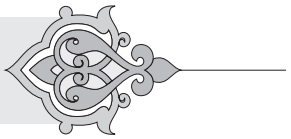
غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com



فهرس الموضوعات



- **من الدستور الإلٰهي للبشرية** ٤
- **من مشكاة النبوة الخاتمة** ٥
- **مُقَدِّمة الطبعة الثانية** ٧
- **مُقَدِّمة الطبعة الأولى** ٩

❖ **بين يدي التفسير** ١٥

تكفُّل الله بحفظ القرآن ١٦

القرآن المصدر الأول لهذا الدين ١٨

تفسير القرآن بالقرآن ٢٤

دلالة كلمة ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ في القرآن الكريم ٢٦

تقرير عالمية الدعوة في القرآن المكي ٢٧

الرد على من قال بإيمان فرعون موسى ٢٨

أهمية مراعاة السياق ٣٠

تفسير القرآن بالسنة ٣٤

الحذر من تفسير القرآن بالأحاديث الضعيفة والموضوعة ٣٥

تفسير الصحابة رضي الله عنهم ٣٧

معرفة أسباب النزول وأهميته ٣٧

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

معرفة صحيح أسباب النزول ٣٩
أهمية الرجوع إلى تفسير الصحابة ٤٠
تفسير التابعين ٤٢
اختلاف التنوع في التفسير ٤٣
التفسير بمقتضى اللغة ٤٤
المراد بالنهي عن تفسير القرآن بالرأي ٤٤
إخلاص النية ٤٧
التجرد من سوابق الأفكار والاعتقادات ٤٧
القرآن كتاب الزمان والمكان ٥٠
القرآن كتاب الحياة ٥١
القرآن كتاب الإنسان كله ٥٢
أهميَّة التمكن من اللغة العربيَّة ٥٣
فهم اللفظ في عصر نزول القرآن ٥٤
أهمية علم النحو والصرف ٥٦
أهمية علم البلاغة ٥٩
علوم السنة ٦١
الحذر من الأحاديث الموضوعة والإسرائيليات الباطلة ٦٢
الحذر من المرويات المردودة عن مفسِّري السلف ٦٤
الحذر من الآراء الضعيفة والفاسدة ٦٥

❖ **تفسير سورة الرعد** ٦٩
هل السورة مكية أو مدنية؟ ٦٩
المكي والمدني ٧٠
استثناء بعض الآيات من السور المكيَّة بأنَّها مدنية ٧١
ترتيب نزول سورة الرعد ٧٢

QaradawiBooks.com

تسلية الرسول ﷺ والدفاع عنه ٧٢
لماذا سُمِّيت سورة الرعد؟ ٧٤
تسميات السور وأسبابها ٧٤
سر البداية بالبسملة ٧٥
هل البسملة آية من الفاتحة؟ ٧٦
الله الرحمن الرحيم ٧٧
أرحم الراحمين ٧٧
خير الراحمين ٧٨
الرحمة من صفات الله والعذاب من أفعاله ٧٩
ورود لفظ «الرحمن» و«الرحيم» في القرآن الكريم ٧٩
﴿الٓمٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ... لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ٨١
ترتيب السور توقيفي ٨١
الأحرف المقطَّعة في أوَّل السورة ٨١
أعداد الأحرف في أوائل السُّور ٨٣
أثر هذه الأحرف في الأسماع والقلوب ٨٣
معنى الآيات ٨٤
معنى الكتاب في الآية ٨٦
القرآن المنزَّل ٨٨
صفة الربوبية ٨٨
بين كلمة «الربِّ» في القرآن وكلمة «الأب» في الإنجيل ٨٩
علاقة الله تعالى بعباده علاقة البر والرحمة ٩٠
كلمة «الحقِّ» في القرآن ٩١
والقرآن حقٌّ من نواحي عدّة ٩١
الأكثريَّة لا تؤمن ٩٢

غير مصرح للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

شواهد الحق للقرآن ٩٣
كلمة «النَّاس» في القرآن الكريم ٩٤
لماذا لا يؤمن أكثر الناس؟ ٩٤
الإيمان أمر اختياري ٩٤
موانع الإيمان والهداية ٩٥
وقفتان في تفسير الآية ٩٧
هل الآية تنفي القياس؟ ٩٨
الكتاب والميزان ٩٩
هل تدل الآية وأمثالها على إلغاء رأي الأكثريَّة؟ **٩٩**
الاستدلال الخاطئ في وضع النص في غير موضعه ١٠٠
تفاوت أنظار أهل الاجتهاد في قضايا المصالح ١٠١
قاعدة الترجيح بالكثرة ١٠٢
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ... رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ١٠٥
عناية القرآن بالكون ١٠٥
اسم الذات الإلٰهيَّة (الله) ١٠٦
رفع السماوات بغير عمد ١٠٧
ولكن ما هي السماوات؟ ١٠٨
﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ كيف رفعت بغير عمد؟ **١٠٩**
استواء الله على عرشه ١١٠
مذهب السلف في الصفات ١١٣
ما العرش؟ ١١٤
﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ... رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ١١٦
تسخير الشمس والقمر ومعناه ١١٦
وهنا نتساءل لِمَ سُخِّر الشمس والقمر؟ ١١٦

نسخة إلكترونية
QaradawiBooks.com

فما معنى التسخير إذن؟ ١١٦
عبادة الأجرام السماوية ١١٧
جريان الشمس والقمر ١١٨
الأجل المسمَّى ١١٩
تدبير الله تعالى للأمور ١٢٠
وجوب تدبير الإنسان وتخطيطه ١٢٢
تفصيل الآيات من الله تعالى ١٢٢
معنى اليقين بلقاء الله وأهميته ١٢٣
«لعلَّ» في القرآن الكريم ١٢٣
مراتب العلم ١٢٥
أهميَّة اليقين بالآخرة ١٢٦
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ ... لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ١٢٧
اهتمام القرآن بالأرض بعد السماء ١٢٧
المراد بكلمة الأرض في القرآن ١٢٧
المقصود بالأرض هنا والمراد بمدِّها ١٢٩
مدُّ الأرض وبسطُها لا ينافي تكويرَها ١٣٠
وهنا يأتي السؤال هل هي مبسوطة أو مكوَّرة؟ ١٣١
أهميَّة الجبال الرواسي للأرض ١٣٢
الأنهار في الأرض ١٣٣
معنى كلمة «جعل» ١٣٣
ظاهرة الزوجيَّة في النبات وفي الكون كله ١٣٤
معنى إغشاء الليل النهار ١٣٦
الكون مجال للتفكر في آيات الله ١٣٨
القرآن والدعوة إلى التفكر ١٤١

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

التفكر في الخلق لا في الخالق ١٤٢
﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ... فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ ١٤٦
آيات الله في الأرض والزرع ١٤٦
احترام العقل واعتباره دليلًا على وجود الله ووحدانيَّته ١٥٣
تعجيب الله تعالى رسوله من الجاحدين للبعث ١٥٤
معارك القرآن الفكرية والعقدية الكبرى ١٥٦
معركة البعث والجزاء في القرآن ١٥٦
هل هذا الخطاب للنبيِّ ﷺ ؟ أو لكل من يَصلح له الخطاب، فهو خطاب عام؟ ١٥٧
الكفر بالبعث كفر بقدرة الله تعالى وعدله وحكمته ١٥٨
طريقة القرآن في مقابلة الكفر بالشكر وبالإيمان ١٦١
معنى الأغلال في أعناق الكفار ١٦٢
أصحاب النار ١٦٣
الخلود في النار ١٦٤
﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ ... وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ١٦٥
الاستعجال بالسيئة قبل الحسنة ١٦٥
جناية الوثنيَّة على عقل الإنسان ١٦٦
العقوبات الإلٰهية أصبحت أمثالًا سائرة ١٦٧
مجامع الحمد والكمال لله ﷻ ١٦٩
بين الرجاء والخوف ١٧٠
لا يؤاخذ الله النَّاس بكل سيئاتهم ١٧١
سُنَّة الله في الثواب والعقاب ١٧٢
اقتراح الآيات الكونيَّة ١٧٣
معجزة القرآن الكريم ١٧٥
ظهور آيات كونيَّة كثيرة على يد الرسول ﷺ ١٧٧

QaradawiBooks.com

من رحمة الله ﷻ عدم الاستجابة لمطالب الكفار التَّعنتيَّة ١٧٨
الرد على مقترحي الآيات ١٧٩
وظيفة الرسول الإبلاغ والإنذار ١٧٩
لكل قوم هاد ١٨١
شمول العلم الإلٰهي لكل شيء **١٨٢**
﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ ... وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ ١٨٢
علم الله تبارك وتعالى يمتاز عن علم البشر بعدَّة خصائص ١٨٣
علم الله لما تحمله كل أنثى ١٨٤
غيض الأرحام وازديادها ١٨٤
كُلُّ شَيْءٍ عِندَ الله سبحانه بِمِقْدَار ١٨٥
تحديد نوع المولود لا يتعارض مع علم الله تعالى الأزلي ١٨٥
مدّة الحمل عند الفقهاء ١٨٦
عالم الغيب والشهادة ١٨٨
الكبير المتعال ١٨٩
يستوي في علم الله السِّر والجهر والاستخفاء والظهور ١٩٠
خطأ الفلاسفة المُؤلِّهين ١٩١
خطأ الفلاسفة الإسلاميين ١٩٢
الملائكة الحفظة الكاتبين ١٩٣
تكريم الله سبحانه للإنسان وتسجيل أعمالِه عليه ١٩٤
بماذا يغير الله ما بالأقوام والأمم؟ ١٩٦
هل تشمل الآية التغيير من الشرِّ إلى الخير؟ ١٩٧
استعداد النفوس للفجور والتقوى ١٩٩
مسؤولية الأفراد والجماعات على تغيير ما بالأنفس ٢٠٠
قاعدة اجتماعية مهمة ٢٠٠

QaradawiBooks.com

الماركسيون والتغيير ٢٠١
متى تنزل العقوبة؟ ٢٠٢
❖ **آيات الله في الآفاق وفي الأنفس** **٢٠٧**
﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ... وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ ٢٠٧
ظاهرة البرق آية من آيات الله ٢٠٧
السحاب وممَّ يتكون؟ ٢٠٩
تسبيح الرعد بحمد الله وكيف يكون؟ ٢١٠
معنى إرسال الصواعق ٢١٢
جدال الكفار في وحدانيَّة الله وقدرته ٢١٣
الله وحده له دعوة الحق ٢١٥
الذين يدعون غير الله ٢١٦
دعاء الكافرين في ضلال ٢١٧
علاقة الكون بالله ٢١٨
ضرورة تجاوب الإنسان مع الكون في السجود والتسبيح ٢٢٠
كلمة «قُلْ» في القرآن ٢٢١
توحيد الربوبيَّة والإلٰهيَّة ٢٢٢
ماذا عبدوا من دون الله؟ ٢٢٤
الله وحده خالق كل شيء ٢٢٦
الواحد القهار ٢٢٧
توحيد الربوبيَّة دليلٌ على توحيد الإلٰهيَّة ٢٢٨
مثل الحق والباطل **٢٣٠**
﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ... كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ٢٣٠
الحق ينفع الناس ٢٣٣

QaradawiBooks.com

عاقبة المستجيبين لله **٢٣٥**
﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ... وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ ٢٣٥
عاقبة الَّذين لم يستجيبوا لربِّهم ٢٣٥
التقابل في الأساليب في سورة الرعد ٢٣٨
إنكار يتكرَّر في القرآن **٢٤٠**
﴿أَفَمَن يَعْلَمُ ... فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ ٢٤٠
أولو الألباب ٢٤١
تنويه الإسلام بالعقل ٢٤٢
من أوصاف أولي الألباب في القرآن ٢٤٢
لماذا وُصف أُولو الألباب بالتَّذكُّر؟ ٢٤٤
لوحة قرآنيَّة لأولي الألباب ٢٤٤
الوفاء بالعهود والمواثيق ٢٤٥
كثرة المواثيق ٢٤٦
وَصْل ما أمر الله بوصله ٢٤٨
الخشية من الربِّ سبحانه ٢٤٩
الخوف من سوء الحساب ٢٥٠
الصبر ابتغاء وجه الله ٢٥١
مناقشة كانت في الأخلاق القائمة على الواجب ٢٥٣
الصبر من الأخلاق الربَّانيَّة ٢٥٤
المزج في القرآن بين العبادة والأخلاق ٢٥٤
الصبر لله والصبر بالله ٢٥٥
تحقيق ابن القيِّم في الفرق بين الصبرين ٢٥٥
قيل المراتب أربعة ٢٥٧
من صفات أُولي الألباب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ٢٥٨

QaradawiBooks.com

الإنفاق في السر والعلن ٢٥٩
مقابلة الإساءة بإحسان ٢٦٠
معنى عقبى الدار ٢٦١
صلة الأخلاق بالعقل ٢٦٣
دخول الملائكة وسلامهم على أُولي الألباب ٢٦٤
﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ ... طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٍ﴾ ٢٦٧
صورة معتمة مقابل الصورة المشرقة ٢٦٧
ثلاثة أوصاف أساسية ٢٦٧
نقض العهد والميثاق ٢٦٨
قطع ما أمر الله بوصله ٢٦٩
الإفساد في الأرض ٢٦٩
إصلاح الأرض هدف من أهداف الرسالات كلِّها ٢٧٠
عاقبة المفسدين ٢٧١
سَعَة الرزق ابتلاء من الله ﷻ ٢٧٢
حكمة الله سبحانه في بسط الرزق وتضييقه ٢٧٣
الفرح المذموم والفرح المحمود ٢٧٤
قيمة الحياة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة ٢٧٦
تكرار اقتراح الآيات الخارقة ٢٧٧
موضوع سورة الرعد ٢٧٨
مواجهة الباطل بصراحة ٢٧٨
مَن الَّذين يُضِلُّهم الله ويهديهم؟ ٢٨٠
مَنْ الَّذي يشاء الضلالة والهداية؟ ٢٨٠
لمن يكون الإضلال والهداية؟ ٢٨٢
هداية البيان وهداية التوفيق ٢٨٣

QaradawiBooks.com

لمن تكون هداية الله؟ ٢٨٤
من هم الَّذين أنابوا إلى الله؟ ٢٨٥
اطمئنان القلوب بذكر الله ٢٨٦
المراد بذكر الله في الآية ٢٨٧
السعادة الحقَّة في طمأنينة القلوب بالإيمان ٢٩٠
حال الحضارة المادية المعاصرة ٢٩١
السعادة والطمأنينة بذكر الله ٢٩٢
ثواب المؤمنين في الدنيا قبل الآخرة ٢٩٣
اقتران الإيمان بالعمل في القرآن ٢٩٤
ما المراد بعمل الصالحات؟ ٢٩٤
شروط الأعمال الصَّالحة الدينيَّة والدنيويَّة ٢٩٦
تحقيق معنى كلمة «طوبى» ٢٩٧
تسلية الرسول عن موقف الكفار وعنادهم في طلب الآيات **٣٠١**
﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ ... فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ٣٠١
القرآن وحيُ الله ﷻ ٣٠١
تلاوة آيات الله من مهمة الرسول ٣٠٣
كفر المشركين بالرحمن ٣٠٤
ترتُّب توحيد الإلٰهيَّة على توحيد الربوبيَّة ٣٠٥
التوكل على الله وحده دون سواه ٣٠٥
المتابُ إلى الله وحده ٣٠٧
تعظيم شأن القرآن ٣٠٨
قول آخر مرجوح في تفسير الآية ٣١٠
معنى ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ٣١١
إصابة الكافرين بصنع أيديهم ٣١٣

QaradawiBooks.com

استهزاء الأمم بالرسل ٣١٤
الله تعالى يُمْهل ولا يُهمل ٣١٥
﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ ... وَعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ ٣١٧
معركة القرآن الأولى مع الشرك ٣١٧
جناية الشرك والوثنيَّة على البشريَّة ٣١٨
مراقبة الله سبحانه لعباده وهيمنته عليهم ٣١٨
حذف الخبر في القرآن ٣١٩
دلالة كلمة ﴿كَسَبَتْ﴾ ٣٢٠
الذين جعلوهم لله شركاء ٣٢١
معنى تزيين المكر للكافرين ٣٢٣
الصَّدُّ عن سبيل الله ٣٢٤
مَن المزيّن والصَّادّ للمشركين الشيطان أم النفس؟ ٣٢٥
نسبة التزيين إلى الله تعالى ٣٢٥
ما المقصود بـ «السبيل»؟ ٣٢٦
سنَّة الله تعالى في الإضلال ٣٢٧
الفرق بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ٣٢٨
الجنة الَّتي وعدها الله المتقين ٣٣٠
جريان الأنهار ٣٣٣
طعام أهل الجنَّة ٣٣٤
ظلُّ الجنَّة ٣٣٥
عُقْبى المتَّقين وعُقْبى الكافرين ٣٣٦
﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ... وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ ٣٣٧
موقف الَّذين آتاهم الله الكتاب من القرآن الكريم ٣٣٧
المراد بـ «الكتاب» ٣٣٧

QaradawiBooks.com

ذكر التوراة والإنجيل في كثير من السور المكيَّة ٣٣٨
عبارة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ عبارة مدح وثناء ٣٣٩
عبارة ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ ٣٤٠
عبارة ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ و﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ تحتمل المدح والذم ٣٤٠
المراد بالأحزاب هنا ٣٤١
أخْذُ بعض القرآن دون بعض ٣٤٢
عربيَّة القرآن وحكمُ ترجمته إلى اللغات الأخرى ٣٤٥
اتِّباع الهدى لا اتِّباع الهوى ٣٤٩
بشريَّة الرُّسل وما لهم من أزواج وذريَّة ٣٥١
ليس بيد الرسل المجيء بالآيات إلَّا بإذن الله ٣٥٣
معنى ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴾ ٣٥٤
معنى المحو والإثبات ٣٥٧
المراد من ﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ ٣٥٩
اللوح المحفوظ فيه علم الله سبحانه الَّذي لا يتغيَّر ٣٦٠
التغيُّر والثبات في عالم الأقدار الكونية ٣٦١
التغيُّر والثبات في الأحكام الشرعيَّة ٣٦٤
على الرسول البلاغ، وعلى الله الحساب ٣٦٤
كلمة «وعد» في القرآن ٣٦٥
ما على الرسول إلَّا البلاغ ٣٦٦
﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ ... وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [الرعد ٤١ ـ ٤٣] ٣٦٨
نقص الأرض من أطرافها وكيف يكون ٣٦٨
حاكميَّة الله سبحانه ٣٧٠
الحاكميَّة الكونيَّة القدريَّة ٣٧٠
الحاكميَّة الشرعيَّة الأمريَّة ٣٧١

QaradawiBooks.com

شيوع مصطلح «الحكم» في كتب أصول الفقه ٣٧١
الله سبحانه سريع الحساب ٣٧٢
مكر الله ومكر الناس ٣٧٣
لله سبحانه المكر جميعًا ٣٧٤
دلالة كلمة «كسب» في القرآن الكريم ٣٧٥
العاقبة للمتقين ٣٧٦
تَبجُّح المشركين بتكذيب محمد عليه الصلاة والسلام ٣٧٧
شهادة الله لمحمد كافية ٣٧٧
كيف تكون شهادة الله لرسوله؟ ٣٧٨
القَسَم في سورة الحاقَّة على صدق الرسول الكريم ٣٨١
القرآن تنزيل من رب العالمين ٣٨٢
محاورةٌ بين ابن القيِّم وأحد كبار أحبار اليهود ٣٨٤
ثقة الرسول ﷺ بنصر الله ٣٨٦
علامَ يدلُّ هذا؟ وماذا نسميه؟ ٣٨٧
شهادة المنصفين من أهل الكتاب ٣٩٠
من ثمارهم تعرفونهم ٣٩١
النبي معجزة كاملة وبرهان على نبوّته ٣٩٦
شهادة مَنْ عنده علم الكتاب برسالة محمد ٣٩٨

- **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٤٠٣**
- **فهرس الموضوعات ٤٠٩**

* * *

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com